لوح ثلج



فى خيال كل امرىء بطولة مثالية يطمع أن يحرزها ، وبطولة السيد « دكرورى » التى يحرص على ألا يباريه فيها أحد ، هى أن يكون حامل الثلج المثالى .

قصة : محمود تيمور

لقد تخير هذه المهنة له ، وأولاها كل جهده ، مهنة حمل ألواح الثلج من المصنع فى ضاحية المدينة الى « **قهوة النزهة** » المشرفة على شاطىء البحر وليس الطريق بين المصنع والقهوة بالقصير ، ولا هو بالسهل الميسور ، بيد أن « دكرورى » يقطعه مشبوب النشاط ، لا يعروه ضيق أو ملال .

لا يكاد يهل الصيف ، وتستقبل «قهوة النزهة» روادها من المصيفين حتى يتجلى الرجل بجسد ضامر ، وقامة مبسوطة ، ووجه بارز العظام ، ولكأن رأسه المستطيل شمامة قرعاء ·

وانك لتراه يتدفع بخطافساح ،متعالى الهامة ، من زهو واعتزاز ، وفمه منشق عن ابتسامة عريضة فيها مخايل سذاجة واستخفاف ، وان هذه الابتسامة لهى الطابع المميز له ، فيها تتبلور شخصيته ، وهى تتراءى على الفور سابحة على وجهه ، تبتلع قسماته ، على حين يتمدد على كتفه لوح الثلج الغارق فى برودته فى ركون واستسلام !

والناس جميعا ،سواء المصيفون منهم وغير المصيفين ،لايذكرون متى بدأ السيد **دكرورى** يزاول مهنته تلك ، ولكنهم يذكرون أنهم يرونه فى كل صيف ، وقد يخيل اليهم أن مزاولته لتلك المهنة كانت منذ حقب لايعرف مداها ،وليس الرجل نفسه أكثر معرفة بشأنه من الناس حوله ، فقد أسقط من حسابه نظرية الزمن وقياس الاعمار ،لايبالى من الشهور والاعوام ، قدر ما يبالى استمتاعه بالحياة وفق هواه ، فى نطاق يومه المشهود ،بل فى حدود لحظته السانحة !

حسبك من السيد **دكرورى** انه رجل واجب ، وأنه عفيف أنوف ، وهو فى ترفعه عنيد الى الغاية القصوى ، أما كسبه فيأتيه من موردين : الاول أجره على حمل الواح الثلج ، والآخر ما يمنحه اياه رواد القهوة لقاء ما يقوم به لهم من أعمال وخدمات ·

والسيد دكرورى لا يؤدى كل عمل يطلب اليه أن يؤديه ، فله مزاج خاص فيما يقبل أن يعمل ، ومحال أن تقسره على عمل يأباه ، حتى لو استعنت على ذلك بأن تسوقه الى دار الشرطة سوقا · فهو يظل أمامك كالصنم الصلد، يطالعك بوجهه المستطيل الاصم ، لا تطرف له عين ، ولا تختلج فيه جارحة ، فلا تملك أنت الا أن تطلق ضحكة ساخرة جوفاء ، ولا يملك هو الا أن يحييك بأحسن من تحيتك أو يردها عليك ، فيعلو صوته بضحكة طائشة شوهاء ، وهو يتحسس بأصابعه العابثة قمة الشمامة القرعاء !

والرجل يعلن فى كل مناسبة ، بل فى غير مناسبة ، أنه يرفض الهبات والعطايا ، فليس هو بالمستجدى ،ولكنه رجل يكسب رزقه بعرق الجبين ،وما يمد يده الى درهم الا كان جزاء حلالا على عمل نهض به ، وانه لرجل قنوع بما يناله من كسب وان قل ، فاذا توافر له فى يومه الرزق بادر *الى انفاقه مجهزا عليه* وان كثر ، فنظرية الاقتصاد أو الادخار لا تعرف الى عقله طريقا ، وأما الحكمة القائلة بأن القرش الابيض ينفع فى اليوم الاسود، فلا مكان لها فى حياته، وهو يعتبر أيامه كلها بيضا لن يغشاها سواد ···· واذا لم يكن بد من حكمة يطمئن اليها ويتخذها شعارا له فى سلوكه الاجتماعى ، فهى الحكمة القائلة : اصرف ما فى الجيب يأتيك ما فى الغيب !

وان حرصه على أداء واجبه على الوجه الأمثل ، ليجعله يستمسك بالدقة فى ايصال الواح الثلج الى القهوة فى المواعيد المرسومة ليل نهار ، وليست عنده ساعة يستعين بها على معرفة المواقيت ، ولا هو يرضى أن ينزل عن كبريائه ليسأل أحدا ممن يحملون الساعات ، وما أغناه عن التعرف والاستخبار ، فهو قادر على تعيين الزمن بحاسة طبيعية تخلقت فيه ،ونمت نموها حتى صارت عنده حاسة سادسة !

يغادر المصنع فى الوقت المحدد ، وعمود الثلج على كتفه ، ويصل الى القهوة فى الساعة المنتظرة ، لا يستقدم لحظة ولا يستأخر ، واذا رأيته وهو يتسلم من المصنع لوح الثلج ، ألفيته يعنى به كأنما هو طفل تترفق به أم رءوم ، يتناوله متلطفا ، ثم يدرجه فى الخيش المعد له كأنه قماط يحميه من عاديات الجو ، وينطلق به فى الطريق انطلاق الصاروخ لا يعوقه شىء ، فالمعابر مفتحة الابواب أمامه ، والسابلة من حوله تتباعد وتتفرق مخلية له وجه السبيل . ويظل على حاله حتى يبلغ محطة الوصول ، شامخ الانف ، يملكه شعور الانتصار ، وما ان يمر بحمله ، وجسمه مندى بقطرات الماء البارد ، حتى تحس نسمة رطبة تهب نحوك فى يومك القائظ ، فتكسبك الراحة والانتعاش .

وأسعد الأيام عند « دكرورى » هى الأيام التى يتلهب فيها الجو ، تلك أيامه المباركة ، فيها يبلغ ذروة نشوته ، فهو يجوز بين الناس متخطرا ، يحمل لوح الثلج ، وهم يصاولون سياط الشمس الحامية ، ووهجها اللاسع ، فيرميهم بنظرات تنفخ واستعلاء ، ولسان حاله يقول : أين أنتم منى أيها المساكين التعساء ، انكم فى النار تصلونها ، وأنا منها فى برد وسلام ! .

ويوما صحا السيد دكرورى من نومه ، على مألوف عادته ، وزايل مأواه يتثاءب ويتمطى ، فاذا ضوء الشمس الساطعة يجبهه ، واذا الهواء الساخن الثقيل يلفح وجهه ، واستبان له أنه فى يوم من أيام الصيف العاتية ، ولاحت على فمه بسمة فيها السخرية وفيها التحدى ، وحث الى المصنع خطاه ، وكلما أمعن فى السير أحس وطأة الجو الحار تحيط به ، فلقد انبرت الشمس تصب على الأرض جام الغضب ... وما كان ذلك بالجديد على السيد **دكرورى** ، فلم يعقه عن أداء واجبه وبلغ مصنع الثلج ، وسمع رئيس العملة يقول : « **شد حيلك يادكرورى ، أسرع حتى لا يذوب الثلج!** ».

فحدق الرجل اليه ماوسعه أن يحدق ، وهو يجيب : « **لوح الثلج معى يزيد ولا ينقص ، مهما يتغير الجو يا معلم ...** »

فقال رئيس العملة : « **حقا ان جسمك مصنع ثلج آخر ، يعوض اللوح عما ينقص منه !** »

وأتبع قوله ضحكة مجلجلة ، ولكن « **دكرورى** » قابلها بصمت وجمود ، وغادر المصنع صلب الملامح ، فى نظراته جد وتصميم ، واللوح مستقر على كتفه ، ملفف فى خيشة ، وأحس برد الثلج يرطب جسده ، فنشط فى السير ، وهو يمد خطوه ، ويضرب الهواء بيمناه ، كما يضرب الملاح الدرب موج البحر بمجدافه الشديد .

وطاف برأسه خاطر : **لماذا لا يغير خط السير ، فيختزل الطريق** ؟ انه على علم بأن ثمة سبيلا آخر غير مطروق يفضى الى الشاطىء ، لو سلكه لبلغ القهوة فى زمن أقصر ... لم يسبق له أن اتخذ هذا السبيل ، ولكن ماذا عليه ان فعل ، وهو ابن المنطقة ، لايخشى على نفسه فيها من شىء ؟ سيبلغ القهوة قبل الموعد المألوف على الرغم من وقدة الحر ، ولن ينقص لوح الثلج الا بعض قطرات ... ستقع المعجزة ، وانه لصانعها ... سيفوز بالبطولة ، وسيظفر من القوم بالتمجيد والاكبار .

وما عتم أن أنفذ الفكرة ، وسار على الدرب الجديد ، وقطع شوطا فيه ، وكان كلما دفع بخطاه اشتدت مغالبة الهواء

التساخن له ، فالطريق مفض الى الخلاء ، وفوق ذلك فهو غير معبد ، تسيخ الأقدام فى رماله ، الا أن السيد **دكرودى** لم ييأس ، وواصل سيره ، محددا من عزمه ، مستمدا من ذلك العمود البلورى المستريح على كتفه ما يبعث فيه النشاط والانتعاش .

ولاطف العمود بيده وهو يبتسم ...

وهبت عليه بغتة عاصفة رملية طمست عينيه ، فتريث قليلا يمسح وجهه ، ثم استأنف السير ، وقد هدأت العاصفة .

وغاصت قدماه فى رمال حارة كاوية ، فكأنما هو يمشى على جمر يتضرم ...

وتقاطر الماء على كتفه غزيرا ، فامتزج بقطرات العرق المنبثق منه ، وما هو الا أن ألقى ثيابه لاصقة بجسده ، كأنما هى قطعة من جلده ...

وتحسس عمود الثلج ، فرجف قلبه ، وسرعان ما ضاعف من جهده ، واضطر أن يقف هنيهة يلتقط فيها أنفاسه المبهورة ، ورمى ببصره يمنة ويسرة : بقعة جرداء لا يتبين فيها الا عتمة بسطتها ذرات الرمال الدكناء . أية وجهة يولى ؟ انه لا يخطىء أبدا ، فطرته دائما تهديه ، أليس فى قدمه ابرة مغنطيسية خفية تتجه به الى بر الأمان ؟

وعاد يتحسس عمود الثلج ، فهاله الأمر ... يالله ... ان العمود ليتضاءل ، بل ينهار ... فابتعث من من ضعفه قوة ، وزج بقدميه المكدودتين يقتلعهما من الرمل كما يقتلع جذر شجرة من باطن الأرض .

ليبلغن القهوة لا محالة ...

ولكن ... واأسفاه ... لن يتسنى له تسليم عمود الثلج صحيحا كاملا !

وواصل السير ، وقد اربدت سحنته الخرساء .

ومضى يستهدى فطرته فى عرض الطريق ...

ولكن ماذا تستطيع الفطرة أن تصنع فى تلك المتاهة العنيدة ؟

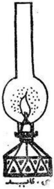
وعن له أن يعود الى الطريق المعبد .. وأراد أن يحدد مكانه : أين هو ؟ فأعياه الأمر ... أتكون الابرة المغنطيسية فى قدميه قد أصابها عطب ! انه ليحس الضياع ، بل يحس بأنه حبيس سجن عظيم ، له أن يدور فيه ما شاء ، دون أن يتخطى أسواره ...

أليس فى مستطاعه حقا أن يخلص من ذلك السجن الرهيب ؟

أليس ثمة من حيلة تعينه على أن يبلغ الشاطىء المفقود ؟

الخلق هنالك متجمعون يرتقبون مقدمه وان عددهم ليتضاعف كلما مر الوقت ، فقد أصبحوا حشدا عظيما ، وسيلقونه بالهتاف ممجدين جهاده الكبير ... أتراه يخيب ظن الناس به ؟

وانطلق فى الطريق ، وقد شد من عوده ، وعلا بهامته ، والارهاق آخذ منه كل مأخذ .



وتكاثفت العتمة من حوله ، عتمة الرمال التى تذروها الرياح ، فكأنما الليل مقبل يجر وراءه أكداس الظلام ...

وعزت عليه الرؤية الواضحة ، وجعل يدور فى تلك الدوامة الغبراء ، محاولا جهده أن يتنكب عن مواجهة العاصفة ، فهو يحيد عن مهبها ريثما تسكن ، وهو يجنح الى وجهة تحميه ما أمكن ...

وتشابهت تجاه عينيه كثبان الرمال ، وأدرك أخيرا أنه قد ضل حقا معالم الطريق . وشعر بأن شفتيه يعروهما جفاف ، وأن لسانه يجمد ، وحلقه يتشقق ، بل شعر بأن أضراسه تلوك حبات الرمال ، ولا يستطيع أن يلفظها ، وأن جسمه الذى وصفه رئيس العملة بأنه مصنع ثلج قد استحال فرنا يعمل على اذابة الثلج .

وانتظمته رجفة عارمة ...

وعاد يتحسس العمود على كتفيه فراعه ما ناله من ضمور ...

وكأنما أصابه مس ، ولم يعد له من شاغل الا ذلك العمود الذى يكاد يفنى ، فجعل يتفقده فى اللحظة بعد اللحظة ، ويتلقى ماءه المتسايل ، كأنه جريح يفقد حياته نزفا .

وأخيرا ألفى جسده يتهاوى وسط كثبان الرمال ، وأنزل العمود عن كتفه ، وطفق يعيد ادراجه فى خرقته ، وان لم يبق منه الا حطام ، واحتضنه بحنان وهو يهمهم : « **لن تخوننى ... يجب أن تقف هذا النزف المستمر .. تعقل قليلا !** »

وأدنى العمود من وجهه ، وما كادت بقاياه الباردة تلامس جذوة شفتيه ، حتى أنشب فى الثلج أسنانه ينحت منه فى شراهة مسعورة ، ويمتص عصيره كأنه سفاح راح يعب من دم فريسته عبا ...

وفاء « دكرورى » لنفسه ، فتعاظمه الجرم الذى اقترف ، فنحى العمود عنه ، وهو يختلج اختلاج صريع ، وانكب على وجهه ، يملكه شهاق ...

ثم تحامل على ساقيه متثاقلا ، ومشى فى بطء واعياء ...

عليه أن يعود الى القهوة ، مهما يكن من أمر ...

عليه أن يسلم لوح الثلج ، وان لم تبق منه الا أنقاض ....

عليه أن يؤدى واجبه ، وان كانت الخرقة التى حملها على كتفيه ليس فيها الا عصارة ماء ...

واستبد به عناد ومكابرة ، وقلبه يدق دقا عنيفا ...

واشتدت العاصفة الهوجاء ، تحمل معها الرمال ، وتدور بها كأنها دوامات ... وتخبط « دكرورى » فى سيره تخبط مخمور ، ثم انهوى ...

وانبطح على وجهه ، والخرقة المبللة فى حضنه ، يحوطها بذراعيه ...

وتراكمت الرمال رويدا على تلك الكومة الآدمية ، كأنما تصونها من عبث الطبيعة العشواء !

وما لبثت الكومة الآدمية تحت الرمال المنهالة عليها أن خفت حركتها ، ثم سكنت سكون الأبد ...

ولأول مرة فى تاريخ المصيف ، سجل أهل الشاطىء نبأ له خطر :

أن « دكرورى » حامل الثلج المثالى لم يصل الى القهوة فى موعده المحدود !

« محمود تيمور »

عبيد الواجب الأحرار

متولى

عرض وتحليل : سعد مكاوى

اذا أعرض الأدب عن مهمته الحقيقية فانه لا يعود غير لعبة لا قيمة لها ، فالأدب الحى هو الذى يتكلم لغة عصره ويحترق بحمياته ويكشف آماله وآلامه ويقود معاركه ، وهو الذى يغمر جذوره فى تربة الحياة نفسها ويخدم حقائق عصره واحتياجاته ويجعل مهمته بناء الرجال وهندسة الحياة .

والقصة التمثيلية التى أقدمها خنجر شريف يطعن قلب الذمة الفاسدة والضمير الخرب ، ويكشف عن الرمال المتحركة الخاتلة التى تنبت فيها الفوضى الخلقية وكل شناعة النفس الانسانية عند ما تضمر فيها فكرة « الواجب » ويشحب جلال « المبدأ » ... ان العمل الفنى فى هذه المسرحية صيحة تنادى ضمير الانسان الحديث وتكشف له الطريق ، وقد أهداها مؤلفها « ب . هـ . لويسون » الى « أولئك الذين يمشون فى الظلمات بنورهم الداخلى ، عبيد الواجب الأحرار » ... وهى قصة يقول فيها ساعى الجريدة اليومية لسياسى مشهور : لقد بدأت أتعلم القراءة والكتابة فى المدرسة الليلية ، ومنذ تعرفت الى الحروف وما تحمل من أفكار صارت الكلمات تدوى أمامى على الورق كما لو كانت تنطق ، حتى يخيل الى أنى أقرأها بأذنى ، وعندما أقرأ تبدو لى الجريدة كما لو كانت جمهورا يزعق !...

نحن فى بيت السياسى المشهور « **بودوان** » عضو مجلس الشيوخ ، فى حجرة مكتب ينم مظهرها عن رقة حال وبساطة .

على المكتب أوراق مكدسة تناثر بعضها الى الارض .

السجادة البالية ترصعها صحف منتشرة .

رفوف المكتبة مكتظة بكتب عتيقة غير مرتبة .

ومن النافذة يظهر منظر الضفة اليسرى من باريس بمداخنها وسقوفها ، وقبة المرصد .

وفى المكتب مع صاحب البيت « **ميشو** » رسول صحيفة الحزب الجمهورى ، ينتظر كعادته مقال « **بودوان** » السياسى كى يحمله الى المطبعة ... وهو مقال خطير لأنه سيظهر قبيل معركة عنيفة ستدور فى اليوم التالى فى مجلس الشيوخ ... وكلمة الشيخ لها قيمتها فى المعترك السياسى ، فانه أحد بناة الجمهورية ... وهو الذى سيقود المعركة ضد الرجعية الدينية والسياسية داعيا الى تحرير التعليم من نفوذ القسس ورجال الكنيسة ، على حين تهاجمه الصحيفة التى تنطق باسم الرجعية وتشن عليه الحرب وتنشر له رسوما هزلية تصفه فيها بأنه « معلم الأوباش » الذى يربى « جيلا من المتوحشين » ...

المواطن ـ معذرة يا سيدى ، لكنك نسيت أن تضع للمقال عنوانا !

الشيخ ـ أنت تعرف القراءة يا ميشو !... هذا يدهشنى ، أنا الذى اعتقدت دائما أنك لا تعرف القراءة !...

المواطن ـ لقد بدأت أتعلم القراءة والكتابة فى المدرسة الليلية ...

الشيخ ـ أحسنت !

المواطن ـ اسمح لى أن أقول هذا أيضا يا سيدى ... انى منذ تعرفت الى الحروف وما تحمل من أفكار صارت الكلمات تدوى أمامى على الورق كما لو كانت تتكلم !... ويخيل الى أنى أقرأها بأذنى !.. عند ما أقرأ يا سيدى يبدو لى كما لو كانت الجريدة جمهورا يزعق !...

يحار الشيخ قليلا فى اختيار عنوان المقال ، ثم يفعل شيئا بسيطا ، يتجه الى المواطن الصغير فيسأله ...

الشيخ ـ قل لى يا ميشو ، كيف كنت تقول هذا : « الكنيسة تطالب بحريتها فى تعليم الشعب لمنعه من تعلم القراءة ! »

المواطن ـ أيكون « طرطوف » معلم مدرسة !٠٠٠

الشيخ ـ ان ما قلت لعنوان رائع !٠٠٠ اجلس ٠٠٠ نعم ، هنا ٠٠ فى مكانى ٠٠ واكتب فى مكان العنوان هذا الذى جرى به يا بنى لسانك !٠٠٠

المواطن ـ سيدى ، ان نفسى لتهتز من التأثر ٠٠٠ ان فى حياتى يوما كان أجمل أيامها ٠٠٠ كان يوما مشهودا يوم رأيتك أول مرة تحت منبر قصر بوربون !٠٠٠ كان الشعب الظافر قد أسقط حكومة الامبراطورية وصعد فوق جثتها الى حقوقه ٠٠٠ وكان الحشد عظيما حتى لكأن الجدران لم تعد غير رءوس حية !٠٠٠ ويا للحماسة التى كانت فى الجو ، يوم ٤ سبتمبر المشهود ، يوم ولدت الجمهورية ٠٠٠ وفجأة ظهرت أنت مع والدك فتصايح الجميع : « بودوان وابنه ، مرحى محطمى الامبراطورية ! » ورفعوكما فوق الرءوس ٠٠٠ ولم أكن الا طفلا ، وما كنت أعرف من تكون ، لكنى أردت أن يكون لى نصيبى من تكريمك فانغمست فى الزحام كى أدنو فألمسك ، وقبضت على ساقك هذه !٠٠٠ وما زلت الى اليوم أضمها الى قلبى !٠٠٠

الشيخ ـ وما هى الجمهورية عندك يا ميشو ؟

المواطن ـ الجمهورية ؟٠٠٠ انها الشعب على حق والآخرون على باطل !

الشيخ ـ الجمهورية هى : العقل !

ويخرج المواطن المتواضع الشريف وتدخل على الشيخ زوجته فلا تخفى اشمئزازها من كل هذه المعارك السياسية العنيفة التى استهلكت عمر زوجها وتريد أن تبتلع أيضا حياة وحيدهما « **أوكتاف** » النائب البارز الذى سيلقى اذا كان الغد خطابا قصيرا فى مجلس النواب لعله أن يكون الضربة القاضية لحزب القسس ٠٠٠

الزوجة ـ قل لى ماذا أفدت من افناء نفسك فى سبيل مبادئك ؟ أأنت وزير ؟٠٠٠ لست حتى وزيرا سابقا ، مثل أصدقائك القدامى الذين لايصافحونك قدوا ! ٠٠٠ اننا مازلنا فقراء كما كنا على عهد الامبراطورية التى بادت وما زلنا نسكن طابقا خامسا بسيطا ٠٠٠ وهم فوق ذلك يسددون اليك وحدك السهام !٠٠٠ لا يحدث أبدا أن تكون لك تحية المجد ، لكنك أنت دائما الهدف الذى يتلقى الضربات !

الزوج ـ رفضت دائما منصب الوزير من أجل ولدنا أوكتاف ٠٠٠ أردت أن أظل أنا المعول الذى يشق الطريق فى الصحراء كى يعسكر ابنى بعد ذلك فى الارض الموعودة ٠٠٠ وليس لى من جزاء ترتاح به نفسى الا شعورى بأنى كنت على حق فى ايمانى بالجمهورية ٠٠٠

وبعد الزوجة يدخل الابن على أبيه فى اندفاع حاملا خبر اختفاء سكرتيره حاملا معه أصول خطابه الذى أعده لجلسة الغد ٠٠٠

ثم تقبل حفنة ثائرة من زملائه الجمهوريين فيعرف أن الوزارة قد سقطت !٠٠٠

سقطت وزارة الجمهورية التى كانت تدافع عن التعليم المدنى المحرر من سلطان الكنيسة ، وانها لضربة معلم من الرجعية ٠٠٠ فى أول جلسة اليوم وقف النائب الجمهورى « **روكان** » وطلب الكلمة ليكشف عن أمر خطير « يهم شرف الحكومة والمجلس » ٠٠٠ وقال ان هيئة دينية معروفة عرضت مليونا على وسطاء من النواب وموظفى وزارة الداخلية لاستثناء مؤسساتهم من الغاء التعليم الدينى الذى يستهدفه مشروع قانون التعليم الجديد ٠٠٠ وثارت فى المجلس ضجة عنيفة وقام نواب اليسار قومة رجل واحد يطلبون : « الأسماء !٠٠الأسماء !٠٠٠» وراح نواب اليمين بدورهم يصرخون : «التحقيق!٠٠٠ التحقيق ! ٠٠٠ » ٠٠٠ لكن وزير الداخلية لم يقبل اجراء التحقيق الذى طالبته الأغلبية التى ينتمى اليها منتفضة بالغضب لكرامتها وكرامة وزيرها ٠٠٠ فما كان من هذه الأغلبية الا أن صوتت مع المعارضة ضده ، فأسقطته لتنقذ كرامته ، وسقطت معه الوزارة كلها بأغلبية أصوات قليلة ٠٠٠

وجماعة النواب الملتفة بالشيخ تتهم زميلها « **روكان** » الذى أثار هذه العاصفة الجارفة بأنه باحث عن الشهرة على حساب الحزب ، وأكثرهم اتهاما له « **برات** » سكرتير وزير الداخلية و « **أوكتاف** » نفسه ٠٠٠ واذا بالنائب « **روكان** » نفسه يدخل ويواجه العاصفة قائلا انه ما قال الا صدقا وان التحقيق الذى ستجريه الوزارة الجديدة سيكشف حتما عن مخاز أخرى ٠٠٠ فينهره « **أوكتاف بودوان** » صائحا فيه بأن له مخا مريضا يخترع الترهات ، ويهاجمه « **برات** » قائلا له انه أخطأ الاتجاه فى الحياة ، فلقد كان أولى له أن يكون جاسوسا للبوليس !

لكن « روكان » يؤكد لهم انه هو نفسه كان موضع محاولة من جانب رسول لتلك الهيئة الدينية الكبيرة يدعى « **بويلاروش** » وانه فهم من ذلك الوسيط أن عددا من زملائه قد قبلوا الرشوة فعلا !!

وتقبل جماعة جديدة من البرلمانيين على رأسهم « **فرون** » عضو مجلس الشيوخ والمرشح لتشكيل الوزارة الجديدة ، فنراه يطالب زميله « **بودوان** » باسم الحزب الجمهورى أن يقبل منصب وزير التعليم فى الوزارة !

ويرفض فيلح عليه الجميع فى القبول ويقولون له انه زعيم الحملة على التعليم الدينى وان من واجبه أن يغتنم هذه الفرصة لتطبيق نظرياته بوصفه وزيرا للتعليم الوطنى ... ويميل « **بودوان** » الى رأى رفاقه فى الكفاح السياسى لكنه يقول لهم انه يشترط أن يقره على القبول شخص طالما استمد من تأييده القدرة على رؤية ضميره بوضوح ، ابنه « **أوكتاف** » !... واذا بالابن أمام الجميع يتردد فى ابداء رأيه ويشير فى غموض الى أن الموقف البرلمانى فى الوقت الحاضر بالغ الخطورة ، والمسئولية ضخمة !..

ويقول الابن لأبيه :

- انت راع من رعاة الديموقراطية ، وقد كنت دائما تقود المعركة بضربات الافكار وحدها ، فكيف تنزل الآن الى حقارات السياسة اليومية !

ويقبل « أرنو » رئيس مجلس الشيوخ وزميل « بودوان » فى الكفاح المرير من أجل الجمهورية ، فيقول له :

- جئت أضعك وجها لوجه أمام ضميرك ... انه فى لحظات الخطر يجب أن يجد المكافح القديم أخاه المكافح القديم الى جواره ، تحت الراية ... أسألك أن تكون أنت الرجل الذى يواجه اليوم اعصار الرجعية ويتلقى عضة ضغينتها اليائسة ... ان قضيتنا فى خطر ، ونحن انما نختارك لأنك نزيه وفقير ، يا هنرى بودوان !... لأن مواجهة الفضيحة الجديدة تقتضى تحقيقا صارما نزيها ، وليس هناك الا رجل واحد تتجه اليه ثقة الخصوم قبل الأصدقاء ... وانى باسم جميع الرفاق الذين سقطوا حولنا فى ساحة الكفاح أطلب اليك أن تنزل من قمتك التى اعتزلت فوقها ... آباؤنا صنعوا الجمهورية ، وعلينا نحن أن ننجيها من الخطر الداهم الذى يستمد خطورته من أنه لا يأتيها من أعدائها وانما ينبع لها من صفوف أبنائها الذين اهتز ايمان بعضهم بها فيما يبدو ... وليست المسألة مسألة وزارة تسقط ووزارة تصعد ... وليس التهديد موجها الى قانون التعليم الحر وحده ... ان الهدف الذى تستهدفه الرجعية فى هذه المرة هو فضيلة الديموقراطية ذاتها والولاء للمثل الأعلى الذى كان دائما مبدأنا .. ولا حق لك فى أن تتخلى عن مكانك فى المعركة ، فالى الراية يا بودوان ، الى الراية !

وهكذا يقبل قطب الديموقراطية الوزارة مشترطا لذلك أن يترك له اجراء التحقيق فى جو من الحرية التامة وانزال العقاب بالمسئولين فى غير رحمة . ولو كانوا فى الذروة من حزبه ...

وتحف الحماسة بهذا القبول ، لكننا ننظر فنرى ابن الوزير من بين الجميع يتلقى هذا القرار فى ذهول وهو يسمع من زملائه الملتفين حول أبيه الهتاف الجميل الصادق بحياة الجمهورية ...

هو الآن وزير ، وقد بدأت الوزارة عملها بنشر محضر التحقيق فى الرشوة كاملا فى الصحف ، وفيه اتهام واضح وشبهات قوية حول عدد كبير من نواب الحزب ، وفى طليعة المتهمين السكرتير السابق لوزارة الداخلية « **برات** » ، ذلك المتحمس الجهير الصوت بالدفاع عن نزاهة الاخوان !

والوساطات والشفاعات تنهال على الوزير حتى لنسمعه يناجى سكرتيره فى مرارة :

- انه لأمر فاضح أن يرى المرء قوما شرفاء يتشفعون لرجل غير شريف ، باسم مصلحة الحزب !

والآن يقول له نواب حزبه :

- تمهل يا مسيو بودوان واستر غسيل قومك القذر !

ويأتيه كبير من كبراء الحزب هو « **جاليمار** » بصاحب بنك مشهور من رجال المال الموالين للحزب الجمهورى ، وبرئيس لجنة الحزب فى الاقليم الريفى الذى يمثله النائب المرتشى « **برات** » فى البرلمان ، ليقنعاه بأن الحكمة تقضى بأن لا تأخذ العدالة مجراها كما يريد !

السياسى جاليمار - انك لا تستطيع يا سيدى الوزير أن تضحى برجلنا « **برات** » فهو مرشحنا فى انتخاب الشهر القادم فى دائرته التى لا يضمنها لنا غيره !

رئيس اللجنة - وأنا من الاقليم وأنت يا سيدى الوزير لا تعرف الجهود التى يبذلها الآن فى دائرتنا الانتخابية حزب القسس ليحطموا التعليم الحر ويعيدوا جميع المدارس الى قبضتهم !... ان « **مسيو برات** » قد يكون كبا كبوة ، لكن هذا لا يمنع أنه الرجل الوحيد فى الحزب الذى يتمتع بثقة

جميع ناخبينا ، فلقد أنفق فى الدائرة يا سيدى الوزير أموالا جمة !...

وهنا يسخر الوزير النزيه من المنطق العجيب ويكمل الجملة :

ـ ... أموالا كان يأخذها من جيوب قوم آخرين !!

رجل البنك ـ المال يا سيدى الوزير يخرج دائما من جيب الى جيب !... وان انهيار « **برات** » معناه الخراب لكل صغار حملة الاسهم فى عدد كبير من الشركات الهامة التى للمسيو برات علاقة بأعمالها !... وصغار حملة الاسهم ، يا سيدى الوزير ، هم السند المجهول للجمهورية !

الوزير بودوان ـ وأنا بدفاعى عن قضية النزاهة أخدم جميع البسطاء الذين يغشهم الأدنياء من رجال السياسة !

السياسى جاليمار ـ انه من معارفك ، ثم انه أحد الذين أيدوا بحرارة ترشيحك للوزارة !

وهذا رئيس الوزراء نفسه يخطره فى وجوم بأن سكرتير ابنه الذى كان قد اختفى منذ أيام قد اكتشفت جثته وثبت انه انتحر !

ورئيس الوزارة فوق هذا يلمح الى أنه من المشكوك فيه ألا تخترع صحف المعارضة لحادث الانتحار تفسيرات مغرضة ، فالمنتحر هو سكرتير نائب بارز وابن وزير جديد يتربص به أكلة اللحم البشرى ...

ايماءة من رئيس الوزارة ، مؤلمة !... رئيس الوزارة يلزمه كما يلزم الناس تفسير معقول لانتحار سكرتير ابنه !... لكنه « يضرب ويلقى » فيضيف قائلا :

ـ وفى الوقت نفسه يلزمنا أيضا أن نتساهل مع نوابنا الذين تحوم حولهم الشبهات !

ويضبط « **بودوان** » أعصابه بصعوبة :

ـ **أأنت الذى يكلمنى بهذه اللغة ؟ ! ... ألا تذكر اذن أننا كنا اتفقنا ...**

رئيس الوزراء ـ فانتظر اذن على الأقل أياما أخرى ، فمن يدرى !...

وينصرف رئيس الوزراء وتدخل « **كلوتيلد** » زوجة « **أوكتاف** » وتكشف لوالد زوجها الستار عن الجانب الخفى من حياة ابنه الذى يجهله هو وحده فى باريس كلها !... انه ليس الابن المثالى الذى يظنه أبوه فان له عشيقة من كواكب المسرح تكلفه غاليا ويشترى لها حتى الأوتومبيل !...

بودوان (مصعوقا) ـ ولكن ... أين يجد المال ؟!

كلوتيلد ـ انه يقبل الآن المرافعة فى كل أنواع القضايا ... يجيئه بها صديقه « **برات** » ...

بودوان ـ برات ؟! ... أتقولين « برات » ؟! **كلوتيلد** ـ نعم ... وهو الذى أفسده !

بودوان ـ آه يا بنيتى ، ضعنا !... ان « برات » على وشك أن يقبض عليه بين لحظة وأخرى !

ويرتسم الرعب فى عينى الشيخ الذى أفنى العمر فى الدفاع عن نزاهة الجمهورية ...

واذا بزائر يحكم تسديد الضربة الفظيعة الى قلب الشيخ ، ذلك هو « **بويلاروش** » وسيط الرجعية الذى أفسد ضمائر تلك الطائفة من ممثلى الحزب الجمهورى !

انه يضع بين يدى الأب الدليل المادى على أن ابنه قد تلقى أخيرا مبلغا كبيرا من بنك كاثوليكى !! وكان الدليل صورة فوتوغرافية لايصال موقع باسم « **أوكتاف بودوان** » من سكرتيره وعلى ورقة تحمل اسم مكتبه !

لكن الأب لا يصدق ما يسمع ويثور فى وجه الرجل ويهينه :

بودوان ـ يا وغد ! ... تلعب لعبة مفضوحة ! تلعب بالميت لتقتل الحى ! ... ان الذين أوفدوك الى انما يبغون أن يلوثونى من خلال ولدى !... اذهب فقل لهم انهم لا يعرفون هنرى بودوان !... أما أنت فسأقودك الى محكمة الجنح متهما بالتهديد والنصب ، وأما أولئك الذين أوفدوك فانى فاضحهم غدا على المنبر !

الوسيط (فى سخرية هادئة) ـ على المنبر ؟! **بودوان** ـ على المنبر !

الوسيط ـ عندما يكشف خصومك اسم ابنك للرأى العام ، فتكون قنبلة ! وتسقط الوزارة !

بودوان ـ القنبلة فارغة ! تستطيع أن تقذف بها !

لكن رسول الرجعية بارع وصبور ، فهو ينتقل بلباقة الى مساومة الوزير ، فيقول له انهم على استعداد لتسليمه الايصال واذاعة اتهام للسكرتير المنتحر نفسه ، فى مقابل تعديلات طفيفة لبنود مشروع قانون التعليم الجديد !... فان صادف هذا الاقتراح هوى من نفس الوزير ، فليحدد موعدا للتفاهم وتوضيب الأمور !...

ويطرد الوزير الزائر الوغد وينقض على ابنه يستجوبه !

ويصر الابن على القاء التهمة على سكرتيره الميت ، لكن الأب لا يفلت ما فى دفاع ابنه من تهافت الضعف ...

الأب ـ أنت يا من كنت لا أرى فيه موضعا لمؤاخذة !... أنت يا من كانت ثقتى فيه فوق ثقتى فى نفسى !... أنت يا من كنت ضميرى الحى !... تؤاخى الأوغاد من طراز « برات » وتنفق بجنون على عفن حياتك حتى يطفح العفن من حياتك الخاصة الى حياتك العامة ! ... لكأن هذه الجدران تنقض أمامى !.. انى أخاف الآن أن أنظر فيك !... ولا أستطيع أن أصدق أن ذلك الشاب الذى كان رصينا ومؤمنـــا بمذهبه السياسى كان فى وسعه أن يبيع نفسه لأعدائنا ويقبض ثمن تلك الخيانة !... ان ســـكرتيرك برىء ، وأنت المجرم !... ألا اعترف وأرحنى !

الابن ـ أليس من حقى أن أفيد من كل الظواهر التى فى صفى !

الأب (باستنكار) ـ الظواهر ! ... انها تكفيك !... تلوث ميتا شريفا كى تنقذ نفسك !... ألا ترتعد أمام نذالتك !... انك ان لم تتكلم فهى استقالتى من الوزارة فى الحال !

الابن ـ معنى هذا أنك تتخلى عنى وتؤيد باستقالتك الاتهامات التى يهددوننى بها !

الأب ـ ستدافع عن نفسك على قدر ما يسعك !

الابن ـ عندنا كل ما يلزمنا لفرض براءتنا على الرأى العام ، وليس عليك الا أن تسكت !... وأنا أتكفل بالباقى !... أتريد أن تضيعنا كلنا من أجل قاعدة أخلاقية لم تعد صالحة لهذا الزمان ؟!

الأب (فى روع) ـ ماذا تقول ؟!!

الابن ـ أقول ما يقوله لك كل الناس مثلى ... أنت تضايقنا بمثلك العليا المتخلفة مما قبـــل الطوفان !...

الأب ـ آه ! الرجل الذى يستطيع أن يتكلم هكذا ، هو المجرم !!

الابن (مخلصا نفسه بعنف من قبضة أبيه التى أطبقت على ياقته تشدها) ـ حسن ! نعم ، هو أنا !!... ثم ماذا بعد ؟... بعت نفسى ؟ كل الناس يبيعون أنفسهم ، فى المخزن الخلفى !... وليس يوجد بين كل أولئك الأعلام الذين تصافحهم عشرة أيديهم نظيفة !... وما أنا الا ابن زمنى ، أعمل كالآخرين ! ... ليس لى الا حياة واحدة ، وقبل أن أتردى فى حفرة اللحد ، أريدها مليئة ، أريدها كاملة ، أريد كل سؤدد وكل متعة ، أريد نصيبى من كل شىء حسن ، وما حصلت عليه لن ينتزعه من بين أسنانى شبح ميت !!...

الأب (منهارا تحت الصدمة) ـ ما دمت أحد أولئك اللصوص الذين ينهبون الجمهورية فانى أريح ضميرى وأقوم ـ اذ أسلمك للعدالة ـ بواجب مقدس ...

الابن ـ باسم ماذا ؟ ما ضميرك ؟ وما واجبك المقدس ؟ وما حقوق ميت لا ترجى عودته ولا ينتظرنى لقاؤه !... وهل العدم يحتفظ بحقوق ؟!...

وتعظم المصيبة عند ما يتكلم باللهجة نفسها أيضا رئيس الوزراء نفسه ...

رئيس الوزراء ـ فكر يا هنرى بودوان أى زلزال ستنزله اســـتقالتك المسببة بالوزارة ، فى قلب المعركة بين الديموقراطية والرجعية ... ستسقط الوزارة ، ويتعرض النظـــام الجمهـــورى كله لضربة قاصمة ...

بودوان ـ ليكن ما يكون ... لقد كنت الرجل الذى قبل من أيام أن ينقذ المريض من دائه ، فلا يسعنى أن أمكن الداء فى بدن المريض ، لا لشىء الا أن ابنى قد أصيب بالداء فيمن أصيب به !.. وعندى من شجاعة الضمير ما يمكننى من التضحية بابنى ، واذا لم أفعل فأنا خائن مرتين للثقة التى منحنى اياها الشرفاء !

رئيس الوزراء ـ الداء فى هذه المرة قريب جدا من القلب ، بحيث تكون الجراحة فيه مميتة !

بودوان ـ المميت هو أن نسكت !... لا سكوت على من يتحلل ضميره بهذه الدرجة الفظيعة !... سأثبت بهذا المثل الذى أضربه ايمانى بالجمهورية والديموقراطية ... ان الذى يحفظ مثلنا الأعلى من الانهيار هو تمجيدنا له ، لا أن نرى الشر فينا ونسكت !

رئيس الوزراء ـ والحزب ؟!... والوزارة ؟!... والمعارضة ؟!...

الرجل الشريف ـ كل هذا لا يستطيع أن يجعل منى رجلا مدخول الضمير خائنا لمبدئه ! ... أيهـــا السادة ، انى مدين لمبادىء حياتى كلها ولشرف الجمهورية بأن أقول لكم ان سبب استقالتى هو أن سكرتير ابنى برىء وأن ابنى هو المجرم !...

قصة : نجيبه العسال

اللص والحارس

متولى

راحت عينا الأم ترقب الابنة فى امعان وانتظار وضيق .. لقد مرت أكثر من عشرين دقيقة ، والابنة فى مكانها أمام المرآة .. انجزت خلالها أكثر من عمل من أعمال البيت وخطت الى ابنتها أكثر من ثلاث مرات تستحثها فى هدوء تارة وفى ثورة تارة أخرى لكى تفرغ من ارتداء ثيابها والابنة لا يبدو عليها الاستجابة لرجائها .

أخيرا اطمأنت الفتاة المقبلة على دور الشباب ، التى لم تتجاوز بعد عامها الرابع عشر - على ان مظهرها العام قد أصبح فى مستوى يؤكد شعورها بجمالها وأناقتها واستجابت لرجاء الأم التى بدأ ضيقها يتلاشى وهى ترقبها فى هدوء وحنان .. فقد توافد على خيال الأم صورة مماثلة .. صورتها وهى فى الرابعة عشر من عمرها وفى مناسبة مثل تلك تماما التى تستحث ابنتها على الاسراع فى انجازها .

أسرعت الابنة وراء الخادم كى تشرف بنفسها على انضاج الكعك الذى قضت الأم ذهاء يومها فى عمله استعدادا للعيد القادم وكانت تخشى عليه من استهتار الخباز .. سارت منى سابحة فى خطواتها الفرحة ، وحمرة النشوة تكاد ترقص على وجهها الصبوح وأصابعها تعبث فى خيلاء لتلمس شعرها الفاحم لمسات أخيرة سعيدة .

أوصدت الأم الباب وصورة ابنتها لم تفارق خيالها .. انها أمامها على الجدران وعلى قطع الأثاث وفى كل جوها المحيط وقد انبرى ذهنها فى نشاط فلم يكف عن القاء السؤال تلو الآخر يفسر كل هذا الاهتمام فى التأنق من جانب الشابة الصغيرة وتركت الأم الاجابة على أسئلتها جانبا وراحت تعمل فى همة كى تزيل الآثار التى أطاحت بنظام بيتها من اجراء عمل الكعك .

كانت خديجة فى الثانية والثلاثين من عمرها سمراء ممتلئة الجسم ذات ملامح واضحة صريحة صلبة الى حد كبير وان كانت نظرات عينيها الواسعتين العسليتين اللامعتين بجاذبية شديدة تؤكد أنوراء صلابتها تلك نفسا حساسة تفيض أنوثة وذكاء وتوثبا مطمورا - هى تعلم جيدا أنه يجب أن يظل مطمورا .. كان الناظر اليها لا يعطيها سنا أقل من الأربعين عاما وذلك لمظهرها الوقور وجديتها التى تتمسك بها حتى أضحت وكأنها صفة أصيلة فى ذاتها .. كيف لا تتمسك بها وقد مر على زواجها أكثر من خمسة عشر عاما وزوجها السيد مصطفى السيد رجل مهاب الطلعة طويل القامة عريضها لايتكلم الا بحساب وتؤده

ولا يجالس أحد الا ويذكر ماضيه الحافل بالذكريات التى تؤكد بلوغه الخمسين عاما منذ وقتطويل والتى يردد فيها دائمـا بأنه قد عاش كل لحظات شبابه وأنه قد شبع لهوا ومرحا واكتفى منذ زواجه بالحياة الهادئة الوقورة .. فكيف تترك خديجة نفسها لتبدو أمام الناس أقل وقارا وجدية عن زوجها .. لقد آلت على نفسهـا منذ تزوجته أن تطيعه فى كل ما يطلبه منها كما قالت لها أمها يوم زواجها حتى تغدو زوجة صالحة كما تقول التعاليم تماما وراحت هى ألا تطيعه فحسب بل يجب أن تكون كشخصه أيضا .

ظلت خديجة تروح وتغدو فى نشاط لا يتفق أبدا مع بدانتها .. نشـاط يدهش دائما كل من يراها وهى تعمل فى بيتها ولم يدر أحد أنه نابع من ذاتها المتوثبة المطمورة .. توقفت قدماهـا لحظات خاطفة عدة مرات بدون شعور أمام المرآة التى كانت تقف أمامها ابنتها منذ برهة وفى ذهنهـا شىء لم تتبينه جيدا ولم تستطع الامساك به .. شىء مبهم كالضباب يلح عليها أن تقف أمام المرآة لكنها لا تستـجيب له فى غمرة انشغالها لانجاز ما تبقى أمامهـا من أعمال .

أخيرا لم تجد بدا من الثبات أمام المرآة دفعة واحدة وفى عزمأكيد ترى مايشدها اليها واقتربت منهـا قليلا وهى تتطلع بوجهها الذى كان يطل عليها سـاكن الملامح تماما واتسعت عيناها أكثر حتى بان بياضهما وكأنه أضحى أكبر قليـلا عما كان عليه .. كانت المرآة التى تعلو الحوض الكائن فى بداية الردهة الموصلة الى دورة المياه ولذلك لم تر خديجة جسدها الممتلىء .. لم تر الا خدودهـا المكتنزة وشفتيها البيضاوين حتى أنفها لم تكن تظن أبدا أنه سيبدو هـكذا فى يوم من الأيام .. قد انتفخ حتى كاد يفقد معالمه وامتد اصبعها فى خوف الى بشرة وجهها .. انها ما زالت ناعمة وملتهبة .. يسرى فيها اللون الخونى .. وفجأة سرى من خيالها وجه آخر تخيلته وقد التصق بجانب الوجه المكتنز على صفحة المرآة .. وجه نحيل .. رشيق أسمر اللون يعلوه جبين عريض . طالما قيل لها أنه دليل الذكاء ، وابتسـمت خديجة ساخرة .. الذكاء .. أين هـو الذكاء .. ألو كانت ذكية حقا كانت قد تركت نفسها تتبدل هـكذا فى نحو خمسة عشر عاما.. وابتسمت مرة أخرى فى فخر .. ولكن أليس من الذكاء أن جعلت نفسها وقد أصبحت صورة أخرى من زوجها حتى تشاركه حياته فعلا.. وتمعنت فى الصـورة التى خرجت من خيالها .. يالهـاتين العينين النجلاوين وتلك الابتسامة اللامعة المتألقة واتسعت حدقتاها أكثر ثم حاولت الابتسام لترى هل ما زالت ابتسامتها على نصيب من التألق كما كانت ولم تطاوعها شفتاهـا قبـل أن تتجه بنظرتها الى هنـاك الى حجرة زوجها السيد مصطفى السيد .. انها دائما قبل أن تختلى بنفسها لا بد لها من القاء نظرة على حجرته وعلى سريره بالذات لترى ان كان مستغرقا فى النوم كعادته دائمـا كلما كان فى المنزل أو مضجعا فقط بجسده الضـخم ويبدو كالنائم لكنـه متنبه تماما لكل حركة تأتى بها وأجفلت راجعة ولكن بعد أن ألقت بنظرتها الخاطفة على السرير الخالى .. انها تعلم جيدا أنه ليس بالبيت فهو الآن بالمسجد الحسينى كعادته كل عام فى الأيام الأخيرة منشهر رمضان وابنهما

الوحيد أحمد البالغ من العمر اثنى عشر عاما ·· انه معه أيضا لكنها أبدا لا تستطيع أن تنطلق بأفكارها قبل أن تخطف نظرة سريعة على السرير وان كان خاليا ·

أحست خديجة براحة كبيرة وتنهدت وهى تزفر أنفاسها فى مرآتها وتبتسم فى أسى ·· وتحنو على الوجه الرشيق حتى يعود أمامها مرة أخرى ·· وانتشر سريعا وهو يبتسم مواسيا·· وانفرجت شفتا خديجة لتقارن بين الابتسامتين ثم تنهدت فى شىء من الرضا ·· أن تألق ·· ولمعت عيناها فجأة ·· وأحست بالبركان الذى يثور دائمافى صدرها وتخمده فى الحال وتنهدت ·· ما أحوجها الآن الىهدوء روحها ··سرعان ماانتشرت صورة أخرى تشاركها مرآتها ·· انها الصغيرة منى فى ثيابها الأخيرة ــ أمام المرآة قبل خروجها منذ لحظات ، واستعادت لمحاتها تماما وصعدت الأسئلة الى ذهنها مرة أخرى لكنها لم تجبها بصورة خديجة المكتنزة ذات الاثنين والثلاثين عاما والتى تبدو فى الأربعين بل أجابتها بخديجة الناحلة الرشيقة ذات الابتسامة المتألقة والتى لا تعدو الخامسة عشر من عمرها ·

وعلى المرآة تألق وجه آخر كان قد اندثر طويلا الا من مرات معدودة تعاودها من الحين والآخر ، وخاصة فى مثل تلك الأيام من كل عام · لكنه اليوم بدأ قاسيا فى ظهوره ، المقترن بفتاتها الوحيدة منى السمراء الندية ذات العينين الخضراوين والابتسامة المتألقة وابتسمت خديجة فى راحة ، ان منى تتميز عنها بشىء مهم أصيل فى النفس وهو العناد المقرون بالثقة فى النفس ولكن ترى لو تعرضت منى لظروف مثل ظروفها هل تستطيع الاستفادة من هذا العناد وتلك الثقة بالنفس ؟ وجرت خديجة أقدامها من أمام المرآة لتذهب الى ركن مظلم فى حجرة الصالون وفى الهدوء الحالم المخيم على بيتها الخالىجلست فى أمان ، وهى تشد من خيالها الوجه الآخر الذى اندثر طويلا وكان يعاودها فى مثل تلك الأيام من كل عام ·· حسين ··

لم يكن حسين وسيما ولا عملاقا مهيبا لكنه كان فتى أسمر اللون ·· حسن المظهر وان كان مرهف الحس الى درجة كبيرة وأحست خديجة بروحها تفيض حنانا وهى تتذكر طفولتها وأيام صباها المبكر وكيف التقت مشاعرها بمشاعر حسين ابن الجيران منذ الطفولة وذاك الصبا المبكر لكنهما لم يدريا شيئا عن هذه المشاعر الا أنها كانت تلجأ اليه دائما عندما يضيق أحد من الصبية الخناق عليها أو تختطف احداهن من يدها لعبة وكان يحميها دائما ويقف بجانبها ··· ثم بعد أن شبا عن الصبا وصارا يشعران بالعيون من حولهما ·· وهىمشاعرهما التى كانت تهيىء لهما هذا الخوف ·· أصبحا يحرصا على أن يختطفا نظرة عابرة أثناء ذهابهما الى المدرسة ولا شىء غير هذا ·· أما الأيام التى كانا ينتظرها دائما بفارغ الصبر فهى تلك الايام التى تسبق عيد الفطر عندما تجمعهما ساحة المخبز المزدحمة بصاجات الكعك ورغبة أمهاتهما على أن يشرف كل منهما على نضج الكعك ·· وهزت خديجة رأسها واعتدلت فى جلستها وهى تحس بالسعادة التى كانت تحسها فى تلك الليالى البعيدة من خلال النظرات المتبادلة بينها وبين حسين والحنان المتدفق الذى كان يلفهما

٠٠ وزحف الأيام والليالى حتى كانت فى الخامسة عشر وكان حسين فى الثامنة عشر ٠٠ وفى ليلة وهما فى هذا العمر حدثها حسين لأول مرة عن أمله عندما يجتاز امتحان الشهادة الثانوية وبعد أن يلتحق بالجامعة وكانت تطير فرحا وهى تتخيل تحقيق هذا الأمل لعلهما معا ٠٠ وحدثها طويلا سيجعلها تواصل دراستها حتى نهاية المرحلة الجامعية سيكون لهما بيت صغير سيخرجان دائما معا يمرحان ويلهوان ٠ ستكون لهما ابنة واحدة ٠٠ لا بل ابن وابنة ٠ وعاشا فى هذا الحلم باقى الليل ٠٠

واستعادت خديجة تلك الليلة بكل ما حدث فيها منذ بدأت أقدامها تخطو وراء خادميها المحلان بصاجات الكعك فى طريق العودة وكل ما حولها هادىء ساكن فالساعة أشرفت على الثانية صباحا وقاربت ليالى رمضان على انتهاء السهر ٠٠ فالكل يستعد للعيد القادم وخلت الطرق الا من عدد قليل من الناس وأحست خديجة وكان الفضاء لها وحدها هى وحسين فى تلك الليلة ـ ويسرى فى حنايا نفسها فهى لم تشعر بدفء الصقيع فى حياتها كما شعرت به ليلتها ولم تر أحلى من ظلامها ولم تسمع ألحانا مثل وقع خطواتهما ٠٠٠ ضاعت الكلمات بين شفتيهما ٠٠ لم يتبادلا ولا كلمة واحدة طوال الطريق لكنهما أحسا وقد همسا بكل حديث الزمان وانهما قد عاشا منذ بداية الحياة وستظل حياتهما الى مالا نهاية وفجأة وجدا نفسيهما أمام باب منزل خديجة ٠ انتهى الطريق سريعا وتوقفت أقدامهما ثم أحست بيده تبحث عن يدها كى يتمنى لها مساء سعيدا فى تلك اللحظة دوى صوت غليظ ٠٠ خشن يصرخ فى ذعر واستنجاد ٠٠٠

وقد بدأ فى هذا الظلام الحالك وكأنه ينذر بنهاية الحياة ٠

اللص ٠٠ اللص ٠٠ أمسك اللص ٠ وافترقا فى الحال كل فى جانب من الباب الكبير وانتحى الخادمان ٠٠ جانبى الجدران فى اللحظة التى اندفع فيها رجل طويل عريض فى جلباب أبيض يهرول مسرعا وهو يردد صارخا ٠٠

اللص ٠٠ اللص ٠٠ امسك ٠٠ اللص ٠

ثم بدأ الجسم المندفع يتريث قليلا وهو يتلفت يمينا ويسارا ثم توقفت أقدامه فى الوقت الذى تجمع فيه عدد قليل من الناس والكل يؤكد انه لم ير أحدا يجرى هنا أو هناك والرجل يؤكد انه قد سمع حركة غريبة مصدرها احدى شرفات مسكنه القريب من أرض الشارع ٠

لم يعن خديجة وجود اللص أو عدم وجوده ٠٠ كل ما أحست به أسف كبير ملأ نفسها بعد أن ذهبت الضجة وذهب عنها حسين فى سكون وهو منكس الرأس وجرت أقدامها وراء خادمتها فى الوقت الذى اندفع فيه صاحب الصوت الخشن الغليظ الذى كان يصرخ منذ لحظات عائدا الى البيت ٠٠ انه الساكن الجديد الذى نقل حديثا من احدى بلاد الوجه البحرى جاء كمعاون لمكتب الصحة القريب منهم كانت المرة الأولى التى تراه فيها واستدار صاعدا الدرجات القليلة الموصلة الى الدور الذى يسكنه ثم أسرع باضاءة المصباح الكهربائى الذى يعلو باب مسكنه لينير باقى الدرجات أمامها ونظرت اليه وهى تشكره فى حياء ٠٠ كان رجلا طويل القامة عريضها أبيض البشرة وسيما مهيبا وقورا ٠٠ فى نحو الاربعين من عمره وقرأت اللوحة

النحاسية على باب الشـــقة ٠٠ السيد مصطفى السيد لحظتها لم تتساءل لماذا لا تمعن فيها جيدا كان كل ما يعنيها فى تلك اللحظة أن تصعد فورا الى مسكنها حتى تؤوب الى فراشهـــا سريعـــا كى تستعيد كلما ما همس به حسين اليهـــا وقطعه هذا الرجل بصياحه المفاجىء ٠٠ وفى سكون امتـــدت يدها اليسرى الى



يدها اليمنى تغطيهـا فى حنان وكادت تهمس لنفسها بمسـاء سعيد وهى ترى الدرجات وقد استمالت كلها الى صورة واحدة ٠ حسين فى كامل حنانه وكما لم تره أبدا من قبل ٠٠ الآن فقط عرفت خديجة لـــماذا أحيانا كثيرة تؤتى هذه الحركة ولـــماذا ظلت وقتا طويلا كلما تطلعت الى زوجها السيد مصطفى السيد اقترنت طلعته المهيبة فى عينيها بصوته الخشن الغلظ وهو يرن فى أذنيها بتلك

الصيحة المفاجأة فى تلك الليلة البعيدة

اللص ٠٠ اللص امسك اللص ٠

عادت خديجة الى نفسهـــا ووجدت أقدامها مرة أخرى لتجول داخل شقتها لترى ماذا ينقصها وتوقفت أقدامها هذه المرة أمام المرآة الكبيرة ، مرآة الدولاب وتمعنت فى هيئتها طويلا انها الآن وبعد خمســـة عشرة عاما أصبحت لا تختلف كثيرا عن زوجهـــا انهـــا عرفت كيف تشـــاركه حياته وعمره أيضـــا ٠٠ أما خديجة الصغيرة ٠ النحيلة الرشيقة ٠ وامتلأت الجدران أمامها بصورة أخرى٠ منى الصـــغيرة ذات العينين الخضراوين والعناد المقرون بالثقة بالنفس بنت الجيل الذى يعرف تماما موضع اقدامه وظروفه تساعده ومع ذلك من يدرى ونظرت فى ساعة الحائط ٠٠ انها تشير الى الثانية عشر ومعناه أن منى فى طـريق العودة الى البيت واستعادت صورتها وهى تعنى بأناقتها قبل خروجهـــا الى المخبز ولم تنتظر خديجة طويلا ٠٠ ارتدت ثيابهـــا على عجل دون أن يجول بخلدها أن ميعاد أوبة زوجها أزف ولم تفكر ماذا سيكون جوابها لو قابلها فى الطريق كل ما كان يملك عليها تفكيرها الآن أن تسرع لتعود بابنتها لتكون بجانبها فى طريق العودة ٠٠ انها لا تدرى خديجة بالضبط ماهو الدافع لكل هذا ٠٠ لم تستطع التحديد لابد أن تكون بجانبها وكفى ٠٠٠ ربما تريد أن تستعيد تلك اللحظـــات التى فقدتها من زمن بعيد لاتستطيع التحديد أيضا ومع ذلك كانت ينتشر فى خيالها شارع عريض مظلم وأقدام شابة تخطو فى أنغام وراء خادمين يحملان صاجات الكعك وأنفاس بكر تضىء كل ما حولها ومفاجأة واضحة ربما تحدث فى الطريق٠

ومن بعيد لمحت خديجـــة الموكب يتوسط الشارع المظلم العريض٠٠ تماما كما هو موجود فى ذهنها وكما عاشته من قبل وهزتهـــا رجفة سريعة وأحست وهى تحاول السيطرة على خفقان نفسها وكان شـــعاعا من الحنـــان يتسرب من روحهـــا ليطوق الصغيرين السعيدين ــ فجأة وجدت منى أمها أمام عينيها لا تبعد عنهـــا غير خطوات قليلـــة ٠٠ بوغتت القلوب الفتيـــة وتوقفت الاقدام الشابة لتسأل منى أمها فى لهفة وخوف ٠٠

هل حدث شىء ٠٠ ؟

وتكلمت خديجة ذات الطلعة المهيبة زوجة السيد مصطفى السيد

ما سبب كل هذا التأخير ٠٠؟

وصعدت فى الحـــال موجة الحدة والتمرد الى نبرات منى وهى تجيب أمها فى اقتضاب ٠

ــ كان الزحام شديدا ٠

وأشارت الأم بطرف ذقنها وصوتها يخرج حازما جادا ٠

ومن هذا ٠٠٠ ؟

وفى ثبـــات وصلابة وبكل ملامحها العنيدة الواثقة أجابت منى ٠٠

انه هشام ٠٠ جارنا الجديد

وصعدت نظرات الام القامة الفارعة انه يختلف عن حسين فى طول القـــامة وأيضـــا فى الملامح وأيضا فى العينين الواسعتين والشـــفتين الدقيقتين اللتـــين يضغطهما فى حدة مما يؤكد أنه انسان صلب الارادة وانه لن يتنازل عن ابنتها بسهولة انه هذه الخصلة من الشعر الاسود الناعم النافر الذى يغطى طرفا من جبهته

العريضة المرتفعة فى شموخ يؤكد ذلك ٠٠ وحاولت التسلط على ابنتها ولكن منى أشاحت بوجهها بعيدا عن أمها فى عزة وتماسك رغم الدموع التى كانت تطفر من عينيها الخضراوين ٠٠ غيظا وألما ٠٠ وتحرك الموكب مرة أخرى فى الظلام ٠٠ الخادمين أمامها وعلى رأسيهما صاجات الكعك يسيران فى امتثال وطاعة والأم فى خطوات جادة وملامح حادة وقامة منتصبة ونظراتها القوية مسلطة على الطريق فى كبرياء أما فى الداخل فكانت هناك انسانة أخرى هى خديجة الصغيرة النحيلة ذات الخمسة عشر ربيعا وقد تصورت نفسها تتحول فجأة الى ملاك بأجنحة يرفرف على القلبين الشابين ليحرس لهما الطريق المظلم ويحميهما من مفاجآته وكانت تهمس لنفسها بين فينة وأخرى ٠٠٠ حمدا لله أن الجار الجديد هو هشام ٠٠ فى صلابته تلك ٠

وأما منى الصغيرة فكانت كقطعة من اللهيب تكاد تشق أرض الشارع بأقدامها الثائرة وقد راحت تنظر الى أمها من حين الى آخر نظرات حانقة ساخطة وهى تراها تسير بجانبها وكأنها قد اكتست معطفا من الصوف الأصفر الخشن وطربوشا طويلا بنى اللون عليه من الأمام لوحة حمراء مرقعة مستديرة مرقعة وقد ثبت لها فجأة شارب غزير كثيف له أطراف مرتفعة وعلى كتفيها تربط بندقية ترتطم بالارض مع وقع أقدامها التى حولت هدوء الليل الى صخب مقيت ٠٠٠

أما هشام الفتى الذى لم يتجاوز بعد عامه السادس عشر ٠٠ الشاب الصغير الذى خفق قلبه لأول مرة فى عنف وجنون فقد أحس بقامته التى كان يفتخر دائما ببنائها المتين وقد اهتزت تماما أمام هذا الهجوم السريع على لحظاته التى ظن أن لاأحد يملكها غيره ٠٠ كانت عيناه مسلطة على ظهر حبيبته ثم انتقلت الى ظهر أمها ورآها فى الحال وقد تحول معطفها الأسود الى عباءة طويلة سوداء وقد خيل له أن رأسها مغطى بقناع اسود أيضا وانها لاتختلف اطلاقا عن أحد أعضاء منظمة (الكوكس) وأراد أن يبلغ ابنتها هذا ٠٠ لابد من ابداء رأيه وفى الحال ٠٠ ماسبيل الى ذلك ٠٠ كيف يهمس اليها بأن أمها لاتختلف أبدا عن أى قرصان من قراصنة البحار كانت يداه داخل جيب سترته وأصابع يده اليمنى تعبث بقطعة الطباشير التى كان يكتب اسمه بها على صاجات الكعك كى يعرفها عن غيرها ٠٠ وأوحت اليه قطعة الطباشير بالفكرة عمل ذهنه البالغ من العمر ستة عشر عاما على تنفيذها فى الحال كى يبلغ حبيبته رأيه فى أمها ٠٠ أسرع الفتى فى خطواته حتى تجاوز الجميع ثم أسرع أكثر حتى سبقهم الى باب البيت وعلى الجدران امتد اصبعه بقطعة الطباشير ليرسم فى حدة رغم الراحة التى بدأت تسرى فى نفسه ٠٠ خطوطا سريعة كونت فى الحال صورة **جمجمة تعلوها عظمتان متقابلتان وفوقهما خط هذه الكلمات ٠ القرصانة السوداء** ٠٠٠ ورفع يده بالمصباح الكهربائى الصغير ليسلطه على الجدران ٠ قد رأت الأم كل هذا لكنها لم تفطن الى معناه أما منى فقد عرفت ماذا يقصد وهزت له رأسها وهى توافقه وقد ارتسمت على وجهها ابتسامة رقيقة ٠

الطاهى الأعمى

هذه القصة من الأدب السوفييتى الحديث ، كاتبها مازال حيا يرزق، وقد ولد كونستانتين بوستفسكى من أسرة متوسطة وبدأ كتابة القصة بعد الثورة وسجل فى قصصه الحياة والمواقف الانسانية التى تلقاها الطبقات المختلفة .

وهو مازال يعيش ويكتب حتى الآن ، لكنه يرفض الحياة فى موسكو ، ويفضل العيش فى القرى والضواحى خارج موسكو حيث يمكنه ان يرى خضرة الشجر وبياض الثلوج والطبيعة فى جميع صورها التى يعشقها عشقا لامزيد عليه .

ولذلك يلاحظ دائما فى قصصه تسجيله لجمال الطبيعة فى صورها المختلفة .

قصة : كونستانتين بوستفسكى

ترجمة : عبله فتحى

فى مساء أحد أيام شتاء عام ١٧٨٦ ، فى ضواحى فيينا ، وفى منزل صغير من الخشب ، كان يرقد رجل عجوز يحتضر .

ومنذ أعوام قليلة ، كان هذا العجوز يعمل طاهيا عند أحد كبار الأغنياء الى أن فقد عينيه فى حادث انفجار موقد كان يعد عليه الطعام ، فاعتزل



العمل وعاش مع ابنته الوحيدة ماريا فى هذا المنزل الصغير ٠

وكانت الغرفة التى يرقد فيها المحتضر يبدو الفقر فيها بوضوح ، فالسرير قديم والمائدة متهالكة ، ومظهر الثراء الوحيد كان يبدو فى بيانو قديم متهالك يقف فى ركن من الغرفة ٠

ورفع العجوز رأسه وتمتم : اذهبى يا ابنتى الى الطريق واسألى أول شخص يقابلك ان يأتى لاعترف بين يديه ، فمنزلنا منعزل ، وغير متيسر الآن احضار قسى ، ولم يعد أمامى وقت كبير لكى أعيش ٠ وارتجفت يدا الفتاة وهى تعقد شالا كبيرا حول رأسها وتسرع الى الطريق ، وكانت الضاحية

ساكنة سكونا تاما ولا أثر للحياة فيها ، ثم بدا لعينيها شبح غير واضح لانسان واسرعت «ماريا» اليه وقبضت على ذراعه وهى ترتجف •

ماذا هناك ؟ سألها الغريب — وفى صوت يرتعش ابلغتهماريا برغبة ابيها •

وقال الغريب : **حسنا ولو انى لست قسا لكن هذا لا يبـدو هاما الآن ، هيا بنا •**

وصحبته «ماريا» الى المنزل ، وهناك خلع الغريبمعطفه بسرعة وجلس بجوار المحتضر وقال فى صوت هادىء :

— والآن ، قد لا يكون لى الحـق فى سماع اعترافاتك فذلك الحق لم يمنحه لى الله ولكنى استمد هذا الحق الآن من فنى ، فالفن كالدين يتساوى معه فى القداسة •

والآن ، ماذا تريد ان تقول ؟

همس العجوز فى صعوبة : **انه ذنب كبير يؤرقنى** ، فقد اشتغلتطوال حياتى قبل أن أفقد عينى ، وكنترجلا شريفا ولم أفعل أبدا شيئا ولكن عندما مرضت زوجتى « مارتا » ولم يكن عنـدى مال لشراء الدواء لها ، لم أتردد ، وأخذت صحنا ذهبيا صغيرا من ممتلكات السيد الذى كنت فى خدمته ، ولكن •• آه •• ليتنى علمت ان الذهب لن ينقذ مارتاى العزيزة من الموت اذن

— واقسم — لما كانت امتدت اليه يدى •

ورفع المحتضر يده كما لو انه يردد قسما •

— وسأله الغريب وهل عوقب خادم آخر غيرك بسبب السرقة •

— كلا •

— اذن •

ولمعت عينـا الغريب بوهج مفـاجىء وهو ينحنى فوق المحتضر •

— فانت لست آثما ، ليس أمام الله ولا أمام الناس ، فقد فعلت ما فعلت من أجل حبك لزوجتك وهذا يكفى عند الله والناس ، لأن يكون عملك غير سىء •

وبدا المحتضر عنـدما سمع هـذه الكلمات كما لو كان يريد البكاء وسأل الغريب :

والآن ، هل لك أمنية أخيره تريد ان تحققها ؟ فقال العجوز وهو يتململ فى رقدته : آه •• انها رغبة أخيره حمقاء حتى اننى لأخجل من ذكرها ، ولـكن •• آه •• كم أود لو اننى رأيت«مارتا» زوجتى الحبيبة بجديلة شعرها الطويل كما كانت فى شبابها ••• كم أود لو اننى رأيت الشمس وهى تضىء الحديقة القديمة حيث طالما جلسنا معا عنـدما كانت تزهر فى الربيع •• آه اننى أرجو عفوك يا سيدى فانى أعلم كم هى رغبة حمقاء !

وقال الغريب وهو يتركفراش المريض وينهض متجها الى البيـانو القـديم المتهالك •

حسنا قالها مرة أخرى وهو يمر بيده على أصابع البيانو وقد بدت فى وجهه بشاشة عجيبة •

وملأت أصوات البيانو الحجرة لأول مرة منذ عدة أعوام ، وبدا كما لو ان الثلج بدأ يتساقط مع أول نغمة •

وصاح المحتضر وهو يجلس فى فراشه انى أرى •• نعم ، انى أرى الآن «مارتاى» كما قابلتها أول مرة ، كان ذلك فى الشتاء ، وكانت السماء غائمة كما لو كانت لوحا من الزجاج الأزرق القاتم ، وجاءت « مارتا » تحمل لى جره مملوءة باللبن وكانت تبتسم ، آه ، كانت تبتسم كما أراها الآن •

واستمر الغريب يعزف وخفت صوت المحتضر •• وها هوذا المساء ، كم كان قاتما ، وعميقا فى هذا المنزل الخشبى الصغير الذى عشنا فيه معا عندما جاء الربيع ، وأزهرت حوله الزهور التى غرستها « مارتا » وكانت كلها بيضاء ، انى أرى كل ذلك الآن نعم ، انى أرى كل شىء بوضوح •

وأدار العجوز الأعمى رأسه وصاح فى ابنته • افتحى النافذة يا ماريا ، افتحيها لكى أرى زهور «مارتا» البيضاء •

وفتحت « ماريا » النافذة ولم يكن فى الحديقة زهور ، ولم يكن فيها شىء على الاطلاق ، وانما هى موسيقى الفنان هى التى منحت المحتضر كل تلك السعادة فى لحظاته الأخيره •

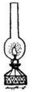
وقال العجوز : **والآن يا سيدى ، لا أريد أن أموت قبل ان اعرف اسمك ، اعرف اسم الرجل الذى جعلنى أرى « مارتاى » الحبيبة بجديلتها الطويلة كما كانت فى شبابها •**

وكف الغريب عن العزف ونهض واقفا ، قال : **اسمى موتسارت •**

وركعت « ماريا » على ركبتها أمام الموسيقار الخالد ، واحنت رأسها فى خشوع ••

وكانت خيوط الشمس الغاربة تتسلل خلال النافذة المفتوحة وعلى ضوئها الخافت تبدو الحديقة المهجورة وقد تراكمت فيها الثلوج •

وعندما رفعت « ماريا » رأسها كان المحتضر قد مات •



الاتجاهات الجديدة فى القصة السوفياتية

منوعى

عرض
خيرى حماد

هناك حقيقة واقعة ، لا مرية فيها ولا شك ، وهى ان القصة السوفياتية ، اخذت تمر فى الحقبة الأخيرة ، اى بعد وفاة ستالين ، بمراحل من التبدل البطىء ، تميزت بالنشاط والحيوية فى التركيز على احداث الحياة العاطفية والاقلال من الاهتمام بالمواضيع السياسية أو بأوضاع الصناعة والزراعة ، مما يشير بوضوح الى حياة الانسان الخاصة عادت تحتل مكانتها فى الأدب السوفياتى الحديث بعد أن كانت قد فقدتها فى عهد ستالين .

ولم يعد كتاب القصة الجدد فى الاتحاد السوفياتى يعنون كأسلافهم ، بالقضايا الجماعية ، والجوانب العامة للحياة ، قدر عنايتهم بالحياة اليومية الخاصة وما يقع فيها من حوادث صغيرة ، وما تتأثر به من انطباعات آنية . وهكذا راحوا يبعثون الى الوجود ، تقاليد تشيكوف وتيرجنييف وبوزنين من عمالقة القصة العالمية ، بما تضمه من اهتمام بالتنهدات والابتسامات ، وصور الطبيعة الموضوعية .

وقد وقع هذا الانقلاب فى القصة السوفياتية فى السنوات التى تلت موت ستالين . فلم يعد للقوالب القصصية ، «المصبوبة» والجامدة التى تميزت بها القصص القديمة التى وضعت فى عهده والتى باتت الآن تمثل الأدب الكلاسيكى ، وجود فى القصص الجديدة التى تمثل مفاهيم الواقع الاشتراكى فى كثير من الانطلاق والتحرر ، والتى تمثل قصة « ليس بالخبز وحده » لدودنيتسيف ، أروع صورة لها .

ولا يعنى هذا القول . ان كل ما تخرجه المطابع السوفياتية اليوم ، هو من هذا الطراز الثائر على التقاليد القديمة ، المتجدد فى صوره وموضوعاته ، فهناك قصص مازالت تظهر فى الاتحاد السوفياتى ، متشابهة فى موضوعاتها وصورها ، للقصص التى صدرت فى عهد ستالين ، والتى تتناول مواضيع المزارع الجماعية والمشاكل الزراعية والمصانع والمكاتب فى صور مبسطة سهلة على الحل ، تدعم القيم الاشتراكية وتسندها . لكن قصص التحليل النفسى أخذت الآن تحتل مكانها فى الأدب السوفياتى الجديد ، على أيدى روادها من أمثال سيرجى انطونوف وفيرا بانوفا ، كما راح

قصصيون آخرون من أمثال يورى كازاكوف ويورى ناجيبين يطلعون على القراء ، بقصص تتناول الجنس فى صور نقية ومترفعة .

ولا يحتل كازاكوف وناجيبين منزلة عالية بين القصصيين السوفيات اذ ان عدد قرائهما محدود فى العالم الاشتراكى. ولكن المهتمين بشؤون الأدب من الروس وغيرهم، يتابعون كتاباتهما باهتمام زائد ، اذ انهما يمثلان فى رأيهم شيئا جديدا ، لا يتفق مع المعايير الحزبية العامة ، وقيمها ، وهما لا يقفان موقف المعارضة الصريحة للمفاهيم الحزبية وقيمها ، ومعاييرها ، وانما يتجاهلانها كل التجاهل ، ويغوصان فى أعماق النفس الانسانية ، مصورين مشاعرهما تصويرا فيه الكثير من الروعة والاجادة ؛ ولذا يمكن اعتبارهما خير ممثلين للاتجاهات الجديدة فى الأدب السوفياتى التى تميزت بالثورة الكاملة على كل ماهو تقليدى وقديم .

***

ولد يورى كازاكوف فى مدينة موسكو فى عام ١٩٢٧ . وهوى الموسيقى منذ نعومة أظفاره . فدرسها دراسة جادة ، وانضم كعازف الى احدى الفرق الموسيقيةالمغمورة. ولم يقبل على كتابة القصص الا فى عام ١٩٥٧ ، حيث نشر مجموعة صغيرة من القصص القصيرة فى بعض المجلات الأدبية الشهرية ، كما أصدر مجموعتين قصصيتين ، أولاهما باسم « مانكا » فى عام ١٩٥٨ والثانية باسم «فى محطة القطار» فى عام ١٩٥٩.

وتمثل غالبية الشخصيات التى ضمنها قصصه القصيرة هذه ، مخلوقات مشوهة سواء أكانت بشرا أم من الحيوانات ، قدر لها أن تواجه الحياة وقد أصيبت باحدى العاهات . وفى هذا المنطلق تكون عاطفة الاشفاق على بطل القصة ، الصورة الغالبة على قصصه كلها .

ففى قصة « مانكا » التى صدر بها مجموعته الأولى ، يرسم كازاكوف لنا فتاة يتيمة فى الرابعة عشرة من عمرها ، نحيلة الجسم ، عجفاء القوام ، قبيحة الصورة ، وهى تعمل فى توزيع البريد فى منطقة قطبية نائية ، تقع على ساحل المحيط المتجمد الشمالى ، وقد تباعدت مساكنها ، منتشرة على مساحة شاسعة من الأرض . وتعجب الفتاة لسوء حظها ، ببيرفلى ، وهو أجمل شباب المنطقة كلها ، وأكثرهم اقداما وشجاعة ، وتعرضا لمغازلة الفتيات . وسرعان ما يتحول الاعجاب الى حب طاغ من جانب واحد ، هو جانب الفتاة ليس الا ، اذ أن فتاها بيرفيلى لا يعرف عنه شيئا ، وقد انصرف عنه ، بحبه لفتاة رائعة الجمال من فتيات المنطقة تدعى لينكا .

لكن لينكا تصد فتاها ، وتمنعه ، وفى ذات يوم ، وجهت اليه عبارات مهينة ، فثارت ثائرته ، وراح الى البحر يحاول ان يستقل زورقا ، يقتحم به عباب الموج الزاخر وسط عاصفة هوجاء . وتلقاه مانكا ، وهو يكاد يمضى فى زورقه ، فتحاول صده عن بغيته ، ولكنه يزداد اصرارا ، ولا ترى مندوحة لها عن مرافقته فى الزورق . ويصبح الزورق كريشة تتقاذفها الأمواج وسط العاصفة المزمجرة . وسرعان ماينقلب

بهما القارب ، ويشرفان على الفرق ، لولا أن قذفت بهما الأمواج على ساحل غير مطروق ، ولا أثر فيه لحياة . وفجأة يجدان نفسيهما أمام كوخ ، ليس فيه انسان ، فيلجانه ليجففا ثيابهما وليحتسيا بعض الفودكا .

ويتحقق لمانكا حلمها داخل الكوخ ، فيحس بيرفيلى أخيرا بوجودها كامرأة الى جانبه ، وسرعان ما يقبل عليها محاولا عناقها . لكن الفتاة ، وقد فوجئت بهذا الحب المباغت الذى لم تكن تتوقعه حتى فى أحلامها ، تدفعه عنها ، وتخرج مخلفة اياه فى الكوخ . وهنا تنتهى القصة ...

ولا يوضح لنا كازاكوف السبب فى هذا التحول من جانب الفتاة ، كما لا يحاول أن يلقى أى ضوء على ما سيقع فى المستقبل . فهو يترك الاحتمال بعودتهما الى اللقاء فى الكوخ قائما ، كما يترك لنا مانكا ، وهى تواجه وضعا نفسيا مغلقا ومبهما لا يستطيع المرء تصويره الا بأنه مزيج من مشاعر الفزع والسرور والشعور بالخزى .

ونحن لا نرى فى هذا الموقف اى تحليل منطقى أو معقول ... فالفتاة تتحرق شوقا الى فتاها ، وعندما تصبح احلامها وشيكة التحول الى واقع ، تصاب بعقدة الفزع ممزوجة بشىء من الرضى ، والغضب ، والرغبة فى الانتقام . ونحن لا نستطيع فى كل هذا الا أن نستنتج بأن الكاتب يرى فى الحياة شيئا مغلقا ، وغنيا بالمفاجئات . أما القلب البشرى ، فهو فى رأيه قلب ومندفع . وهو يكتفى بسرد ما يحس به تاركا للقارىء نفسه اصدار الأحكام الخلقية من اعجاب أو ملامة .

***

وقد اتهم النقاد السوفيات كازاكوف بالتشاؤم ، وكانوا على حق فى اتهامهم هذا ، اذ انه يبدى فى مختلف القصص التى تضمنتها مجموعته ، احساسا صادقا برؤية الأمور تسير على غير ما يهوى الانسان ويشتهى . فهو فى قصته « بيت تحت الهاوية » يتحدث عن شاب يكتشف وجود الشر الى جانبه ، فلا يحاول مقاومته أو دفعه ، وانما يستسلم اليه مذعنا وطائعا .

وتتلخص القصة فى أن بلوخين يصل موفدا من موسكو الى بلدة صغيرة ليعمل فى مكتبتها فى اعداد دراسة عن عادات أهل البلدة فى القراءة ، وعن الأساليب التى تتبعها تلك المكتبة فى ارضاء قرائها . ويجد بلوخين فندق البلدة الوحيد مكتظا بالنزلاء . فيحار فى أمر العثور على مأوى ، ويضطر الى الاستعانة بأهل المكتبة علهم يجدون له مكانا ينزل فيه . ويبعث به هؤلاء ، الى سيدة الفت أن تؤجر بعض الغرف فى منزلها للغرباء .

ويمضى بلوخين الى منزل السيدة ، ويستأجر غرفة فى منزلها ليجد نفسه بعد قليل ، وجها لوجه ، أمام الشر والخير فى مكان واحد . فالسيدة امرأة عادية أو دون

المستوى ، وهي دميمة الصورة قبيحة الشكل . تتمسك بالآراء الدينية الرجعية البالية ، مكتفية بالقشور دون اللباب ، ولكن معها ، وفى نفس البيت ، ابنتها الجميلة الشابة ، التى تعانى من ظلم أمها أشد الويلات ، ومن قسوتها ، ما لا مثيل له . فهى سجينة لا تسمح لها أمها بالخروج من المنزل ، كما لا تسمح لها بالتحدث الى أحد من النزلاء فى البيت .

لكنها تتسلل اليه أحيانا ، لتسأله عن الحياة فى موسكو ، وعن بعض القضايا التى تشغل خواطرها . وسرعان ماتكتشف أمها ذلك ، فتغضب غضبا شديدا وتؤنبها أقسى تأنيب ، وتتحول الى بلوخين مطالبة اياه بزيادة الأجر ، كما ترفض أن تؤدى له الخدمات العادية التى تقدمها كل صاحبة منزل للساكنين عندها .

وتسود الحياة فى عينيه ، ويصبح احتمالها أمرا عسيرا يكاد يخنقه ، فيقرر الرحيل عن البيت ويرحل فعلا ، وان كان قد أحس بالواجب الملقى على كتفيه فى انقاذ الفتاة من هذا الجحيم الذى تعيش فيه ، وتحريرها من الظلم الذى يجثم على صدرها . لكنه لا يعمل شيئا ، وانما يكتفى بالجلوس فى مكتبته ، مكبا على أعماله العادية ، فى الوقت الذى تجتاحه هذه العواطف الجياشة المتعلقة بتلك الروح الانسانية « التى يراها تدمر الى جانبه دون أن يتمكن من انقاذها » . وتظل صاحبة المنزل فى مكانها السيدة المسيطرة على الفتاة التى تذبل كالزهرة فى سجنها .

***

وتنتهى القصة عند هذا الحد . وهى تخلو كما يتضح للقارىء من كل قيمة ايجابية سوى تلك الصور الرائعة التى يرسمها لأعماق النفس البشرية ، ولذلك العالم المظلم الرهيب الذى تعيش فيه تلك الزهرة البريئة ... ولعل هذا التقاعس من جانب الكاتب عن ايجاد الحل ، هو الذى حمل النقاد على اتهامه بالتشاؤم .

ويقيم كازاكوف الدليل على ان الحب اصبح موضوعا مألوفا لدى الكتاب السوفيات الجدد الذين أولوا الحياة الخاصة والمشاعر الانسانية جل عنايتهم أو اهتمامهم . ولم تكن قصة « الأزرق والأخضر » ، الا قصة حب فعلية بين اليوشا وليليا ، منذ اللحظة التى التقيا فيها لأول مرة فى موعد فرضه القدر ، تمثلت فى سلسلة متلاحقة من المطارحات الغرامية والقبلات ، والصد والعتاب ، الى أن تنتهى القصة التى يرويها الكاتب على لسان بطلها اليوشا ، بظهور رجل ثالث يقع فى حب ليليا ، فتتزوجه ثم تسافر معه الى الشمال ، مخلفة حبيبها الأول وهو يتجرع غصص الحسرة .

وتتضمن القصة شطحات يرويها الكاتب على لسان البطل ، لا معنى لها على الاطلاق ، ولا صلة بموضوع القصة ، فهو يرى كل شىء ، ويحاول أن يصفه أدق وصف بكل مافيه من دقائق وتفاصيل ، وهو يفكر بمسائل تافهة لا تستحق منه أن يوليها شيئا من تفكيره ... ولنسمعه يقول ... « وعندما نمر باللافتات ، أقرؤها



بعناية . وفى وسع الانسان ان يقرأ اللافتات فى طريق العودة أيضا ، فهى تظهر وكأنها أصوات مضحكة » ... وفى مثل هذه الأقوال التى كثيرا ما تتردد فى القصة ، لا تمثل اية علاقة بين ما يقوله الكاتب وبين موضوع القصـــة ، الذى يبدو وكأنه كل مايراه اليوشا وما يسمعه وما يفكر به فى اية لحظة من اللحظات .

وبالرغم من ان القصة لا تنطوى على اية احداث مثيرة أو غير عادية ، وانما تكتفى

بسرد الحوادث الصغيرة التى يمر بها ملايين المحبين فى حياتهم اليومية ، فان كازاكوف ينجح فى أن يقدم الينا عن طريق ابراز الأثر الذى يتركه الواقع اليومى على وعى اليوشا الساذج ، صورة واضحة عن نمو حب عنيف ينتهى الى حزن عميق ، عندما يفقد العاشق فتاته ، عاكسا لنا الأضواء والظلال ، كما يراها فؤاد بسيط ساذج كفؤاد اليوشا .

ويرسم لنا كازاكوف فى قصته « فى الجزيرة » صورة حب لا يقل فى شقائه عن حب اليوشا ، ولا سيما فى نهايته الحزينة فزابافين بطل القصة ، رجل متزوج فى الخامسة والثلاثين من عمره ، وتضم أسرته ولدين يحبهما كل الحب . وتوفده الهيئة التى يعمل معها ، فى مهمة رسمية الى جزيرة نائية من جزر الشمال ، حيث تقيم جوستيا الفتاة الشابة التى لا تتجاوز السادسة والعشرين من عمرها ، والتى تدير محطة الأرصاد الجوية فى الجزيرة .

وتشتد الألفة بين زابافين وجوستيا ، وتطول الأحاديث بينهما عن السعادة والحب والحياة والشيخوخة . وتتحول الألفة الى عاطفة ، والعاطفة الى حب جارف ، فيتبادلان العناق والقبل . ولكن هذا الحب المفاجىء ، ينتهى الى نهاية محزنة عندما تحين ساعة الفراق ، ولم تبق أمامهما الا ليلة واحدة ، اذ ان زابافين سيستقل مركب الصيد فى الصباح عائدا الى بيته وزوجه وولديه .

ويمضى الحبيبان فى طريقهما الى المركب وتسأله جوستيا « ماهذا ؟ أهذه هى السعادة ؟ » فيرد عليها زابافين والألم يعتصر فؤاده . . . « أجل . . . أجل . . . انها السعادة » ، فتنهمر الدموع من عينيها وهى تقول . . . « آه يا الهى » . ويمضى زابافين الى قاربه وحيدا ، وقد خلف فؤاده معها ، ويعود بفكره اليها فيقول . . . مخاطبا نفسه . . . « اذن هذه هى السعادة ! وهذا هو الحب ! آه ، ما أغرب الحب!! »

ولا يعنى كازاكوف فى قصته هذه بمعايير الحزب الخلقية ، وانما يحاول أن يرسم ، دون أن يدين أحدا ، دقائق ما يحس به رجل وامرأة ، ربطتهما علاقة حب قصير وعابر ، وان يضمن لوحته ، مزيجا من مشاعر الحب والسعادة والمرارة والألم .

***

أما يورى ناجيبين ، فقد ولد فى عام ١٩٢٠ ، ودرس فن التصوير السينمائى وعمل ابان الحرب العالمية الأخيرة فى الجهاز السياسى للجيش السوفياتى ، ثم أصيب بجراح ما لبث أن شفى منها ، ليتحول الى مراسل حربى . وقد نشر قصته الأولى فى عام ١٩٣٩ وصدرت له منذ ذلك التاريخ ست مجموعات قصصية ، كما تضمنت مجموعة الآثار الأدبية التى نشرتها « مجلة موسكو الأدبية » فى عام ١٩٥٦ ، قصتيه « حلية الخرز » و « ضوء من النافذة » ، وأثار نشرهما الكثير من التعليقات لتعارضهما مع الاتجاه الستالينى الذى ظل سائدا حتى ذلك التاريخ .

وهو يشبه فى افكاره ، كازاكوف تمام الشبه ، فهو يكثر من الحديث عن الحب ولا سيما ناحية الألم فيه . فقد رسم فى قصته « الحب » ، صورة حب برىء ، حمله ايجور ، الفتى الريفى ، لفتاته ناستيا . وقد بدأت القصة عندما كان ايجور فى التاسعة من عمره ، اذا أحب فتاته بالغ الحب . ثم اضطرته ظروفه الخاصة الى مغادرة القرية الى المدينة لاستكمال دراسته . ويبدو انه طيلة اقامته هنالك ، لم يسطر حرفا واحدا الى حبيبته ، كما لم يتلق اى أنباء عنها . فعندما عاد الى القرية بعد استكمال تعليمه، عرف ان ناستيا قد غادرت القرية ، بعد أن وقعت فى غرام رجل بارز أوقعها فى شباكه ثم ما لبث أن تخلى عنها . ولا يترك ايجور زاوية الا ويطرقها بحثا عن حبيبته الى أن عثر عليها ، وهى تعمل فى غسل الأطباق فى أحد فنادق المدينة ، بعد أن فسدت روحيا وجسديا . وتكشف له أثناء حديثه اليها ، انها فقدت براءتها ، وانها تنظر الى الحب نظرة متشائمة ، بعد أن اكتنف الغموض حياتها ، وبعد أن تعلمت الكثير من طرائق الحياة التى لا توجد فى القرية البسيطة ... انها تقول له ... « آه ، يا ايجور ، كيف يعيش الناس ! ان الانسان لا يكاد يتصور ذلك حتى فى أحلامه » . ويرد عليها ايجور قائلا ... « ان الناس يحيون حياة جدية ، مليئة بالمتاعب والمشقات » .

ويعرض ناجيبين فى عدة صفحات طافحة بالملاحظات الدقيقــة التأثرات التى يتعرض لها ايجور ، فهو يجد لأسباب لا يستطيع فهمها ، انه لم يعد يحب فتاته التى فقدها ، وانما يحب ناستيا الجديدة والغريبة عنه ، التى لا يكاد يعرفها ، بل ويجهل كل شىء عنها . ويطلب اليها أن تعود اليه . فتهزأ به مستهترة . وتكشف عن تدهورها الخلقى ، فى حلقة من الحوار الوضيع مع صديقة لها يدور محوره حول حب ايجور ، ولكنها تنصاع لرغبته أخيرا ، وبعد سلسلة طويلة من الألحاف والصد فتعود اليه .

ونحن نرى ناجيبين فى قصته هذه ، يرفض كزميله كازاكوف ، الاستجابة لما فى التفاسير المبسطة للأوضاع من اغراء واستهواء . فهو يعرض الصورة الدقيقة الكاملة لانحراف ناستيا واعوجاجها ، دون أن يزخرف الواقع أو يزوقه ، وهــو يرى ان الطبيعة البشرية شىء معقد يثير حيرة الانسان ، كما يرى ان العوامل التى تؤدى الى الضعف والشقاء ، والفشل فى الفهم ، عديدة وقوية .

وتصور قصته « المنصة الصخرية » ، حب فتاة تعيش فى عزلة ، تفوق تلك التى كانت تعيشها ناستيا بطلة قصة كوزاكوف التى ذكرناها قبل قليل . وتدور القصــة حول عالم فى طبقات الأرض ، يذهب فى بعثة علمية الى المناطق الجبلية الشاهقة المحاذية لحدود أفغانستان ، حيث يلتقى كاتيا ، الامرأة الشابة التى تحتل وحدها ، محطة التجارب النباتية ، ويعرف منها عرضا انها كانت قد احبت أثناء دراستهــا الجامعية . فتى ضعيفا لا يعرف معنى المسؤولية . وأضافت انها تمكنت بعد مجيئها الى هذه المحطة النائية فى حمله على المجىء للعمل معها ، ولكنه أحس بالملل ، بعــد بضعة شهور ، وفر مخلفا اياها وحدها . ولكنها لم تيأس ، فواصلت البحث عنه

حتى عثرت على عنوانه ، فكتبت اليـــه ، ولكنه رد عليها بالرفض فى رسالة ، حملها العالم الجيولوجى اليها .

ويفترق العالم الشاب عن كاتيا تاركا اياها وحدها فى محطتها النائية تبكى وحدتها واملها الضائع ، وليس لها ما يسليها الا صحبة بعض الحيوانات الداخبة ، التى كثيرا ما تحدثت اليها ، مفضية اليها بلواعج فؤادها .

لكن القصة ليست محزنة فى مجموعها . فكاتيا امراة شجاعة باسلة ، وهى تعمل كل ما وسعها من جهد لاخفاء حبها والمها ، مستمرة فى عملها بجد ومثابرة . ولكن ناجيبين ، يعالج مثل كازاكوف ، هذه العواطف المتشابكة ، وكأنها مواضـع تستحق الدرس والغوص العميق فى البحث .

وتدور وقائع قصصه فى معظمها ، فى أوساط الصيد . ومن اشهر قصصه عن الصيد ، قصة « الصيد الأخير » ، التى تحدث فيها عن رجل طعن فى السن الى الحد الذى دفع زوجته الى التفكير بان الصيد لم يعد مأمون العواقب بالنسبة اليه ، ممـا جعلها تخفى عنه بندقيته . ويبكى الرجل حزنا « على بندقيته » . فترثى زوجته لمرآه وتعيدها اليه . ويخرج الى الصيد من جديد . ويصف لنا الكاتب مغامرته هذه ثم يوحى الينا بان الرجل العجوز سيموت . وينحنى الصـــياد العجوز ليلتقط بعض « الزاد » ، فيشعر بالدوار ، وبطنين فى أذنيه ، ثم يعود فينتصب واقفـــا » ويمضى الى الغابة ، وقد سيطرت عليه حالة نفسية غريبة ، هى نتيجة تفكيره بالموت . وتهتز الأرض تحت قدميه ، كما اهتز السرير تحته وهو طفل ، ثم يمضى فى طريقه متجهـــا الى هدفه الذى لن يصله .

ولعل من الطريف ان بعض النقاد « السوفيات » قد قارنوا بين هذه القصـــة . وبين قصـة همينجواى « العجوز والبحر » ، وهم يقولون ان قصة همينجواى ، كانت متشائمة فى نهايتها ، وان عجوزه فشل فى محاولته ، بينما نجح عجوز ناجيبين فى صيده الأخير . لانه حمل بعض البط معه .

وكتب ناجيبين قبل بضع سنوات فصـــلا « تمثيليا » أسماه « فى السيارة » . وتدور حوادثه حول فتاتين تستقلان سيارة عامة . وكانت كبراهما فى طريقها الى رجل تعتزم العيش معه دون زواج . أما الصغرى ، فتعرف ما تعتزمه رفيقتهـــا ، وهى تنظر اليها نظرة فيها الكثير من مشاعر الاعجاب . والاحترام والخوف على مستقبلها . وليس فى هذا الفصل التمثيلى اية أحـداث مثيرة أو غير مثيرة على الاطلاق ، اذ أن الفتاة الكبرى تترك السيارة وتذهب الى موعدها ، بينما تظل الصغرى تتطلع اليهـا والسيارة تبتعد عنها . ومثل هذا الوضع شائع ومألوف ، لكن الحركة فى القصـــة داخلية ، اذ انها العلاقة النفسية بين الفتاتين . ولا سيما ما يدور فى خلد الصـــغرى من مشاعر الاهتمام والقلق .

وفى قصة « بافليك » ، يصور لنا ناجيبين شابا نشأ فى كنف أمه الثيب ، وقد ظل تابعا لها طيعا لأمرها . ويبدو الفتى فى هذا الوضع « الفرويدى » التقليدى ، مخنثا مفتقرا الى الصلابة وسهلا على القياد . ولكنه سرعان ما انقلب فى الحرب الى جندى شجاع ، ابلى بلاء حسنا فى الدفاع عن وطنه ، ومات ميتة الأبطال . وبالرغم من هالة التمجيد التى أضفاها ناجيبين على بطله ، الا انه ظل أمام رفاقه «بافليك» ، الشاب المدلل الذى تدعوه أمه بهذا الاسم المصغر عن « بول » تحببا ، مما يشير الى تعلق ناجيبين بمتناقضات الحياة الانسانية .

***

هذه نظرة عاجلة الى هذين الكاتبين القصصيين الطالعين . لكن هناك كتابا آخرين يسيرون على نفس الطريق . ويجد المرء فى مختلف الصحف الأدبية قصص المغامرات والحركة النابضة . وتدور أحداث الكثيرات من هذه القصص فى بلاد أجنبية ، وأماكن غريبة . ولا ريب فى أن القارىء السوفياتى الذى استمع الى انواع المواعظ ، يجد فى هذه القصص طرافة تخرجه عن الرتابة الخالدة فى الحياة السوفياتية . ولم تكن قصة « الملجا السرى فى الغابة » لكورابينوف الا صورة لمغامرات حرب المقاومة التى قامت بها العصابات السرية ضد الألمان أما قصة « قهوة على طريق بودابست » لليونيد بيرفومايسكى ، فتصور حياة شيوعى مجرى ، فر الى الاتحاد السوفياتى بعد فشل ثورة بيلاكون ، ليصبح جنديا سوفياتيا . وعندما احتل الروس بودابست ابان الحرب الأخيرة ، راح يبحث عن أمه التى خلفها عند فراره فيها .

وهناك طراز آخر من القصص أثار الكثير من التعليقات فى روسيا ، وهو يضم تلك التى تثير المشاكل الدينية والاجتماعية ، ثم تقترح حلولا تتعارض مع قواعد السلوك الرسمية . وقد كسب سيرجى فورونين الشهرة بقصتين من هذا الطراز تحدث فى أولاهما وهى « الدانوب الأزرق » ، عن نمو العداء بين رجلين الى الحد الذى دفع بأحدهما وهو ايفان الى تحطيم فك الآخر وهو نيقولاى بلكمة من يده . ويدين القضاء ايفان فيحكم عليه بالسجن ثمانية عشر شهرا يقضيها ثم يخرج من سجنه ليقصد نيقولاى راغبا فى الاعتذار اليه ، ولكن هذا يخشى هذه الزيارة المفاجئة فيبادر خصمه قبل أن يعرف حقيقة هدفه من الزيارة بطعنة من مديته تؤدى به الى السجن أيضا مخلفا وراءه زوجته وأطفاله .

ويعرض فورونين فى قصته هذه مشكلة المنافسة المتزايدة بين رجلين على انها شىء يجافى العقل والمنطق وانها أشبه ماتكون بالقدر الذى يحكم على منزل بالانهيار . فايفان لا يفهم كيف نشأ العداء بين الناس . ولماذا يكون وجوده أمرا حتميا . والقصة بأحداثها صورة الى تزايد الكراهية بين رجلين كانا فى السابق صديقين حميمين ، ثم أخذ كل منهما يرى فى رفيقه ، الشخص المذنب المسؤول ، وفى نفسه البرىء من

كل ذنب . ولا ريب أن كل من يقرأ القصة لابد ان يتساءل ، ترى أين تقع الخطيئة حقا ؟ ومن المسؤول عنها ؟ انه ليس الانسان ، وانما هى الظروف أو القدر ، أو انها تلك القوة الشريرة التى لا تقاوم فى الطبيعة الانسانية .

ويثير فورونين فى قصته الثانية « العودة الى البيت » قضية اخرى اكثر تعقيدا . فالبطل جندى سوفياتى ، يعود الى قريته من اسر الالمان ، ويجد ان شخصا آخر يدعى فاسيلى ، يعيش هانئا فى بيته مع زوجته واطفاله . ويتذكر البطل ، أن فاسيلى هذا ، كان يعمل حارسا على الأسرى الروس عند الالمان . فيحدثه ويعترف هـذا بالحقيقة ، متوسلا اليه الا يشى به ، وهو يقول ... « كنت أريد ان أعيش » . وهكذا يصور الكاتب قصة أولئك الذين ضعفوا عندما واجهوا الموت فخانوا بلادهم وتعاونوا مع الالمان ، ثم نجحوا فى العودة الى صفوف الروس واخفاء خيانتهم .

وبات لزاما على البطل ان يقرر ، هل يحطم حيـاة فاسيلى وأسرته ، أو يترك القرية دون ان يشى به . ويحدث نفسه قائلا .. « لقد انتهت الحرب منذ سنوات طوال ، ولكنها مازالت دائرة فى حياتنا . وليس فى وسعى ان أفعل شيئا مع فاسيلى ، فهو يستثير اشفاقى ، كما أشعر نحوه بشىء من القرابة » .

وقد أثار هذا الموقف المارق العطوف على رجل خائن ، سخط الكثيرين من القراء .

ولعل من اجمل القصص السوفياتية الحديثة قصة « رأس السنة » التى نشرها كاتبها فلاديمير دودينتسيف فى يناير عام ١٩٦٠ . ولا تمثل أهمية هذه القصة فى انها تنطوى على شىء من النقد لبعض مظاهر الحيـاة السوفياتية ، اذ أن مثـل هـذا النقد قد ظهر بين عامى ١٩٥٤ و ١٩٥٧ . وبعد هذا التاريخ على نطاق ضيق فى قصص الكثيرين من الكتاب السوفيات . وليس المهم فى قصـة دودنيتسيف ما يقوله ، بل ما يحاول قوله ، اذ انه لم ينجح فى أن يقول كل ما أراد قوله . ولعل قصته هذه ، هى أول قصة بعيدة عن الواقع تنشر فى روسيا السوفياتية فى السنوات الأخيرة . فهى تصـور عالما غريبـا ، نصفه يعيش تقريبا فى ظلام دامس ، ويستعمل الرموز والاستعارات ، ويجمع بين الخيال والواقع . وبطل القصـة عالم يعمل فى تكييف أشعة الشمس ، لخلق مصدر من مصادر الطاقة لأولئك التعساء الذين يعيشون فى ذلك النصف المظلم من العالم . وتبدو هذه القصة الطوبائية فى بعض أجزائها وكأنها من وضع طالب موهوب ، لم يصل مرتبة التخرج بعد . ولا ريب فى أن « البوم » الغريب الذى يطوف بالمكان ، هو جزء من الصورة ، اذ يكثر ظهوره بشكل يتجاوز حدود الطبيعة .

وقد تختلف الأفكار الرئيسية فى القصة ، كالبحث الفردى عن الاكتفاء الذاتى والثراء والحب ، مع العقيدة السوفياتية ، لكن مظاهرها الأخرى كنجاح البطل فى تحقيق رسالته ، وشفائه من مرضه ، واختفاء « البوم » والسعى الدائب لمساعدة المحرومين فى العالم المظلم ، فظواهر تنسجم كل الانسجام مع العقيدة . ولا ريب فى أن هذه القصة ، بالرغم مما فيها من فجاجة هجينة ، تمثل بما فيها من ابتكار حدثا هاما فى الأدب السوفياتى يرمز الى تطور لا بد وأن يسير فى طريقه ، ليعود بالقصة الروسية الى سالف مجدها فى أيام تشخوف ودوستويفسكى وأمثالهما من عمالقة القصة العالمية ...



رصيف فى ظل العمارة

قصة : مال الله حسين

كان الرصيف أمـــام باب المقهـى ، مزدحما بالرواد · وانتشرت عليه المقاعد والكراسى ··· أما فى الداخل ، فكان خاليا تماما ··· كانت الارض قد رشت منذ وقت قصير ، لذلك أحس الجالسون بالحر والرطوبة الخانقة ··

الصمت قد خيم على المكان بعـــد أن سكتت الأصوات التى كانت تعلق على سير اللعب ، كلما تدحرج النرد أمام اللاعبين ·· وانحسرت الشمس تاركة الشارع الهادىء أمام الرصيف ، يحتضن ظلال العمارة الشاهقة ··

تململ (أبو ستار) فوق مقعده ، ونظر الى الجالس أمامه ، وكأنه يستحثه على الحديث ... وبعد صمت قصير قال بنفاذ صبر :

- لم تخبرنى ماذا قررت أن تفعل؟..

أجاب (**أبو ناجى**) وهو يمسح العرق المتصبب من وجهه :

- سأنتظر بعض الوقت ... لعلى أجد عملا آخر ...

ارتسمت على وجه **أبى ستار** علامات الأسف وخيبة الأمل وقال بعد تردد :

- يا أخى .. والله العمل بسيط .. بسيط جدا ! .. بضعة أيام فتتعود عليه ، ولا تشعر بالخجل أو الحرج ..

هز **أبو ناجى** رأسه ببطء وقال بانفعال :

- والله صعبة على هذه الأشياء ... يا أخى أنا لم أتعود مثل هذا العمل .. أقف بباب الملهى أمسح سيارات باقى عمرى ؟ ... لا أستطيع أبدا ..

سكت ، وفى عينيه الغضب والحيرة .. سعل **أبو ستار** واعتدل فى جلسته وقد ارتسمت على وجهه امارات الضيق والتبرم ... تمخط ومسح أنفه بظاهر يده ثم قال :

- اذا أردت أن تموت جوعا ، احتفظ بكرامتك ... مضت سنة وأنت تبحث عن عمل يلائمك ! بلا نتيجة .. أريد أن أعرف ماذا تستطيع أن تعمل وأنت بهذا الحال ؟! ..

كان ينظر اليه باشفاق وألم .. وبعد صمت قصير أضاف متوسلا :

- الله يحفظ لك ناجى ، فكر بعائلتك .. فكر بمصير ابنك ومستقبله ! ... والله لو لم يتوظف ابنى ستار ، لما تركت هذا العمل ... صار لى خمس سنين وأنا أمسح سيارات .. و ...

وسكت غاضبا ... خيم الصمت على المكان . وارتفع صوت الراديو يؤذن لصلاة المغرب ... خف الزحام ، وتبعثر الرواد كل الى جهة ... نهض أبو ستار واقترب من **أبى ناجى** وهمس قائلا :

- أنا ذاهب ... أرجو أن تسمع كلامى وتذهب فى الساعة التاسعة ، وتجرب مرة واحدة ..

وسار مبتعدا عن المقهى ..

بقى أبو ناجى جالسا وحده يفكر :

ماذا يفعل ؟ ... أيذهب ويجرب ؟ .. صحيح هو بحاجة الى العمل ، ولكن أيرضى بهذا ؟ ! ... وأخيرا أقنع نفسه بالتجربة ...

فى التاسعة تماما كان قد وصل الملهى بخطوات متعثرة خجلى ... نظر أمامه ... ليس هناك أى سيارة .. جلس على الرصيف أمام الباب ينتظر ...

ومضت ساعة احتشدت السيارات فى الساحة وفى الشارع ... وقف أمامها حائرا ، يرتسم التردد فى عينيه ، ويفضحه الاضطراب والخجل ... قلب الخرقة فى يده ، ودعكها ... انه لا يدرى ماذا يفعل .. وكيف يبدأ .. ! وتمتم فى سره :

- « واذا انتهيت من المسح ، من يقول انى سأقبض ! ؟ ... اللعنة على أجدادك يا أبا ستار .. أوقعتنى بهذه الورطة بسهولة ! ... »

تمشى متنقلا بين السيارات جميعا ، يتفحصها ، ولا يدرى بأيها يبدأ .. كان هناك خليط منها ، القديمة والجديدة .. الجرباء واللماعة .. وأسر فى نفسه :

- « السيارات أيضا مثل الناس ..

يستطيع أن يلحظ عليها القبح والجمال الفقر والغنى ... »

هز رأسه .. ابتسم ولعن الدنيا في سره .. رفع رأسه الى السماء وغمغم من بين أسنانه :

ـ « سأبدأ وأمري الى الله ... » .

وتقدم ... ومن ورائه سمع وقع أقدام .. استدار .. كان شرطي يقف وراءه يتفحصه :

ـ ماذا تفعل هنا .. ؟ ..

قالها الشرطي بقوة وصرامة .. غاص قلب أبي ناجي واضطرب وبصوت متخاذل قال :

ـ أ ... أمسح .. أبو ستار بعثني ..

ابتسم الشرطي ابتسامة الواثق من قوته .. طبطب بعصاه على فخذه بايقاع ، ثم تحرك مبتعدا .

حين انتهى من العمل ، كان منهكا .. جلس على الرصيف يستريح . وطافت عيناه تتفحصان نتيجة عمله .. تنفس بارتياح . مسح العرق عن جبينه ، وبدأ يعد السيارات . **ثلاث عشرة سيارة .. اي ثلاثة عشر درهما ان صح ما قاله أبو ستار ...!**

وانتبه الى ضحكات تراقصت في داخل الملهى .. تدحرجت الموسيقى تحمل الضجيج الى أذنيه .. انه لا يفهم شيئا . كل شيء هنا ينطق بغير لغته هو .. كل شيء غريب عنه ، حتى النساء هنا يختلفن .. بيضاوات شقراوات ، رشيقات طويلات . **يتكلمن الـ ... ماذا ؟ ! .. انه لا يدري ... وتذكر ابنه .. ناجي تلميذ مدرسة ربما يعرف لغتهن ..**

خيم عليه الحزن ، وسرح ببصره بعيدا ونسي الضجيج من حوله ... كم تألم وهو يرى ابنه الوحيد عائدا في الليل من المقهى ، والتعب يهد جسمه الصغير هدا .. خمس ساعات يحمل الماء بيده ، يدور ويدور .. ! .. ولكن لولاه والدراهم القليلة التي يأتي بها كل ليلة ، لانفضح حاله ..

وأحس بالألم يعتصر قلبه.. ارتعشت أجفانه ... اختنق بأنفاسه الحارة .. زفر الالم بقوة ويأس .. غامت عيناه بدموع اعتصرها الأسى .. تلمس كتفه بيده . زحفت يده الى الأسفل ببطء ، اعتصرت القماش الذي يستر ذراعه المقطوعة .. بكى بصمت .. انسابت دموعه حارة غزيرة تكوى خديه .. هز



جسمه الانفعال . وكاد ينفجر .. تمالك نفسه وهدأ .. أرخى يده عن القماش وأسند رأسه براحة يده .. **ثلاث سنين** مضت والصورة الأليمة تفرض نفسها **على مخيلته بالحاح .. وعناد فيتذكر الحادث :**

ـ « محمود .. ساعدني لنعمل ثغرة ، وندفع الجدار كله مرة واحدة ... أوشك النهار أن ينقضي ونحن لم نهدم شيئا بعد ... »

هكذا قال له أبو كاظم وهما يشتغلان بهدم بيت قديم ..

ساعده وعملا الثغرة ... ولكنهما لم يدفعا الجدار ... اندفع لوحده فوقهما .. مات أبو كاظم وخرج هو بدماء تسيل على وجهه و ... ذراع مسحوقة ، قطعت فيما بعد ، وبقى عاطلا هذه السنوات ..

ـ ... ...

سمع كلمات لم يفهمها .. انتشلته من ذكرياته الأليمة .. نهض واقفا ، وسار يسبق المتكلمين الى الساحة . ووقف أمام السيارة يمسح بسرعة ... اقتربا ، وفاحت رائحة العطور تخدش أنفه .. أحس برأسه يدور ، وفي قلبه دبت خفقة النشوة . كان الرجل ثخينا قصير القامة أصلع الرأس .. وكانت الفتاة حسناء جميلة القوام .. ركبا ، وركبت معهما الضحكات المحبوسة ... أضيئت المصابيح .. دار المحرك ، وتحركت السيارة ... ابتعد عن طريقها بسرعة .. وبسرعة أيضا مرقت السيارة تهدر وتزمجر ، وكأنها تهزأ منه وتبصق الضحكات ...

وقف مشدوها وفي داخله يعوى الغضب :

ـ « لو لم أتقدم لمسح بى الارض .. مجنون ! ؟ .. » ..

كانت السيارة أمام الملهى تتناقص بالتدريج .. ويد أبى ناجي تداعب الدراهم في جيبه .. تماوج نسيم الليل برقة ولثم وجهه الملتهب ... دب النعاس في أجفانه وأحس بالخمول يسرى في أوصاله .. لم يبق في الساحة الا سيارة واحدة .. كانت فارهة أنيقة .. تقدم منها وتفحصها باستخفاف ... وحقد . وهمس في سره :

ـ « السيارة جديدة .. وصاحبها غنى لا محالة .. ودراهمى الستة التى في جيبى سوف لا تزيد .. »

واستدار ليذهب الى البيت .. ألقى نظرة عجلى على باب الملهى ... كان الشرطي يتقدم نحوه والابتسامة تطفح من وجهه :

ـ كيف وجدت العمل .. ؟

ـ لا بأس به ... على الرغم من أنه **مخجل ... ! .**

قال الشرطي وفي صوته شيء من الألم :

ـ « لا تنتظر من غنى عطاء .. وأنت لا تحس بالخجل مرة أخرى .. ! .. »

وافترقا ... سار أبو ناجي قاصدا البيت وبسمة الرضى تملأ وجهه الأسمر .. ويده تداعب القماش الذى يستر يده المقطوعة ...

مال الله حسين

العراق ـ الموصل ـ

للكتاكيت أجنحة

قصة : عبد العال الحمامصى

دخلت غرفة النوم .. وخلعت ملابس البيت .. ثم ارتدت فستان المناسبات الوحيد لديها .. ووقفت أمام المرآة تمشط شعرها استعدادا لاستقبال خطيب أختها وأسرته ·· والضجة فى الصالة تنفذ اليها صاخبة ·· تموج بالفرحة ·· نساء وعذراى وأطفال ·· وزغاريد تزعق بين كل لحظة والأخرى · كلما قدمت مدعوة جديدة ·· والفتاة النحيفة ما زالت ترقص ·· ويتأود جسدها كالثعبان على نقرات الطبلة فى يد الجارة العجوز ·· وهى تغنى بصوت مشروخ النبرات ·· لاختها فى الصالة ·

تمنت سعاد لو أن تظهر بفستان جديد فى هذه المناسبة .. الفستان القديم لم يفقد زهوته .. ولكنه ضاق عند خصرها .. والجنيهات التى وفرتها لشراء فستان جديد .. اعطتها لمرشاد ليبتاع بها مراجع جديدة .. ظهرت فى الهندسة الكيمائية .

ومن خلال الدوامة فى الصالة تناهت اليها زغرودة قوية ·· اهتزت لها جدران البيت .. ثم جاوبتها زغاريد المدعوات .. هادرة ..

عرفت سعاد صاحبة الزغرودة ..

وابتسمت .. خالتها حميدة .. دائما تدخل بعاصفتها فى الأحزان .. وفى الأفراح .. !

وتأكد اعتقادها عندما هدأت زوبعة الزغاريد التى أثارتها ·· وتدافعت عبارات التهنئة من فمها لتهاد منفعلة باهتياج الفرحة ..

« مبروك يا نهاد ·· ألف بركة يا ست الكل .. ربنا يتمم بخير يا ضنايا .. وعقبال كل البكارى .. » .



واندفعت تسحب الخطيبة من بين صويحباتها .. وتحتويها الى صدرها وهى تغمرها بقبلات منهمرة .. ثم تطلق من جديد زغرودتها الصاخبة .. فترد عليها أفواه الجارات بالزغاريد متجاوبة ..

وقبل أن تجلس بجوار جاره تحت طفلها لتفسح لها مكانا بجانبها .. انطلقت نظراتها تتجول فى ارجاء الشقة باحثة عن سعاد ..

* « يا أختى .. أمال فين سعاد يا بنات .. فين راجل البيت ؟؟ » .

وابتسمت سعاد داخل غرفتها .. ساخرة وقد شعرت بالكلمة تخدش قلبها .. وتتلاقى مع احاسيس غريبة ظلت منذ الصباح تقاومها .. ربما للمرة الأولى فى حياتها تشعر بالمرارة لوقع الكلمة .. رجل البيت .. همست لنفسها بالعبارة .. وانسابت الكآبة فى روحها .. انسابت تيارا هادئا من الأسى جرف كيانها ! ..

رجل البيت .. عادت ترد الكلمة .. وهى تجفف قطرات من الدموع طفرت برغمها . ثم انبثقت من أعماقها خواطر تلومها .. وتستنكر هذا الاحساس منها بالأسى والاكتئاب فى ليلة خطوبة أختها..

وعاد نداء خالتها حميدة من الصالة يستعجلها .. وهى ما زالت أمام المرآة تعيد تصفيف شعرها .. لم ترق لها التسريحة الأولى .. تبدو فيها كفتيات الملاهى !

وضعت المشط وخرجت الى الصالة .. وفوق ثغرها ابتسامة عريضة .. وانفجرت الزغاريد فى وجهها . وهى ترحب بالمدعوات .. وتقبل مجموعة من زميلات نهاد فى معهد المعلمات جئن أثناء وجودها فى الفرقة .. وتتمنى لهن العاقبة .. فتشرق الأحلام فى عيونهن والجارات من حولها يتبادلن التمنيات لبناتهن والشبان ..

كل واحدة تتمنى العاقبة للأخرى .. هى الوحيدة التى لم يقل لها أحد العاقبة لك .. ولا واحدة قالت لها الكلمة المعتادة .. ولا واحدة !

وعادت الكآبة توخز قلبها ! هى .. شىء فرغ من أمره . عرف مصيره .. لا مستقبل له . لا عاقبة عنده .. والتقت بخالتها حميدة وهى خارجة من المطبخ .. وفتحت زراعيها تحتضن المرأة البدينة الطيبة .. بقبلاتها . وتمنياتها ..

* « مبروك لنهاد يا ضنايا .. وعقبالك يا بنتى . ربنا يعوض صبرك .. ويوعدك بابن الحلال » .. ؟ ابن الحلال .. خالتها حميدة . هى الوحيدة هنا التى تذكرت انها انثى .. من حقها أن تقال لها الكلمة .. !

ابن الحلال ..

شعرت بالكلمة توجع قلبها .. نفذت داخل أغواره .. تثير لواعجه الكامنة ! ..

وتخلصت من أحضان خالتها ترد لها التمنيات ..

× « عقبال الشهادة الكبيرة لمحروس يا خالة .. وحجتك انت وعمى رضوان .. » ونادت لأختها الوسطى فى المطبخ تستعجل الشربات ..

— « ياما نفسى يا سعاد يا بننى ..

اعيش لغاية ما أشوفه جنبك فى الكوشة ! .. » .

وابتسمت سعاد ..

× « هو .. مين دا .. يا خالتى ؟ »

نفذت نظرات المرأة داخل عينيها .. وهى تبتسم بدهاء . حنون !

× « يا بت .. اطلعى من دول .. مش عارفاه مين .. ابن الحلال يا روح خالتك .. طب والنبى .. وغلاوة محروس بسلامته .. لوراه لحد ما اجمعه واجيبه لغاية عندك .. عريس عليه القيمة .. يستاهل عقلك . وكمالك . ويعوض صبرك !! » .

لم تستطع هذه المرة أن تمنع المرارة من أن تشوب ابتسامتها وتطل من عينيها .

× « بعد ما شاب .. يا خالتى .. ما أنا قلت لك من زمان .. خلاص يا خاله .. بقيت راجل العيلة .. والحكاية دى مبقتشى أفكر فيها .. مش فاكره والا ايه ؟ .. » .

رجل العائلة ! ..

خالتها حميدة .. هى التى اطلقت عليها تلك التسمية .. ليلة زفاف وداد وهنأتها لزواج أختها . وتمنت لها ابن الحلال .. وأجابتها سعاد بأنها تزوجت خلاص .. تزوجت أختها وأصبحت رجل العائلة .. ومن وقتها وخالتها حميدة لا تناديها الا وهى تداعبها بتلك العبارة .. رجل العائلة .. بدون أن تعرف أنها تدمى بها الجرح الكامن فى أعماق أنوثتها .. الجرح المتقيح فى الداخل لا يريد أن يلتئم أبدا .. وتحرص على أن تدارى عن العيون نزيفه ! ..

تركت خالتها عندما جاءت وداد بالشربات .. وأخذت تساعد أختها فى توزيع الأكواب على المدعوات . والأطفال .. ونظرت الى ساعة يدها .. الثامنة والنصف .. الخطيب موعدة التاسعة ..

وحانت منها التفاتة للعروس فى ثوبها الأنيق .. فاتنة .. وحلوة . والسعادة تزغرد فى عينيها .. ومن حولها البنات .. زهرات شذية .. يحطن بها . ويداعبنها واحدة تقرص خدها . وأخرى تهمس فى اذنها . والأحلام فى كل عين . والابتسامة فوق كل ثغر .. كل واحدة فى قلبها الاحساس بأنها على موعد مع الغد !!

كانت خواطرها تتابع « زيطة » الفتيات .. عندما اصطدمت بها احدى المدعوات عفوا .. وامتدت يد الرضيع فوق صدر السيدة « ينكش » شعرها . واقتربت من المرآة المقابلة لتعيد توضيبه والتقت نظراتها بالشعيرات الفضية بين خصلاتة .. وغامت أساريرها ..

لم تكن تلك الشعيرات مفاجأة لها .. رأتهن من قبل .. وأحصتهن بالواحدة . فما الذى جعلها ترتجف هكذا .. فى ليلة أختها .. « ماذا جرى لك يا سعاد .. أية أحاسيس غريبة ومجنونة تراودك اليوم يافتاة .. أفيقى لنفسك .. لم تعودى مراهقة !! »

نظمت شعرها واستدارت ترحب بجارة وافدة من بناتها .. والتقت عينها بعين أختها .. كانت العروس تتابعها .. وفطنت هى للاكتئاب الذى يشوب نظرة نهاد .. فى ليلة خطوبتها .. !

وابتسمت لها .. « معذرة



يا صغيرتي .. لا شيء . .لا تكتئبي هكذا ياعصفورة في ليلة أحلامك ..كوني سعيدة ياحلوة .. في منتهى السعادة أنا .. سيكون لك بيت يحتويك .. ورجل يحميك .. والحياة أمامك .. في منتهى السعادة أنا ... فلهذا اليوم كنت أعيش .. سعيدة .. لأنني ادخرت عمري حتى لا تدوس أقدام الزمن حيواتكم .. ونجحت .. وداد .. تزوجت .. ولها بيتها . وأنت في الطريق ورشاد بقي له عام .. ويتخرج من كلية الهندسة .. ويواجه الحياة رجلا .. يركع المستقبل تحت قدمية ..

وأنا .. أنا سعيدة » . وكادت الدموع تنبثق من عينها . ولكنها قاومتها .

وأفاقت من خواطرها .. ومفاجأة أختها على الزغاريد تنطلق عاصفة .. واستدارت فوجدت الخطيب خلفها وأسرته .. الام .. وبنتها الطالبة .. وماجد الصغير .. آخر العنقود .. ونهضت صابحة صديقة نهاد المخلصة لتعطى مكانها للعريس بجوار عروسه.. وانطلقت الزغاريد من جديد .. ثم اشتد حماسها ودويها عندما دخل رشاد .. « الباشمهندس » .. رددتها أفواه الأمهات .. ثم انهالت عليه التمنيات .. بالشهادة .. والعروس.. وترقرقت الأحلام نشوانة في عيون البنات . وهن يخالسنه نظرات معجبة بوسامته .. فطنت اليها سعاد !!

« كل واحدة لها أحلامها الا انت يا سعاد .. « الباشمهندس » .. كل عذراء هنا تتمناه .. أعطيته دم قلبك لتقدمينه في النهاية لواحدة أخرى .. تأخذه منك » . انها تعرف ذلك مقدما.. تعرف أنها مجرد صانعة أفراح .. وليست لها أفراح تخصها ..

وقدم العريس « الشبكة » والبس الخطيبة « دبلتها » .. وانطلقت الزغاريد !

ونظرت الى الدبلة في أصبع أختها .. ذات يوم .. كانت في اصبعها هي الأخرى دبلة .. كان لها خطيب .. وارتقت نظرتها الى عين نهاد .. أختها سعيدة بدبلتها في أفراح عينيها الاحساس بأنها دخلت الدنيا ! .. « كوني سعيدة يا عصفورة « دبلتك كأنما في أصبعي أنا » .. !!

ومن خلال الضجة والزحام والزغاريد . تدافعت الذكريات الى مخيلتها ..

كانت صغيرة .. لها أحلام مراهقة تحلق في أجواء فسيحة .. طالبة في مدرسة السنية .. في كل مكان تحاصرها نظرات الاعجاب .. وتنهدات الشبان.. في الاتوبيس .. في الشوارع .. في الحارة .. في كل مكان تلاحقها النظرات المفتونة بجمالها ورشاقتها .. ورغم أن عبارات الغزل كانت تدغدغ بالفرحة روحها .. ظلت تدخر عواطفها .. وتغرقها في المذاكرة .. حتى تتخرج من الجامعة . وتلتقى برجل أحلامها .. وفي يدها شهادة تحفظ عليها كرامتها . وتساعد بها زوجها في معركة الحياة .. ليكون بيتهما سعيدا .. وتجنبه الحياة المكدودة التي يعيشها والدها في كفاحه المرير من أجل أن يقيم أود عائلته . ويدفع لها مصاريف المدرسة ..! أغلقت

قلبها دون أى نداء .. لم تعط شابا حتى ابتسامة ارتياح لعباراته ..

وفى شارعها كانت طلبة الثانوى يدعونها بالمتكبرة . والمغرورة .. والذين يطالعون الروايات منهم .. أسموها . « المعقدة » .. وكانت تبتسم ساخرة فى سرها ! ..

وابتسمت الدنيا فى وجهها .. عندما نالت شهادة التوجيهى بمجموع يتيح لها المجانية فى الجامعة .. ولكنها كانت قد اتخذت قرارها .. سوف تشتغل بشهادتها وتنتسب لكلية الآداب فى نفس الوقت .. لتوفر على والدها الطيب نفقاتها الخاصة .. ومن جهة أخرى لترد له بعض الدين !! ..

وحاول الرجل الطيب أن يقف فى وجه قرارها .. وعدها بأن يحول قطرات دمه الى نقود تفى باحتياجاتها .. ولكنها كانت قد ركبت راسها .. فرضخ الرجل مرغما لعنادها .. وتوظفت بقسم الخامات فى « شركة البلاستيك الأهلية » .. وخطبها أحد المهندسين الجدد .. اجتذبته أخلاقها واستقامتها كما قال لها .. ومانعت فى البداية .. ثم قبلت عندما وعد بأن ينتظرها الى أن تستكمل تعليمها العالى .. ووضع الدبلة فى اصبعها ! ..

وافاقت من خواطرها على صوت أم الخطيب .. تسحبها من يدها .. ثم تطوف معها بالمدعوين تستعرض «الشبكة» التى انتقاها ذوق العريس!..

كانت لها أيضا هى « شبكة » ..

أعادتها لصاحبها .. مات والدها بالذبحة الصدرية .. مات الرجل الطيب المريض .. الذى ينوء كاهله بمطالب أسرته .. ورغم مرضه وشيخوخته .. كان يعود من عمله النهارى فى مصلحة المساحة ليشتغل قاطع تذاكر فى فترة المساء « بسينما الشرابية » . ليجلب اجرا اضافيا يغطى به نفقات البيت .. لم تره يشكو ابدا .. كان يحتمل تعاسة واقعه بلا مرارة .. وخرج الرجل الطيب من الدنيا بدون مسرات لها فيها .. ثم لحقت به زوجته بعد ذلك بشهور ! .. وجدت سعاد نفسها رجل العائلة .. كان هذا نصيبها .. وسارت بالسفينة بين الأعاصير وحدها !

وأعادت الشبكة لصاحبها .. مع الدبلة .. !

تمنت وقتها بلهفة جائعة .. أن يكون الرجل شهما .. ليقول لها « كونى لى ولاخوتك فى نفس الوقت وليكن مرتبك من أجلهما .. لم تكن ستقبل تضحيته مهما حاول .. ولكنها تمنت أن يقول لها ذلك فحسب .. لتشعر أن الدنيا بخير .. وأن فيها من يبدى استعداده للتضحية .. كانت سترفض عرضه قطعا .. فقط تمنت الكلمات .. لتعيش عليها .. لتواجه المصير بها .. ولكنه لم يقلها ! .. أبدى أسفه .. قال انه كان يتمناها زوجة.. ولكنه يريد سيدة بيت تتفرغ له ولأولادها .. وظروفها هى ترغمها على العمل من أجل اخوتها !!

نسى الرجل أنه اتفق معها من قبل على أن تظل فى العمل بعد الزواج

لتضيف مرتبها الى مرتبه ليمكنهما توفير حياة طيبة لأولادهما .. نسى ذلك .. انها لا تحقد عليه .. لا تلومه .. ولكنها كانت تتمنى الكلمات .. !!

وماتت أحلامها فى الجامعة .. انقطعت عن مواصلة الانتساب .. لم يعد لديها وقت للمذاكرة .. ونسخ المحاضرات .. كانت تعود من الشغل لتنكب على احتياجات اخوتها . المطبخ . والغسيل . والمشاجرات . ومشاكل الطفولة .. اصبحت الأب . والأم . والمربية وأخيرا ·· هاهى الآن عانس فى الخامسة والثلاثين .. وحيدة .. بلا أفراح تخصها ! ..

وانفض حفل الخطوبة ·· استأذن العريس وعائلته .. وانصرف بعده بقية المدعوين ·· ثم خالتها حميده ·· ووداد مع زوجها .. وارتدى رشاد منامته وذهب الى فراشه .. ونفت سعاد ثوبها الجديد وساعدت نهاد فى خلع فستان الخطوبة ·· وقبلتها ثم أطفأت النور .. وتمددت على السرير بجوارها .. وعادت الخواطر تجرف كيانها .. وسرعان ما وجدت نهاد بجوارها قد غرقت تماما فى نومها .. وامتدت يدها تداعب خصلات شعرها .. « نامى يا حلوة » .. وانحنت تقبل خدها .. ثم امسكت يدها تتحسس الدبلة فى اصبعها .. ولثمتها ! .. ثم أسدلت « اللحاف » على وجه الصغيرة وانسابت مع ذكرياتها .. !

والدها العجوز .. المشروخ الصدر .. كم كان يعبدها .. ونزهاتها معه وهى طفلة على شاطىء النيل ·· وفى حديقة الحيوان .. وحواديته لها عن سفح الهرم .. وشقاوتها وهى تجرى هناك .. وتقذف أنف أبى الهول بالحصى والرمال !!

أطبق على قلبها الانقباض ·· مات الرجل الحنون الطيب والأسى يترع قلبه .. مات ونظرة الأسى فى عينيه .. لأنه ترك للدنيا «كتاكيتا بلا أجنحة ·· »

وانبرت لها من بين الذكريات المتداعية صورة أمها .. يوجهها الباشا . وطرحتها البيضاء .. وتوهمتها تدنو من فراشها فى الظلام .. ومدت يدها بحركة تلقائية .. ولكنها قبضت على الفراغ .. ووجدت نفسها تهمس لها .. « قولى لأبى يا ماما سعاد قامت بالمهمة .. لكتاكيته الآن أجنحة ! .. عام واحد يا أمى ويعدو رشاد مهندسا .. ووداد يا أمى زوجة هانئة .. أم ثلاثة أطفال كالملائكة .. ونهاد فى أصبعها دبلة .. وشهادة من معهد المعلمات !! » .

وانخرطت تبكى .. كل هذا صنعته هى .. على حساب شبابها .. قاومت أنوثتها .. واختلاجات الربيع فى قلبها .. كل فتاة مثلها .. كانت تحلم بقبلات حبيب .. بأحضان رجل بمناغاة طفل تنسجه من أحشائها .. الا هى مضت وحيدة .. لا هدف لها الا أن تصنع للكتاكيت أجنحة .. مضت وعلى كاهلها التبعة .. وهى تحاول أن تبدو جامدة كالصخر .. متجهمة دائما كالراهبات . حتى لا تعطى الفرصة لانسان كى يتمناها ! ..

منذ عشر سنوات تماما .. كان أحد طلبة الجامعة يقطن فى مواجهة نافذتها .. دائما كان يعاكسها .. ينتظرها عند محطة الاوتوبيس فى الصباح وهى ذاهبة الى عملها .. ويترقبها وهى عائدة ..

لبيثها عبارات الوله .. والغـرام ..
ويناشدها أن تستجيب لعاطفتـه ..
وترحم سهادة .. كان يقول لها همسا
بأنه لا يستطيع الحياة بدونها .. وأنه
على استعداد لأن يقدم لها أى تضحية
تطلبها تأكيدا لحبه .. ولكنها دائمـا
تمضى بدون أن تلتفت اليـه .. كأنما
كلماته لانسانة غير موجودة !!

وكانت تتعذب .. كلمـاته المترعة
عذوبة وحنانا .. وشعرا .. كم اذابت
قلبها .. بدون أن تعطى قسمات وجهها
اى تعبير يمشى بنشوة روحها لكلماته .
وفرحة قلبها برؤياه .

وذات صباح اقترب منهـا .. ثم
اندفعت كلماته .. حانقة .. ثائرة ..
يائسة :

« أنت .. انسـانة بلا قلب ..
بلا عاطفة .. انا حزين لأننى احببتك
لم أكن أعتقد أن توجد فتاة متعجرفة .
ومتكبرة .. ومعقدة الى هذا المدى ..
حزين .. أنا . ومن أجلك ايضا .. »
قال كلماته بسرعة لاهثة .. ومضى ! ..

متكبرة هى .. ومعقدة ! ..

تمنت لحظتها لو كانت تستطيع أن
تجرى خلفه .. لتقول له ان كلمـاته
اجمل شىء فى حياتها .. وانها الشعاع
الوحيد الذى يضىء بينظلمات واقعها..
ولكنها لا تستطيع .. لا تسـتطيع
لا لأنها متكبرة ومعقدة .. بل لأنهـا
غير البنات .. لأنها رجل عائلة .. وانه
غريب فى الحارة ولا يعرف ظروفها .. !

وكف بعد ذلك عن التصدى لها ..
ثم عاد الى بلدته فى الأجازة الصيفية ..
ولم تعد تراه بعد ذلك فى الحـارة ..
اختفى من حياتها .. انها الآن مستعدة
أن تدفع بقية عمرها فى سبيل أن تراه
مرة واحدة .. أن تراه من بعيد .. ربما
يكون الآن فى مكان ما من هذا العالم فى
أحضان زوجه طيبة .. تسكب انوثتها
وحنانها دفئا لشبابه .. أما هى فعانس
فى الخامسة والثلاثين .. وحيدة مع
وسادتها .. وحيدة . والشعر الأبيض
يقتحم راسها .. وحيدة فى النهاية ..
وربما ينسـون تضحية العـانس
العجوز . وازدادت دموعها انهمارا وهى
تتخيل شيخوختها .. وحيـدة ..
بلا شىء يدفىء حياتها ويعطى الطعـم
لأيامها . بدون كتاكيت تصنع لهـا
أجنحة ! ..

اعتدلت نهاد وهى نائمة على جنبها
الأيسر وأعطتها ظهرها .. لأول مرة تنام
الصغيرة وصدرها ليس فى أحضـان
أختهـا .. اكتفت الليلة بأحضـان
عريسها .. فى الاحلام ..

« نامى يا حلوة .. هانئة » ووجدت
نفسـها تبحث عن يد أختهـا .. ثم
تتحسس الدبلة فى أصـبعها . وقد
أشرقت من ظلام خواطرها رؤيا أشعت
تثلج قلبهـا .. ثم انسابت وانتشرت
تضىء كل أحاسيسـها .. فتركت يد
اختها وأسدلت الغطاء على وجهها .
واغمضت عينيها على منظر خالتهـا
حميدة.. تندفع الىالصالة بعاصفتها..
ثم تنطلق فى أرجاء البيت زغاريدها !!

كشف القناع

متولي

للكاتبة القصصية كاترين مانسفيلد
١٨٨٨ - ١٩٢٣
ترجمة الدكتور زاخر غبريال

أيمكن أن تتسلل الكآبة الى عين انسان من بين نسمات هذا الصباح المشرق الجميل ؟؟ كل عين - هكذا سبح الخيال بادنا - تشرق بالبهجة ماعدا عينيها ، وانفرجت أمام ناظريها نوافذ كل بيت فى المدينة عن آخرها ، وتهادى اليها من كل نافذة غناء أوتار قيثارة ، وامتدت الأيدى تتعانق ، ثم ينفرط عقدها ، واهتزت أشجار الحدائق تحت أشعة الشمس الدافئة ، تشدى بأزهار الربيع ، وتهامس الصغار فى الشوارع صغيرا ، وتردد فى الأفق نباح الكلاب ، بينما الناس يروحون ويغدون ... خطى سريعة خفيفة . يخيل للرائى ، أنها بعد لحظات تنطلق قفزا وعدوا .

ربما لم يكن فى ذلك الوقت انسان فى الوجود يحمل هما ، حتى **ادنا** نفسها ، لم تكن تعسة الى الدرجة التى كانت تشعر بها ، **وهل من السهل على المرء أن يشعر بالتعاسة ، وهو لم يتجاوز من العمر ثمانية عشر ربيعا ؟** وعلى الأخص اذا كان فى مثل ما حظيت به **ادنا** من جمال ، وما انطلق فى خديها وشفتيها وعينيها من صحة وشباب ونضارة !! يزينها جميعا جلباب أزرق فرنسى الطراز ، سارت تخطر فيه ، وقبعة تتوهج بزهور العنبر ، ولم يكن ليقلل من تلك البهجة التى لفتها بغلالة مشرقة ، ما انبعث من كآبة من كتاب حملته فى يدها ، يضمه ضفتان سوداوان من الجلد ، فقد كانت هذه الكآبة وليدة الصدفة ليس الا ، لقد كانت ضفتاه من صنع مكتبة الجامعة ، التى اتخذت منها ادنا مبررا للخروج من المنزل ، لتفكر مليا فى حياتها ، وتتدبر موقفها وتحزم رأيها على أمر ما .

وفجأة ودون سابق انذار ، حدث للأسف ما لم يكن فى الحسبان ، فبينما هى جالسة فى المسرح ، جنبا الى جنب مع **جيمى** ، وقد مدت اليه يدها بعلبة حلوى ، ليأخذ منها مايشاء ، بعد أن التهمت هى قطعة منها ، فى هذه اللحظة الحاسمة ، خفق قلبها بحب أحد الممثلين ، لقد خفق قلبها بحب .

شعور لم تكن لتحلم به من قبل ،

ولم يكن شعورا لذيذا ، ولم يكن شعورا يبعث فى القلب نشوة ، الا اذا راق لنا أن نعتبر الحب بلا رجاء واليأس والمرارة والتعاسة ، من أحاسيس النشوة ، ثم هاهو ذا شعور آخر قد أخذ يدب فى قلبها ... لو أن ذلك الممثل قابلها على قارعة الطريق ، فى الوقت الذى يبحث فيه جيمى عن عربة تقلهما الى منزلهما ، فانها لن تتردد ، عند أول اشارة أو ايماءة منه ، فى أن تتبعه ، ودون أن تلقى بالا الى جيمى أو أبيها أو أمها أو حياتها العائلية السعيدة وأصدقائها الكثيرين ، لن تتردد فى أن تتبعه الى أية بقعة من بقاع الارض .

لقد بدأت التمثيلية بداية طيبة ، يشيع فيها المرح والبهجة ، كان ذلك فى الفترة التى تناولت فيها قطعة الحلوى ، ثم أصيب البطل بفقد بصره ، فكانت لحظة رهيبة !! بكت ادنا كثيرا ، واستعانت بمنديل جيمى لتهدئة مشاعرها ، لا لأنها كانت تخشى البكاء ، فالجميع من حولها يجهشون بالبكاء ، حتى الرجال منهم ، أخذت أنوفهم ترسل – لفرط البكاء – صفيرا مزعجا ، وهم يحاولون اخفاء عيونهم وراء أيديهم ، بدل أن يتطلعوا بها الى مايجرى على المسرح ، وأما جيمىفلم تكتمل – لحسن الحظ – عيناه بدمع ، مما جعل من السهل عليه أن يعيرها منديله ، وقد أخذ يضغط على يدها ، وهو يهمس لها « خففى عنك يا عزيزتى » ، وفى تلك اللحظة تناولت – ارضاء له – آخر قطعة من الحلوى ، ثم ناولته العلبة مرة أخرى ، ومرت لحظات مروعة ، ظهر فيها البطل وحيدا على المسرح فى وقت الغسق فى غرفة خاوية ، بينما كانت فرقة موسيقية تعزف خارجها ألحانا شجية ، ومن الشارع كانت تسمع عبارات الاعجاب بألحانها ، لقد استطاع البطل بعد جهد جهيد ، أن يجد الطريق الى النافدة ، ثم وقف ويداه ممسكتان بالستارة ، بينما انسكب شعاع ، شعاع واحد ، انسكب فى اشراقة على وجهه ، وقد بدا فاقد البصر ، بينما أخذ صوت الموسيقى يتلاشى شيئا فشيئا ، وهو يتباعد عن المكان .

لقد كان ذلك – حقا ... لقد كان قطعا – أوه ، لقد كان أعظم – **كان مجرد** – لقد بدأت ادنا تدرك حقا منذ تلك اللحظة ، أن الحياة لا يمكن أن تسير على نمط واحد ، سحبت يدها من بين يدى جيمى ، ثم أسندت رأسها الى الوراء ، وأقفلت – الى الأبد – علبة الحلوى ، كان ذلك معناه أن الحب قد فتح – آخر الأمر – باب قلبها .

لقد ظلت ادنا وجيمى خطيبين لمدة عام ، ولكنهما كانا يعلمان أنهما سيصبحان ، فى يوم من الأيام ، زوجين منذ أن **وطئت** أقدامهما أرض الحدائق ، وهما لما يزالا برعمين صغيرين ، تحت رعاية مربيتهما ، يتوسدان العشب ويأكلان الحلوى معا ، ولقد عرف الجميع ذلك ، ولذ لادنا أن تطوق أصبعها طول حياتهما المدرسية بخاتم يبدو كأنه خاتم خطوبة ، وظل كل منهما وفيا للآخر حتى هذه اللحظة .

كل ذلك أصبح الآن عند ادنا فى عداد الذكريات ، ولكن جيمى لم يساوره نفس الشعور ، الأمر الذى أذهل ادنا ، وانفرجت شفتاها عن ابتسامة حزينة ، حين عرجت على حدائق دير « القلب المقدس » ، وساقتها قدماها الى

طريق يتوسطها ، ألم يكن من الأفضل لجيمي أن يعرف ذلك الآن بدل أن يعرفه بعد الزواج ، فقد يمكنه الآن أن يجتاز هذه المحنة ... لا ... لا داعي للخداع ... لن يمكنه أن يجتازها ... ان حياته لا شك حطام ، ولكنه كان شابا ، هكذا يقول النـــاس ... هكذا يقول الزمن ... ربما يستطيع الزمن أن يفعل شيئا ، ولكن ذلك لن يكون الا ضعيفا ... ربما في المستقبل ، حـين يحث الزمن به الخطى ، فيطوى من العـمر أربعين عاما ، ربما يمكنه أن ينظر للأمر نظرة متزنة هادئة ، وأما هي ... فماذا يخبىء لها المستقبل في ثناياه ؟؟

وصلت ادنا الآن الى نهاية الطريق ، وهناك تحت شجرة بدأت بعض أوراقها الخضراء تشق طريقها الى الحياة ، وتدلى من فروعها بعض باقات صغيرة من زهور بيضاء ، هناك أخذت لهـا مكانا فوق مقعد صغير ، ثم أخذت تسرح الطرف الى الدير ، واستهواها منظر الحمام يداعب بعضه بعضا ، بينما استطاعت أذناها أن تتصيدا آهات راهبة من راهبات الدير ، وهي تقوم بدرس في الغناء : «يا اسفاه» قالت الأخت أجنس ، ثم أخذت آهتها تتردد بين جنبات الدير .

اذا لم تتزوج ادنا بجيمي فلن تتزوج أبدا ، أما ذلك الرجل الذى خفق قلبها بحبه ، ذلك الممثل الذائع الصيت ، فقد أدركت ادنا بفطنتها أنه لن يكون لها ، شعور غريب ، فلم تكن هي نفسها راغبة في ذلك ، لقد كان حبهـــا أقـوى من الزواج ، وكان عليهـــا أن تخوضه في صمت ... كان عليهـــا أن تتعذب ، هكذا صور لها الخيال .

« ولكن ... ألا يمكن يا ادنا » هكذا صاح جيمي ، ألا يمكن أن تعد لى ... أما من أمل ؟؟ » .

أى ألم كان يعتصر قلبها حين وجدت نفسها وجها لوجه أمام الواقع ، لقد كان عليها أن تقولهـــا صريحة ، أن تقول « لا » .

وأحنت ادنا رأسها ، وسقطت فوق حجرها زهرة صغيرة ، وسمعت صوت الأخت أجنس تقول « أواه ... كلا » وترددت أصداء الآهة بين جنبات الدير .

في تلك اللحظة انكشف القنـاع عن المستقبل أمامها ، مثل كل شيء أمـام عينيها ... أذهلتها المفاجأة ... أخذت أنفاسها تضطرب ... ولكن لم ؟؟ أى غبار على ذلك ؟ سوف تدخل الدير ... لقد بذل والداها ما بذلا ليقصياها عنه ، وجيمي لا يطيق مجرد التفكير في ذلك ، لم لا يســتطيع أحد أن يفهمها ؟؟ لم يتسجون من حولها الآلام؟؟ يا للقسوة!! القسوه الصـــارخة !! لابد أن تدخل الدير ، بعد أن ينزل الستار على المشهد الأخير ، بعد أن تتخلص من جواهرها وكل ما ملكت يداها ، تلقى بها جميعا الى أصدقائها ، ولكن رويدا... سيشهد ميناء «ولن» آخر أمسيته في المشهد . عندما تهم الى الدير ، سوف تبعث اليه بشخص غريب ، يحمـل صندوقا مليئا بأزهار بيضاء بلا بطاقة ، بلا اسـم ، لا شيء غير آخر صورة لادنا ، تلفهـــا بمنديل أبيض ، وتكتب أسفلها :

نفضت يدى من العالم ونفض العالم يده منى » .

أخذت ادنا مكانها تحت الاشجار ، وقد أطبق الصمت عليها ، بينما راحت

تطبق بأصابعها على الكتاب الأسود كأنه كتاب صلواتها ، أجل ... ستختار لها اسم الأخت أنجيلا ، وها هو شعرها الجميل ، يقص خصلة خصلة ، وجيمى ترى هل نجد السبيل الى ارسال باقة منه اليه ؟؟ غدا سوف نسير الأخت أنجيلا فى عباءة زرقاء من الدير الى المعبد ، ومن المعبد الى الدير ، يعصب رأسها شريط أبيض ، ويختلج فى نظراتها بريق عجيب ، لا يمت الى عالم أرضنا ... بريق فى عينيها الحزينتين ، بريق ابتسامة تحيى بها الاطفال الصغار حين يهرعون اليها ... قديسة !! ستتجاوب أصداء هذه الكلمة حواليها ، وهى تذرع الدهاليز التى انتشرت فيها رائحة الشمع ... قديسة !! وسوف ينصت الزائرون الى القصص التى تحكى عن الراهبة التى يعبق صوتها محلقا فوق ماعداه من الأصوات ، سوف ينصتون الى قصص تحكى عن جمالها ، شبابها ، مأساة حبها : « هنا ... فى هذه المدينة يعيش رجل ذهبت حياته حطاما ... »

تسللت نحلة كبيرة ، خضبتها الطبيعة بلون ذهبى ، الى نرجسة ... انثنت تلك الزهرة الرقيقة ... أخذت تتمايل ... انتفضت ... وحين ودعتها النحلة وحلقت بعيدا ، تمايلت الزهرة رغم ذلك ، كأنها نشوى ... يا للزهرة السعيدة ... لا تحمل هما !!

نظرت اليها الأخت أنجيلا ، ثم قالت : « لقد أقبل الشتاء » وها هى تسمع ذات أمسية ، وهى مضطجعة فى مقصورتها المقرورة ، صرخة ... ربما صعدها حيوان ضل سبيله ، فأخذ يتخبط فى الحديقة ... ربما كان قطاة أو حملا أو شيئا من هذا القبيل ، تهب الراهبة الأرقة من فراشها ، فى ثياب بيضاء ، ترتعش ولكنها غير وجلة ... تذهب الى الحديقة ، وتأتى بهذا الشىء ، ولكن فى الصباح التالى ، حين يدق الجرس مؤذنا بصلاة الصباح ... اذا بالراهبة تصارع - وهى فاقدة الرشد - حمى عاتية ، لم تستطع أن تفيق منها ، وانتهى كل شىء فى ثلاثة أيام ... انتهت الطقوس فى المعبد ، ودفنت فى ركن قصى من مدفنة خصصت للراهبات ، فلترقد الأخت أنجيلا فى سلام !!

حل المساء ، ها هما اثنان من الناس يتساندان وهما يتقدمان ببطء الى القبر ، ويجثوان أمامه ، ثم يتأوهان : « ابنتنا ... وحيدتنا » ثم ها هو آخر يقبل ، وقد اتشح بثياب سوداء ، فى خطوات بطيئة ، وما أن يصل الى القبر ويرفع قبعته السوداء ، حتى ترى ادنا - ويالهول ما ترى - شعره وقد وخطه المشيب ... أتت جيمى !! لقد سبق السيف العزل ... سبق السيف العزل ، ها هى الريح تعبث بالأشجار العارية فى فناء المعبد ، بينما أخذت تنطلق منه صرخة مريرة مروعة .

سقط كتاب ادنا محدثا صوتا عندما ارتطم بالارض ، فهبت من مكانها مذعورة ، وقلبها يدق كالمطرقة بين صدرها ... أوه ياعزيزى ... لا ... لم يسبق السيف العزل ، مازال الأمل بكرا ، والأمر لا يعدو أن يكون مجرد خطأ ... حلم مزعج ما أبشع ذلك



الشعر الأبيض ! !أيمكن أن تكون قد ارتكبت هذه الحماقة ؟؟ لا ٠٠٠ لم تفعل ، سبحانك ربى ٠٠٠ يا للسعادة الفياضة ، انها الآن حرة طليقة ٠٠٠ فى ريعان الشباب ٠٠ وليس فى الكون من يعرف شيئا عن ذلك السر ، ولازالت فى العمر فسحة لها ولجيمى ، البيت الذى كانا يحلمان به ، يمكنهما الآن أن يبنياه ، وذلك الصبى الصغير وقف ـ وقد شد يديه وراء ظهره ـ يراقبهما وهما يزرعان الورود ، لازال ذلك الصبى أملا لم يمت، وأخته الصغيرة ، ٠٠٠ وعندما وصلت الى أخته الصغيرة ، مدت يديها فى الفضاء ، كأنما تراءى لها أن الطفلة الصغيرة ، قادمة اليها على جنح الأثير ، ثم خذت تسرح الطرف الى الحديقة ، الى أغصان الأشجار ، الى تلك الحمائم ٠٠٠ زرقاء تسبح فى سماء زرقاء ، والدير بنوافذه الضيقة ، أدركت الآن أخيرا ولأول مرة فى حياتها ـ فلم يغمرها مثل هذا الشعور من قبل ـ أدركت ما معنى أن يخفق قلب بحب ٠٠٠ بحب !!

الملح

قصة : مكسيم جوركى

ترجمة : محمد عبد اللطيف حجازى

« يا رفيقى .. اذهب الى الملاحات .. هناك يستطيع الانسان دائما أن يجد له عملا ، لأنه عمل شاق لعين لا يمكن لأحد أن يصمد فيه طويلا .. كلهم يفرون .. يمكنك أن تجرب حظك هناك ليوم أو اثنين .. سيدفعون لك حوالى سبعة كوبك مقابل نقل عربة اليد الواحدة ، وهو مبلغ يكفى لأن تعيش عليه يوما كاملا .. » .

وسكت محدثى الصياد ، أحب هذه النصيحة ، ثم بصق على الأرض ورفع بصره الى الأفق حيث تلتقى زرقة السماء بزرقة البحر وأخذ يدندن لنفسه لحنا كئيبا .

كنت جالسا الى جواره فى ظل كوخ للصيد ، أنا أفكر ، وهو يصلح سروالا له من القطن السميك .. يتثاءب .. ويتمتم بملاحظات عابسة غير متصلة عن ندرة الأعمال التى يمكن للانسان أن يزاولها فى الوقت الحاضر ، وكيف أن « البحث عن عمل يحتاج الكثير من العمل » .. واستطرد محدثى :

ـ وحينما تمل هذا العمل ، يمكنك العودة الى هنا لتستريح وتحدثنا بما شاهدت .. ليس المكان بعيدا عن هنا .. خمسة « فرست » فقط .. ايه .. كم هى غريبة هذه الحياة ! ..

واستأذنت شاكرا لمحدثى نصيحته ثم بدأت رحلتى الى الملاحات . كان يوما من أيام شهر أغسطس . الجو حار ، والسماء صافية براقة ، والبحر هادىء ساكن تجرى موجاته الزرقاء متتابعة لتنساب على رمال الشاطىء محدثة طرطشة ضعيفة يبعث صوتها فى النفس الحزن والأسف . استمر سيرى بحذاء الشاطىء الى أن استطعت أن أميز على البعد مساحات بيضاء غير محددة فوق الرمال الصفراء .. انها مدينة « أوخاكوف » .. ونظرت خلفى فلم أجد أثرا لكوخ الصيد الذى اختفى وراء كثبان الرمال الصفراء البراقة التى انعكس عليها ظل باهت من زرقة البحر

الزبرجدية . لقد أمضيت ليلتى فى هذاالكوخ أستمع الى عشرات القصص والآراء الغريبة فجعلنى ذلك فى حالةمعنوية سيئة . كان صوت الأمواج الحزين متمشيا مع مشاعرى فزاد منحدتها .

وسرعان ما أصبحت الملاحات فى مدىالرؤية . كانت مكونة من ثلاثة شرائح من الأرض تبلغ مساحة الشريحة منهاحوالى ربعمائة متر مربع ، يفصلها عن بعضها نطاق من الجسور المنخفضةوالخنادق الضيقة وهى فى مجموعها تمثل المراحل الثلاثة لاستخراج الملح .الشريحة الأولى تغمرها مياه البحر والتى تتبخر تاركة على سطح الأرضطبقة من الملح ذات لون رمادى باهت تشوبه مسحة خفيفة مناللونالقرنفلى.وفى الشريحة الثانية رأيت الملح يجمع فى أكوام ، ويقوم بهذا العمل عددالنسوة تمسك الواحدة منهن جاروفا بيدها وتقف مغروسة فى الطين حتىركبتيها . كن يعملن فى صمت لا تكلم الواحدة منهن الأخرى أو تنادى عليها. كانت هياكلهن السوداء الرمادية تتحرك



فى اعياء شديد دون توقف فوق«الراب»والراب هذا طين براق غليظ القوام ، كاو شديد الملوحة . وفى الشريحة الثالثةكان الرجال يقومون بنقل الملح فى عربات اليد . تنحنى أجسادهم فوق العرباتوكأنما قد ثنى الواحد منهم الى نصفين، يجرون أقدامهم بطريقة آلية ، ويدفعونالعربات فىصمت ، بينما عجلاتالعربات فى احتكاكها وصريرها كأنما توجهنداءات الى السماء ينطلق حزينا من هذا الصف الطويل من الظهور الآدميةالعارية ، والسماء تصب نارا حامية تلفح مساحات الأرض الرمادية ،المبرقشة بأعشاب المياه الملحة وبلورات الملح البراقة .. ويعلو فوق صريرالعربات صوت « مقدم العمال » الذى يقف فوق كومة الملح يصب لعناته علىالرجال الذين يفرغون عرباتهم تحت قدميه . ويصب الماء فوق الملح منجردلفى يده ثم يقوم بتشكيله فى هيئة هرم مستطيل.. كان طويلا ، أسودا كافريقىويلبس قميصا أزرقا وسروالا طويلا

أبيضا ، يحرك جاروفه فى الهـواء ، ويصيح بأعلى صوته على الرجال الذين يدفعون العربات فوق الجسر الخشبى .

وسمعت صوته من بعيد « فرغها على اليسار .. الى اليسار أيها الشيطان .. عليك اللعنة .. انك تستحق خـزق عينيك .. الى أين تتجه أيها العقرب ؟ »

ثم أخذ يمسح عرق وجهه بطرف ثوبه ويسوى الملح بضربات قوية بظهر جاروفه محدثا صـوتا عميقا خشـنـا كصوت الخنزير دون أن يكف لحظة عن صب لعناته ، والرجال يدفعون عرباتهم بطريقة آلية ثم يفرغونها طبقا لتعليماته « الى اليمين .. الى اليسار .. » ، وحينما ينتهى ذلك يرفعون ظهورهم بصعوبة ثم يعودون أدراجهم لحمل جديد ، خطواتهم قلقة مضـطربة فـوق ألواح الجسر الخشبى المهتزة التى تغـوص تحت أقدامهم فى الطين الأسود الغليظ ، يدفعون عرباتهم الفارغة التى أصبح صريرها أقل جلبة لكنه أكثر تعبـا وضجرا . ويصيح عليهم « المقدم » :

— ضعوا فيها قليلا من الفلفل ! .. أيها اللقطاء ! ..

ويـسـتـمر العمال فى عملهم بنفس الصمت الذليل ، لكن وجوههم المكدودة العابسـة التى لطخها التراب والعرق كانت تقلصاتها تكشف أحيانا عما يعتمل فى نفوسهم من غضب واستياء . وقد يحدث أحيانا أن تنحرف احدى العربات فتسـقط من على الجسر وتغوص فى الطين ، فينقطع بذلك صف العربات الطويل اذ تستمر العربات الامامية فى طريقها بينما تتوقف الخلفية وتتوقف معها خطوات الرجال فى أسمالهم الممزقة وأجسادهم الملطخة ينظرون بلا أكتراث الى زميلهم الذى يجاهد وحده لرفع العربة المحملة ذات الستة عشر « بود » لكى يعيدها فوق الجسر الخشبى .

كانت السماء صافية والشمس من خلالها تصب نارها على الأرض فى اصرار شديد واهتمام بالغ وكأنما كان عليهـا أن تثبت فى ذلك اليوم دون غيره مدى تفانيها واخلاصها فى أداء رسالتها .. وحينما انتهيت من تأملى واستغراقى فى استيعاب كل هذه الامور ، حزمت أمرى وبدأت محاولتى للحصول على عمل . اضفيت على نفسى مظهرا مصطنعـا من عدم الاكتراث واللامبالاة ثم مشيت بخطى ثابتة نحو الجسر الخشبى الذى يسير عليه العمـال . كانوا عائدين يدفعون أمامهم عرباتهم الفارغة فناديت عليهم :

— صباح الخير أيهـا الرفاق .. طاب يومكم ..

وكان ردهم عـلى غـير ما توقعت تماما .. كان أولهم رجلا عجـوزا ذا شعر رمادى ، قد ثنى سرواله حتى ركبتيـه وطوى أكمامه حتى كتفيـه كاشفا عن جسده البرونزى وعضلاته المفتولة .. لم يسمعنى .. فمضى أمامى دون ان يعيرنى التفاتا .. وكان الثـانى شابا ذا شعر بنى وعيون زرقاء .. القى على نظرة عداء وقلب وجهه ثم اطلق قذفة سباب تناسـب المقـام ! ..

أما الثالث فقد بدا انه يونانى ، اذ انه كان بنى اللون كالخنفسة ذا شـعـر مجعد .. وقد عبر عن اسفه لأن يداه مشغولتان بحيث لا يستطيع أن يقوم

بعقد التعارف اللازم بين أنفي وقبضة يده .. قال ذلك بلهجـة هادئة دون ما انفعال بحيث فقدت لهجته التناسب اللازم مع صدق رغبته ! .. وصـاح الرابع بكل ما أسعفته به رئتاه من قوة « مرحى .. يا ذا العيون الزجاجية » .. ثم حاول ركلى بقدمه ! ..

اذا لم يجانبنى الصواب ، فان هذا الاستقبال يسمى فى المجتمعات المهذبة « استقبال فاتر » ، لكننى لا اذكر اننى اقد حظيت قط بمثله على هذه الصورة المذهلة .. وفى غمرة شعورى بالمهانة وخيبة الأمل ، مددت يدى بطريقـة لا شعورية وخلعت نظارتى ثم وضعتها فى جيبى .. واتجهت الى « المقدم » لأسأله عما اذا كان لديه عمل لى ، لكننى قبل أن أصل اليه بادرنى صائحـا فى اتجاهى :

ــ انت يا هذا ! .. ماذا تريد ؟ .. تريد عملا ؟

فأجبته بالايجاب ..

ــ هل اشتغلت قبلا على عربة يد ؟

وأجبته بأننى كنت أعمـل فى نقـل القمامة ..

ــ القمامة ؟ .. هذا لا يفيـدنا .. القمامة موضـوع آخر .. نحن ننقل الملح هنا ، وليس القمامة .. يمكنك الذهاب الى الشـيطان والبقـاء الى جوار .. هنـا .. هنـا .. يا « ذا العظام الجيدة » .. ضع حملك هنـا عند قدمى .

كان « ذو العظام الجيدة » هذا كتلة هرقلية له شارب طويل وانف أحمر متورم . قلب عربته مصدرا صـوتا خشنا كصوت الخنزير ، واخذ الملح يهيل من العربة بينما « ذو العظام » يسب و « المقدم » يبادله السـباب بصوت أعلى ثم ابتسم كل منهما للآخر فى تفاهم تام وهما يتجهان نحوى . قال « المقـدم » .. « حسـنا .. ماذا تريد ؟ .. وتبعه ذو العظام قائلا .. » ربما جئت فى طلب بعض الملح لنصنع الفطائر .. » .. ثم غمز بعينه للمقدم .

واخذت استعطف المقدم واتوسل اليه مؤكدا له اننى سوف أعتاد العمل بأسرع ما يمكن بحيث اتسـاوى مـع الآخرين فى وقت قصير .

ــ سوف ينقصم ظهرك قبل ان تعتاد هذا العمل .. ولكن .. ما شأنى أنا .. فلتعمل .. لكننى لن أدفع لك أكثر من خمسين « كوبك » فى يومك الأول .. انت يا هذا ! .. اعطه عربة .

وخرج ــ من حيث لا أدرى ــ صبى نصف عار ، يلف على ساقيه العاريتين خرقا متسخة تصل حتى ركبتيه . ألقى الصبى على نظرة شك متفحصة ثم قال « هيا معى .. » .. وتبعته الى مكان تكدست فيـه العربات فوق بعضها . فأخذت افحصها لأختـار أخفها وزنا ، بينما وقف الغلام يهرش ساقيه ويرقبنى فى صمت الى أن انتهيت من الاختيار فقال لى :

ــ انظر ماذا أخذت ! .. الا تستطيع أن تميز كيف أن عجلتها معوجة ؟ ! ..

ثم سار الصبى مبتعدا عنى قليلا وتمدد على الأرض ..

أخذت عربة أخرى وأسرعت بهـا حتى لحقت بالرجال الذاهبين لاحضـار الملح .. لم استطع الحديث معهم فقد غمرنى شعور غامض بالحزن والضيق ..

كانت وجوهم كلها تنضح قلقا وارهاقا واضحا يجاهدون حتى يظل خافيا .. كانوا متعبين ثائرين .. ثائرين على الشمس التى تلسع جلدهم بلا رحمة .. ثائرين على الواح الخشب التى تغوص تحت عرباتهم .. ثائرين على «الراب» .. ذلك السائل الغليظ المالح المليء بالبلورات الحادة المدببة التى تمزق اقدامهم ثم تأكل فى الجروح بحيث تصبح اقدامهم فى النهاية كتلة من الآلام المتحركة .. كانوا باختصار ثائرين على كل ما حولهم .. وكان هذا الحنق جليا حيث يمكن ملاحظته من خلال النظرات الواضحة التى يختلسها كل منهم نحو الآخر .. وخلال اللعنات التى تنطلق من حلوقهم الجافة من آن لآخر .

لم يعرنى أحدهم التفاتا .. لكننا حينما دخلنا شريحة الأرض وبدأنا السير على الجسر الخشبى فى اتجاه أكوام الملح الأربعة ، شعرت بضربة فجائية على ظهر ساقى فلما أن استدرت حتى اندفع شخص فى وجهى قائلا .. « ارفع قدمك وتحرك ايها الثقيل ! » فاسرعت برفع قدمى ..

ووضعت عربتى بداءت أجرف الملح لأملأها . وامرنى هرقل أوكرانى كان يقف الى جوارى : —

« املأها تماما .. » .. فملأت العربة على قدر استطاعتى .. عندئذ صاح الرفاق خلفى للرفاق أمامى .. « تحركوا .. » فأخذ هؤلاء الأماميون يبصقون فى أيديهم ثم يرفعون عرباتهم بحشرجة عالية وينحنون بشدة ويمطون اجسادهم للأمام ويمدون رقابهم وكأنما ذلك يخفف من ثقل احمالهم .. أخذت أقلدهم فانحنيت على قدر استطاعتى ومددت جسدى للأمام ثم رفعت العربة فصرت عجلتها صريرا عاليا ، وشعرت بترقوتى توشك أن تنكسر بينما اخذت عضلات ساعدى ترتعش من فرط اجهادها . وخطوت خطوة متعثرة .. فاخرى .. ثم أخذت انحرف تارة الى اليمين وتارة الى الشمال واهتز متعثرا للأمام .. وافلتت عجلة العربة من على الجسر الخشبى فاندفعت فى الهواء وسقطت على وجهى فى الوحل الساخن الغليظ .. واصابنى من يد العربة ضربة على أم رأسى قصد منها اصلاحى واهدائى الى سواء السبيل ! ثم اخذت العربة تنقلب ببطء رأسا على عقب .. وشعرت بالضحكات وصيحات التهكم والاستهزاء وكأنما تضغط على رأسى ليغوص وجهى أكثر وأكثر فى الوحل .. وشعرت بآلام حادة فى صدرى وأنا أحاول رفع العربة المغمورة .. صحت منادياً الأوكرانى الذى كان واقفا الى جانبى « ساعدنى أيها الصديق » .. لكنه كان مغرقا فى الضحك واضعا يداه فى وسطه — يتمايل الى الأمام والخلف ، لا يكاد يتمالك نفسه .. أجابنى قائلا :

— انت أيها اللقيط ! . يا آكل الطين ! .. هل نزلت تخوض فى الوحل ؟! .. أعد العربة الى الجسر . اضغط على الجانب الأيسر .. تك .. تك .. سوف تغوص فى « الراب » اذا لم تأخذ حذرك ! .

ثم ضحك مرة أخرى واستمر يضحك ممسكا وسطه بين يديه حتى اغرورقت عيناه .. كان الرجل العجوز ذو الشعر الرمادى أمامى ، التفت نحوى ورشقنى



بنظرة احتقار ثم طوح بذراعه قائلا فى غيظ «بحق الشيطان .. لماذا لا يستطيع الثبات فى سيره على الجسر ؟» ثم دفع عربته وتركنى مزمجرا ..

مضى من كان أمامى من الرجال فى طريقهم بينمـــا وقف من كانوا خلفى يرقبوننى بامتعاض وأنا أجاهد لانقـــاذ عربتى .. تصبب منى الطين والعرق ولم يقدم لى أحد يد المســاعدة .. واتى صوت « المقدم » من فوق كومة الملح ماذا يعطلكم أيها الأبالسة ؟ .. أيهـــا الكلاب .. أيها الخنازير .. اغربوا من أمامى .. تحركوا لعنة الله عليكم ! » .

وقال الأوكرانى بخشـــونة « افسح الطريق » ثم مضى بجانبى فى جلبـــة وصخب وهو يكاد يضرب جانب عربتة فى رأسى ! ..

تركونى وحيدا .. لكننى استطعت بطريقة أو أخرى أن أجذب العربة التى خرجت فارغة ملطخة بالطين ، فاسرعت ادفعها أمامى خارج الشريحة وفى نيتى أن ابدلها بأخرى .. وسمعت صـــوتا يخاطبنى :

ــ هل اخـــذت عربة طائرة أيها الرفيق ؟ ! .. لا عليك ، أن هذا يحدث للجميع فى البداية ..

نظرت حولى لأتبين صاحب الصوت فرأيت شـــابا فى العشرين يتربع على لوح خشبى فوق الطين بجوار كومة ملح .. كان يمص كف يده .. هزرأسه لى ولمحت عينـــاه تطـــلان من بين اصـابعه .. رحيمتان باسمتان ...

قلت له :

ــ لست مبتئسا .. وسوف أعتاد العمل بسرعة ... ماذا أصاب يدك ؟..

ــ انه خدش بسيط ، لكن الملح يأكل فيه .. اذا لم تمتص الملح من الجرح فقد تترك العمل أيضا لانك لا تستطيع استعمال يدك المصـــابة .. لكن من الافضل أن تسرع بالعـــودة الى عملك قبل أن يبدأ المقدم نداءه عليك .

وعدت مسرعا .. سارت الأمور على ما يرام مـــع الحمل الثانى ، ونقلت حملا ثالثا ورابعا ، وحملين آخرين .. لم يعرنى احـــد اى التفات .. وقد سررت لذلك كثيرا رغم أنه ربما بعث الضيق فى نفسى لو كانت الأمور تسير فى ظروف عادية .

صاح شخص ما « حـــان وقت الغداء .. » فزفر الرجال زفرة ارتياح ثم توجهوا لتناول غذائهم . لكن حركتهم كانت تفتقر الى الحماس اللازم فى ظرف كهذا متثاقلين معرضين فى اشمئزاز وغيظ مكتوم .. وبدا كأنمـــا الراحة لا تجلب أى ترويح للطعام التى عذبها العمل او العضلات التى أرهقتها حرارة الجو . شعرت بألم فى ظهرى وكتفى وســـاقى لكننى جاهدت لاخفاء ذلك ومشيت بنشاط نحو قدر الحساء .

وصاح عامل عجوز يرتدى قميصا ممزقا ازرق اللون « قف يا هذا ! » .. كان لون وجهه فى زرقة لون قميصـــه من أثر الخمر وحاجباه كثان يضمهمـــا مقطبـــا الى عينين ناريتين تشعان فى قسوة وسخرية .. تساءل متجهما :

ــ قف يا هذا .. ما اسمك ! .

وذكرت له أسمى .

ــ .. ممم .... ان أباك كان مغفلا كبيرا حين خلع عليك مثل هذا الاسم . أن من يحمل اسم « مكســـيم » غير

مسموح له بالاقتراب من قدر الحساء فى يومه الأول .

كل من يحمل اسم « مكسيم » عليه أن يقتات من زاده الخاص فى أول يوم له هنا ...

أرأيت ؟ .. كان الأمر يختلف لو أن اسمك كان « ايفان » أو غيرة ، فأنا على سبيل المثال ، اسمى « ماتفى » ، ولهذا السبب استطيع الحصول على غذائى من القــدر .. أما « مكسيم » فانه لا يحصل على غدائه ويستطيع فقط أن يشاهدنى وأنا أتناول غذائى .. ابتعد عن هذا القدر ! ....

ونظرت للرجل فى دهشة ، ثم مشيت بعيــدا وجلست على الأرض .. لقد أذهلتنى هــذه المعاملة الغريبة . فلم يحدث أن صادفت مثلها فى حياتى قط ، ولا شك اننى لم أفعل ما استحق عليه مثل هذه المعاملة الشــاذة .. لقد صادفت مجموعات كثيرة من العمال قبل ذلك وعشــت فى وسطهم وعملت معهم وكانت علاقاتنا بسيطة أخوية منذ اللحظة الأولى .... أن هناك شــيئا غريبا فى هؤلاء الرجال .. ثارت فى رأسى علامات استفهام كبيرة رغم كل ما نلته من اهــانة وتحقير .. شعرت برغبة شديدة فى أن أكتشف سر هذا اللغز ..

وحين وصلت الى هذه النقطة فى سلسلة تفكيرى جلست هادئا فى انتظار العودة الى العمل أرقب العمال وهم يتناولون غذائهم دون أن يفضح مظهرى تلك الثورة التى أعتملت فى نفسى وتصميمى على معرفة سبب معاملتهم لى بمثل هــذه القسوة .

فرغ العمال من الأكل والتجشأ .. وبدأوا يدخنون ويتمشون بعيــدا عن القدر ..

ســار الهرقل الأوكرانى والغلام ذو السيقان المربطة فى اتجاهى ثم جلسا أمامى فاعترضا مجال رؤيتى لصــف العربات المتروك فوق الجسر . سألنى الأوكرانى :

ــ هل تدخن أيها الرفيق ! .

ــ أشكرك .. هذا لا يضير ..

ــ أليس معك دخان ؟

ــ لو كان معى ما أخذت دخانك .

ــ هذا صحيح ! .. خذ

وناولنى سيجارة ، ثم أكمل حديثه :

ــ هل تنوى الاستمرار هنا ؟

ــ سأبقى طالما وجدت بنفسى القدرة على البقاء !

ــ مممم ... من أى بلد أنت ؟

وذكرت له بلدى ، فسألنى :

ــ أهى بعيدة عن هنا ؟

ــ حوالى ثلاثة آلاف « فرست » .

ــ أوه .. أنها بعيدة جــدا .

ما الذى جاء بك الى هنا ؟

ــ نفس الشىء الذى دفعــك للحضور !

ــ اذن فقــد طردوك أنت الآخر من بلدك لأنك ضبطت متلبسا بالسرقة !

وايقنت أن الرجــل قد استدرجنى لقفشة فتساءلت بسرعة :

ــ ماذا ؟ .. ما هذا ؟

ــ لقد جئت أنا الى هنا لأننى طردت من بلدى بسبب السرقة ، وقــد قلت لى الان أنك قد جئت لنفس السبب !

ــ ثم انفجر ضاحكا وقد سره أنه قد استدرجنى لهذه القفشة . ولم يقل له رفيقة الآخر شيئا وانما غمز له بعينه

وابتسم فى دهاء • بادرته قائلا :

ـ انتظر ....

فقاطعنى :

ـ لاوقت للانتظار أيها الرفيق • يجب علينا العودة الى العمل .. هيا بنا .. خذ عربتى وانتظم فى الصف خلفى .. ان عربتى جيدة يمكن الاعتماد عليها .. هيا بنا .. وبدأ يسير .. كنت على وشك أن آخذ عربته لكنه قال بسرعة :

ـ دع الأمر لى .. سوف آخذها بنفسى .. اعطنى عربتك ، وسوف أضع عربتى داخلها لكى تذهب راكبة بعض الوقت فتستريح قليلا ..

سرت الى جانبه وقد أثار تصرفه هذا شكوكى •• كانت عربته مقلوبة داخل عربتى فأخذت أتفحصها جيدا لأتأكد من أنه لا يدبر لى مقلبا .. لكننى لم الاحظ شيئا سوى أننى قد اصبحت بلا مقدمات محور اهتمام الجميع وان جاهدوا لاخفاء ذلك ..

أخذ الهمس يسرى بينهم بينما غمزاتهم وايماءاتهم كلها تتجه نحوى . وتأكدت من اننى لابد وان أكون على حذر .. كانت تجربتى معهم تؤكد لى أن أى شىء يحيكونه ، يكون على درجة فائقة من الحبكة والاتقان .

واخيرا قال الأوكرانى :

ـ هاقد وصلنا ..

وأنزل عربته ثم دفع بها فى اتجاهى قائلا :

ـ هيا .. أملأها .

نظرت حولى .. كان الجميع منهمكين فى عملهم ففعلت مثلهم وبدأت أملأالعربة بالجاروف .. وسكن كل صوت الا صوت الملح يتدحرج من الجواريف .. وبعث هذا الصمت فى نفسى حزنا مبهما فشعرت بأن الرحيل عن هذا المكان كسب كبير .. وسمعت « ما تفى » ذو الوجه الأزرق يأمرنى :

ـ هذا يكفى .. هل غلبك النعاس؟.. تحرك .

أمسكت يدى العربة ودفعتها للأمام بجهد كبير ، فشعرت بألم شديد فى راحتى يداى جعلنى أصرخ وتركت العربة على الفور ، وسبب لى ذلك آلاما أشد من السابقة . فقد سلخ جلد كفاى .. ضغطت على أسنانى فى غيظ وألم وأخذت أفحص يدىالعربة فوجدت أنهما قد شرختا عند حافتيهما الخارجيتين ، وحشر فى الشق قطع رفيعة من الخشب بحيث يظل مفتوحا وقد عمل ذلك بطريقة متقنة يصعب اكتشافها . قدر الفاعل أنه عندما أمسك بيدى العربة وأضغط عليهما فان جلد يدى يدخل فى الشق وتقفز قطع الخشب من مكانها ليضم الشق ممسكا بجلد يدى .. لم يخطىء الفاعل التقدير، وكان ما كان ..

رفعت رأسى ونظرت حولى فصفعت وجهى صيحات الاستهزاء والتهليل والتهكم والسخرية وكل الوجوه تنظر متفحصة وعليها ابتسامات كريهة ..

تعالت لعنات « المقدم » . من فوق كومة الملح ولكن أحدا لم يعبأ به .. كنت انا محط اهتمامهم جميعا نظرت حولى نظرة فارغة زائغة وفى داخلى احساس يغلى بالألم . شعرت بكراهية شديدة نحو هؤلاء الرجال ورغبة عارمة فى أن أثأر لنفسى منهم .. كانوا يتزاحمون أمامى ، يضحكون ويسبون ويعلقون ورغبتى تزداد حدة فى أن أحقرهم وأنال منهم جميعا ..

اقتربت منهم ملوحا يدى وصحت بأعلى صوتى « أيها الوحوش .. » وأخذت ألعنهم بكل كلمات السباب التى قذفونى بها .. سرت رجفة فى صفوفهم وبدأوا يتراجعون فى قلق فيما عدا الأوكرانى و « ماتفى » ذو الوجه الأزرق اللذين ثبتا فى مكانيهما وبدأ كل منهما يشمر أكمامه فى هدوء . تمتم الأوكرانى فى نشوة دون أن يرفع عنى عيناه .. « تقدم .. تقدم .. » وقال له «ماتفى» مشجعا .. « عليك به يا جارفيلا ».. صحت فيهم جميعا « لأى سبب تفعلون بى ذلك ؟ .. هل آذيت أحدا منكم ؟

ألست انسانا مثلكم ؟ .. » وهتفت بكلمات أخرى حمقاء ، لا معنى لها ، وجسمي كله يرتعش من شدة الغضب .. كنت فى نفس الوقت مترقبا آخذا حذرى منهم حتى لا أكون هدفا سهلا للمزيد من حيلهم ، ولكن الوجوه الممسوخة الماثلة أمامى لم تفتقد مسحة عطف واشفاق .. بل ان بعضها كان عليه تعبير صريح عن الشعور بالاثم .. حتى ماتفى والاوكرانى اللذين تراجعا خطوة أو اثنتان الى الوراء . أخذ ماتفى يجذب طرف قميصه والأوكرانى يعبث فى جيوبه وأنا أهتف فى اصرار .. « لماذا تفعلون بى ذلك ؟ ما الذى يدفعكم الى ايذائى ؟ .. » ظلوا صامتين .. الأوكرانى يعبث بسيجارة ووجهه الى الأرض ، وماتفى يسير مبتعدا حتى أصبح أبعد الجميع عنى ، بينما هرش الجميع رؤوسهم فى كآبة ثم استداروا كلهم عائدين الى العربات حينما أتى « المقدم » صائحا ملوحا .. حدث ذلك كله فى لحظات حتى أن النسوة اللائى كن قد توقفن عن العمل عند سماعهن صرختى لم يصلن الا بعد أن انفض الرجال ..

تركت وحيدا أحس بالمرارة فقد تركت هكذا دون أن يلقى الضرر الذى لحق بى حقه من الاهتمام ودون أن أثأر لنفسى أو أسترد اعتبارى .. وشق على أن أحتمل كل ذلك .. كنت فى حاجة الى اجابة تشفى غليلى وتطفىء ظمىء الى الثأر فصحت فيهم « لحظة واحدة أيها الرفاق .. » فتوقفوا واستداروا نحوى فى اكتئاب .. « أخبرونى .. لماذا أردتم ايذائى ؟ . لابد وأن لكم ضمائر تود مثلى أن تعرف السبب .. » لكنهم ظلوا صامتين وكان صمتهم هو الاجابة على كل تساؤل .. تمالك نفسى تماما وبدأت أحدثهم كيف اننى انسان مثلهم فى حاجة الى القوت ولهذا جئت أعمل معهم كواحد منهم يربطنا جميعا وحدة المصير ولم يخطر ببالى قط أن أتعالى عليهم أو أفكر للحظة فى أننى أرفع منهم شأنا .. وقلت فى نهاية كلامى « كلنا متساوون ويجب علينا جميعا أن نفهم بعضنا البعض وأن يساعد كل منا الآخر على قدر استطاعته .. » .

وقفوا يستمعون فى انتباه متجنبين النظر الى عيناى ، وشعرت أن كلماتى لها صدى فى نفوسهم فألهمنى ذلك وبعث فى نفسى الأمل . نظرت حولى نظرة سريعة فلمست مدى تأثرهم واقتناعهم وملأنى شعور غامر بالفرح فألقيت بنفسي على كومة ملح وأخذت ابكى بشدة .. حينما رفعت رأسى ألفيت نفسى وحيدا .. كان يوم العمل قد انتهى وجلس العمال فى جماعات متناثرة بقرب كومة الملح .. كانوا يكونون فى مجموعهم بقعا قاتمة فوق الملح الذى خضبه ضوء الشمس بلون وردى .. الهدوء شامل والبحر يبعث بنسمة والسماء تعبرها سحابة بيضاء تخطر فى بطء وتراخ تاركة خلفها من لحظة لأخرى قطعا متناثرة من الضباب تبتعد عنها لتذوب فى الفضاء الأزرق الفسيح .. كان الجو كله مفعما بالحزن ..

نهضت من مكانى وسرت بخطى ثابتة تجاه كومة الملح وقد عقدت العزم على وداعهم لأعود أدراجى الى كوخ الصيد .. وحينما اقتربت نهض عدد منهم وساروا لمقابلتى .. ماتفى والأوكرانى والمقدم وثلاثة آخرون من ذوى الرقاب الخشنة ! .. وقبل أن أجد فرصة للكلام مد « ماتفى » .. يده دون أن ينظر الى وقال « أسمع أيها الرفيق .. يجدر بك أن ترحل وتذهب لشأنك .. لقد جمعنا لك مبلغا صغيرا من المال .. خذه » .. كان فى يده بعض القطع النحاسية والتى رنت حينما بسط يده نحوى .. أذهلتنى المفاجأة فوقفت أنظر اليهم دون أن أنطق بحرف وقد وقفوا جميعا مطأطاى الرؤوس فى صمت ، يعبثون بأسمالهم الممزقة فى غباء ويميلون من قدم على قدم ويتلفتون حولهم أو يهزون أكتافهم .. كل حركة من حركاتهم تكشف عن رغبتهم فى الخلاص منى بأسرع ما يمكن .

دفعت يـد « ماتفى » قائلا « لن آخذها » فرد قائلا :

ـ هيا .. لا تتعمد مضايقتنا هكذا ، فنحن لسنا قوما سيئين الى هذا الحد. اننا نعلم جيدا اننا قد آذينا شعورك ، ولكن ما حيلتنا ؟ انك اذا تفحصت الأمر جيدا لوجدت انه لا لوم علينا ، وانما اللوم كله لطريقة معيشتنا هنـا .. عيشتنا هنا عيشة الكلاب ! .. العربة ذات الستة عشر بود ، الراب الذى يبرى أقدامنـا والشمس التى تلسع ظهورنا طول النهار .. وخمسون كوبك فى النهاية .. ان ذلك كله كفيـل بأن يحيل أى انسان الى وحش ضـار .. تعمل وتعمل وتكدح طول النهـار ثم تشرب بما عملت وتعود الى العمل من جديد .. تلك هى البداية والنهاية .. اذا ما عشت هذه الحياة لخمسة أعوام متصلة فان عنصر الانسان فيك يموت ولا يبقى منه شىء وتستحيل وحشا.. هذا هو كل شىء .. اسمع أيهـا الرفيق .. اننا نبادل بعضنا البعض ما هو أسوأ بكثير مما فعلناه بك .. نحن أصدقاء الداء .. اذا صح القـول .. بينما أنت وافد جديد .. فلماذا نترفق بك ؟ .. هذا هو الموقف .. ان ما قلته لنـا صحيح وسليم للغـاية ، لكنه لا يناسبنا .. فما كان واجبا أن نأخذ ما حدث هذا المأخذ .. لقد كنا نهزل .. ثم .. اننا نحس ولنـا قلوب .. من الأفضـل أن ترحل لتفكر على طريقتك وتدعنا هنا نفكر على طريقتنا .. خـذ هذا المبلغ الصغير وارحل عنا تصحبك السلامة .. نحن لم نؤذك .. وأنت لم تؤذنا .. صحيح ان الأمور قد ساءت ، ولكن ماذا كنت تتوقع ؟ .. ان الأمور لا تتحسن هنا ، ولن تكسب شـيئا ببقائك فأنت لا تصلح لهذا المكان .. لقد أعتدنا بعضنا البعض ، وأنت لست منا ، فلا جدوى من بقائك بيننا وعليك أن ترحل الآن لتعيش كيف تشـاء .. تصحبك السلامة ! » .

نظرت اليهم .. كان واضـحا انهم يشاركون « ماتفى » رأيه فأمسكت كيس متاعى وطوحت به على ظهرى وهممت بالرحيل حين وضع الاوكرانى يده على كتفى قائلا :

ـ « لحظـة من فضلك .. دعنى اضيف شيئا .. لو كان الأمر يتعلق بأى مخلوق غيرك لأعطيتـه لكمة فى فكه للذكرى .. لكن أحد لم يلمسك بسوء بل اننا جمعنا لك مبلغا من المـال كهدية .. كان الأجدر بك أن تشكرنا على ذلك » ..

وبصق .. ثم أخذ يلف كيس دخانه بسرعة وكأنه يريد أن يقول « تأمل .. كم أنا لبـق ! » وسـحقنى كل ذلك فأسرعت أستودعهم وبدأت سيرى مرة أخرى بحذاء الشاطىء لكى أعود ادراجى الى كوخ الصـيد الذى قضيت فيـه ليلتى ..

كانت السماء صافية والجو حـارا والبحر واسعا ساحرا تتدحرج موجاته الصغيرة الخضراء هادرة على الشاطىء. شعرت لسبب أو لآخر بالألم والخزى، واخذت أجر أقدامى ببطء فوق الرمال الساخنة .. الشمس ساطعة والبحر يشع فى هدوء وطمأنينة والأمواج تهمس بشىء حزين غير مفهوم .

حينما وصلت كوخ الصيد نهـض صديقى الصياد ليقابلنى قائلا :

ـ لم يعجبك مذاق هـذا الملح .. هـه ؟ !

قالها بلهجة من يشعر بالرضـا لأن نبوءته قد ثبت صحتها .. فنظرت اليه فى صمت .. قال مؤكدا :

ـ هل كان الملح أزيد من اللازم ؟ ! .. اجائع أنت ؟ .. هيا تعال وتناول بعضا من العصيدة .. لا أدرى لماذا يطهون كل هذه الكمية ، فقد تبقى نصفها .. هيا شغل ملعقتك .. عصيدة من الدرجة الأولى بأسـماك « الفـلاوندر والاسترجون » ..

وبعد دقيقتين كنت جالسـا فى الظل بجانب الكوخ .. متسخا .. مرهقا .. جائعا .. أتناول وجبة لا طعم لها .. عصيدة من الدرجة الأولى بأسـماك الفلاوندر والاسترجون ..

أزمة البطل المقهور عند شتاينبك

بحث : عبد المنعم صبحى

من بين الذين هاجموا شتاينبك الكاتب الفرنسى المتمرد « الآن روب جرييه » الذى أخذ على شتاينبك واقعيته الجامدة ، وقال انه تطوير لجوركى ، فى وقت صارت فيه الحياة معقدة وغير معقولة بشكل لا يمكن أن يصلح للتعبير عنها الشكل الواقعى التقليدى .

ولم يكن الآن روب جرييه ، هو الوحيد الذى هاجم شتاينبك ، بمثل هذه الحدة .. فلطالما هاجم اليمين شتاينبك ، بسبب انتمائه الى اليسار فى بلد ضرب فيه اليسار بشكل قاهر ... وطالما هوجم فيه من اليسار ، بسبب انحرافاته وتخليه ان لم يستعملوا كلمة « خيانة » عن القضية .

ولقد تركز الهجوم بشكل حاسم فى عام ١٩٦٢ وما بعدها نتيجة لنيله جائزة نوبل فى الأدب . ولقد قيل ان شتاينبك ليس فى مستوى الجائزة ، وقيل أيضا انه ليس أفضل من ينالها .. وقال شتاينبك نفسه ـ ورأيه هنا لا يهمنا الا على أنه رأى بين الآراء ـ انه ليس أفضل من يستحق الجائزة . وربما كان الدافع لكلامه هذا ، التواضع الحقيقى ، أو النظرة الموضوعية ، أو محاولة لأن يكفكف بعض حملات الهجوم عليه .

وخطأ النقاد الذين قللوا من مقدار شتاينبك ، **أنهم نظروا اليه على أساس انه** مرحلة واحدة . وفى الحقيقة يخدع شتاينبك قارئه ، حتى ليبدو انه كاتب بلا مراحل متعددة ، فهو كالبركان يثور من الداخل ، لكنه لا ينتقل من مكانه .. والثورة الدائمة هنا حركة مستمرة .

وبالاضافة الى الحركة الداخلية الهائلة فى أعمال شتاينبك ، فلقد توج أعماله برواية (**شتاء السخط**) التى تصل بمستواها الفنى الى الأعمال الكلاسيكية .. وقد قابلها النقاد بذهول شديد .

وتعتبر (**شتاء السخط**) منطقة تجميع بالنسبة لشتاينبك ، وبالنسبة للرواية المعاصرة ٠٠ أما بالنسبة لشتاينبك ، فهى تجميع للأساليب التى استعملها من قبل ، وتطوير للواقعية التى بدأها فى أعماله السابقة ، حتى وصل بها الى مستوى رفيع جدا ٠٠٠ أما بالنسبة للرواية العالمية ، فهى تجميع لاتجاهات مختلفة : الواقعية ، والرمزية، والعبثية ٠٠٠ الخ ٠ ولكن هذا التجميع ليس نتيجة « خطف » أشكال مختلفة لفرضها على الرواية ، بل يبدو فيها أن شتاينبك قد « هضم » كل الاتجاهات المعاصرة ، ووقف « مع » كل هذه الاتجاهات لكى يخدم بها الهدف الأساسى الذى تناوله طوال حياته : القضية الاجتماعية ٠

ورغم أن المهتمين بالقضية الاجتماعية يبدون دائما قليلى الاهتمام بالشكل ، فهم يضعون ــ بالنسبة للعمل الفنى ــ التكنيك فى المستوى الثانى ، الا أن **شتاينبك** لم يكن أبدا ممن يتخلون عن قضية الشكل ، والا كان قد تجمد فى المستوى الذى وصل اليه **ارسكين كالدويل** ٠٠ لقد كان الشكل بالنسبة **لشتاينبك** ــ دائما ــ نبض الرواية وروحهـــا ٠

فى مقدمة روايته « **الضوء الساطع** » أعلن شتاينبك ، أسلوبا جديدا فى شكل الرواية ، أسماه « **القصة المسرحية** » ٠ ويبدو هذا التعبير غريبا ، اذ اننا نعرف ان لكل من القصة والمسرحية عالما مختلفا ٠ ولكن شتاينبك رأى أن « **الدراما** » بمعناها الجديد من الممكن أن تكون عنصرا مشتركا بين الرواية والمسرحية ٠٠ والى جانب ذلك الرواية تحوى « **الحوار** » ، و « **المسرحية** » أساس شكلها « الحوار » ٠ وهكذا كتب « **الضوء الساطع** » و « **رجال وفيران** » ٠٠ مشاهد مسرحية كاملة تزيد عليها بعض الرؤى الخارجية ، فمن الممكن أن تحذف لكى تنقلب الرواية الى عمل مسرحى أو سينمائى ٠

وفى (**شتاء السخط**) ٠٠٠ نجد هذا الشكل أيضا ٠ فهناك فصول كاملة أساسها الحوار ، حتى أنه من الممكن أن نعدها مشاهد مسرحية ، وخاصة الفصل الأول ٠٠٠ ونتيجة لاهتمام شتاينبك بالحوار ، نجده مشحونا باللمحات الواقعية والشاعرية والفكر ٠٠٠ يبدو هذا من الحوار بين (**ايفان آلن هولى**) وزوجته (مارى) ٠٠

ــ ان السنة تبدو من يوم ، واليوم من صباح ٠٠

ــ أعتقد انك استيقظت بهذا السخف ، أتذكر أن اليوم هو يوم « الجلجثة » ٠

ــ لا تنتهك المقدسات ٠ هل سيدعك ماريللو (صاحب المحل الذى يعمل فيه ايفان) تغلق المحل فى الحادية عشرة ؟

ــ يا زهرتى العزيزة ٠٠٠ ان ماللو كاثوليكى ومهاجر قذر ٠٠٠ وقد لا يظهر على الاطلاق ٠ سأقفل المحل من الظهر حتى ينتهى تنفيذ حكم الاعدام ٠

ــ ذلك كلام الآباء المغتربين ٠ وهو ليس كلاما مهذبا ٠

ــ هراء ٠٠٠ فذلك كلام أخذته عن أهل أمى ٠ فهو كلام قراصنة ٠ لقد كان فعلا تنفيذ حكم اعدام كما تعرفين ٠٠

وتجرى أحداث الرواية فى مدينة صغيرة من تلك المدن التى يوجد بها كل شىء ، ولا ينقصها شىء ، وهى مدينة « نيوبايتون » فى ولاية « نيوانجلند » ٠ فى الواقع أن هذا الاختيار له دوافعه القوية ٠٠٠ فهو اختيار يشبه التجريد ٠٠٠ اذ أن هذه الولاية

من أوائل الولايات الأمريكية التى أنشأها الانجليز ، وهى أيضا تعتبر من أوائل الولايات التى ثارت عليهم • وهى نموذج مصغر للحياة فى الولايات المتحدة الأمريكية كلها ••

وفى الحقيقة نستطيع أن نقول ان (ايفان آلن هولى) ، هو نموذج للانسان العادى فى العالم الحديث ، الانسان الطيب الشريف الذى يؤمن بقيم نظيفة ، وليس له تطلعات غير معقولة •• ولكنه واقع تحت حضارة بأكملها ، وتحت ضغط مجتمع انتهازى العلاقات ، وتحت ضغط المطالب الأسرية المتزايدة • ماذا يستطيع أن يفعل الانسان بهذا التكوين فى مثل هذا الموقف ، الذى يبدو كما لو كان موقفا وجوديا من الدرجة الأولى ؟ انها ليست محنة ايفان وحده • انها محنة الملايين من البشر فى حضارة الغرب •

بعد أن نال شتاينبك جائزة نوبل ـ وكان قد مضى عام واحد على اصدار (شتاء السخط) ، التقى به مراسل صحيفة فرنسية ، وسأله فى حديث معه عن مصادره الأساسية لأبطاله ، فقال له :

« من الحياة • لم أبذل مجهودا أكثر من كونى جعلت نفسى على سجيتها ، تتأرجح على الحبل الساخن الذى تتأرجح فوقه مئات ، بل ملايين النفوس فى أمريكا ، أولا لكى أرى ، وثانيا لكى أحس ، وثالثا لكى أجد ما أقوله ••• كنت فى كثير من الأحيان أتردد ••• أكتب عن شخصية ما ، عامل ميناء ، أو سكير ، أو امرأة ليل • ولكن كان يحدث أن تؤنبنى رؤياى فى الماضى ، على هذه الصورة الحقيقية ، بالغت فيها أم لم أبالغ • كنت أمزق ما أكتبه ، وأذهب الى أقرب كتاب الى يدى لأنسى ماكتبته ، ثم تأتى لحظة تجدنى أكتب ••• ربما أكتب نفس ما مزقته ، وربما أقل ، وربما أكثر ••• وأحيانا لا أمزق !! ••• عالم شخصيات الكاتب ، يؤرقه كثيرا ، ويفرض عليه نوعا من العلاقة فى كثير من الأحيان تتزايد عن علاقة الأب بابنه أو الزوج بزوجته ، وتجعل صانع الشخوص يحس بنوع من مسئولية «الاله» نفسه ، الذى يخلق البشر ، ويسأل عنهم فى يوم من الأيام •

كل كاتب له منابعه الأساسية لعالم شخوصه ، ومنابعى أنا : حياتى التى تتحرك فى ملل واقبال ، فى برودة وسخونة ، فى تردد واندفاع ••• حياتى التى بدأت منذ أن وعيت الوجود ، وخاطرته وبدا يناضلنى وأناضله » •

ثم وضع جون شتاينبك فى حديثه مع مراسل الصحيفة الفرنسية ، الخطـوط الأساسية لشخصية البطل فى رواياته عامة وفى (شتاء السخط) خاصة :

« انسانى الذى أبحث عنه ، هو (المقهور) ، الواقع تحت الضغوط ، ففيه تكمن المأساة ، وتبرز أشياء لابد من نقلها للناس » •

ان هذا هو (ايفان آلن هولى) : البطل المقهور • انه يريد أن يعيش كما هو ، بائعا فى محل يملكه رجل من أصل صقلى ، ولكن ما حوله يرفض هذا الوضع •• زوجته تريده أن يثور على واقعه ، ويغامر بمالها ••• ابنته المراهقة التى تأتى اليه وتسأله : متى نغتنى ؟ •• ابنه الطفل يشترك فى مسابقة للتليفزيون ويفوز فيها ، وينظم حياته على أساس انه سيكون نجما اجتماعيا تتلألأ عليه أضواء التليفزيون والسينما • أثرياء البلدة يريدون منه أن يرتفع الى طبقتهم لأنه سليل واحد منهم ، فهم يريدون أن يحتفظوا بشىء من « نقاء » الطبقة ، الى جانب انه من الممكن أن يكون صيدا ممتازا بالنسبة لهم •

ولقد استعمل شتاينبك تكنيكا غريبا لكى يعبر به عن أزمة (ايفان) • ان القسم الأول من الرواية ، وهو يحتوى على نصفها الأول ، هو تصوير للضغوط الهائلة التى تمارس على ايفان ، وعلى مقابلته الساخرة لها جميعا • ولكن هذه الضغوط ليست عروضا غبية ، انها ضغط الحضارة بأجمعها • وفى القسم الثانى ينهار ايفان لكى يستسلم لكل المغريات التى عرضت عليه لكى يصير رجلا ثريا • ويقوده الانهيار الداخلى الى انهيار خارجى ٠٠ الى الانتحار •

وفى القسم الأول يكثر شتاينبك من النظر الى ايفان من الخارج ٠٠ انه يراه ، ويلاحظه ، ويكتب عنه ٠٠٠ لأن الأزمة كانت أزمة من خارجه • أما فى القسم الثانى ، فنرى شتاينبك يستبطن بطله ، ويجعله يحكى ما فى داخله من رؤى وصور ، لأن الأزمة صارت فى داخل البطل •

فى هذه الرواية نحس ان شتاينبك قد أعطى للواقعية الأمريكية طعما جديدا • لقد تألقت الواقعية فى أمريكا فى الثلاثينات نتيجة لانتماء مجموعة كبيرة من الكتاب الى اليسار مثل : سارويان ، ودوس باسوس ، وارسكين كالدويل ، وريتشارد رايت ، وجيمس فاريل ، وهمنجواى ، وميللر ، ومالتز ٠٠ رغم عدم انتمائهم الى جيل واحد •

ولكن (شتاء السخط) محاولة لاعادة الشباب الى الواقعية • انها رحلة الى مدارس أخرى، ولكن شتاينبك لم يترك نفسه فى هذه المدارس • لقد كانت بالنسبة له كالرحلة، عاد منها حاملا التجارب واللآلىء ، لكى يضيفها الى الواقعية •

ومنذ عام ١٩٢٩ وشتاينبك يكتب فى الاتجاه الواقعى • وكانت أول رواياته : (قدح الذهب) • والرحلة التى قطعها شتاينبك بين هذه الرواية وبين (شتاء السخط) ، كانت رحلة اغناء للاتجاه الواقعى • لقد كان فى البداية متحمسا ، يسيطر عليه الاتجاه الاشتراكى ، فى عنف وتعصب ، ولكنه بعد ذلك جعل الفنان يطفو على السطح •

والرواية الأخيرة له هى رد على كل الذين اتهموه بالتخلى عن الفن من أجل السياسة ٠٠ فلقد كانت ملحمة الانسان المعاصر فى أزمة الحضارة الحديثة ٠٠ وفى نفس الوقت هى رد على الذين اتهموه بالتخلى عنه قيم الانسانية والسياسية ، نتيجة لضغط الأجهزة الأمريكية ، فلقد كانت ادانة ـ ليس فقط للوضع فى الولايات المتحدة ـ بل للحضارة الغربية كلها •

والاتجاه الواقعى يبدأ عند شتاينبك منذ (قدح الذهب) ٠٠٠ وهى رواية تحكى قصة طفل صغير ، يأمل فى أن يصبح شيئا ما ، ويمتلك جزيرة بناما قدح الذهب ٠٠٠ والمزاج النفسى فى الرواية ، هو نفس المزاج النفسى لعصر شتاينبك انئذ : عصر التوسع والخروج والتطلع ٠٠٠ وربما كان مايجيش بنفس الطفل (هنرى) هو ما كان يجيش بنفس شتاينبك فى ذلك الحين ، حتى انه جعل (مرلين) فى الرواية تقول له :

ـ انك صبى غض • وأنت تطلب القمر لتحسو الماء من القدح الذهبى • وطلبك هذا ربما جعلك فى يوم رجلا عظيما ، لو ظللت على طبيعتك طفلا غضا • ولكن اذا كبرت وكبرت معك عقليتك وصرت رجلا ، فسترى بعقلية الرجل انك لن تصل الى القمر أبدا •

ولكن تطلع شتاينبك الى التوسع والخروج ، لم يكن فى خط مواز لكاتب آخر مثل همنجواى ... لقد أراد همنجواى أن يكتشف أمريكا من الخارج ، ولكن شتاينبك ساقه التطلع الى الداخل ، فانتهى الى الرجل الأمريكى .. والى الشخصية الأمريكية .. والى الأزمة الأمريكية .

وتتابعت روايات شتاينبك بعد (القدح الذهبى) ، وظهرت له (**مراعى السماء**) و (**الى اله مجهول**) و (**المهر الأحمر**) و (**تورتيلا فلات**) و (**شارع السردين المحفوظ**) و (**فيران ورجال**) و « **أفول القمر** » ... الخ

فى كل هذه الروايات السابقة ، كان اهتمام شتاينبك ، بنوع معين من الناس فى أمريكا ... هؤلاء الذين يعانون من القهر . وقد سأله الناقد (**دافيد برناسون**) :

ــ لماذا تتجول هذه النماذج الهائمة فى قصصك ... هذه النماذج المضطهدة التى انزلقت من الحياة هكذا ، دونما ذنب لها فى ذلك ؟ لماذا لا تكتب عن صاحب العمل والعامل ، وأنت رجل اشتراكى ، لماذا لا تكتب عن المصنع والاستغلال داخله ؟

ورد شتاينبك :

« **الانسانية ، فى رأيى كالنباتات الذى يتجه دائما الى أعلى ، دائما .. ولكنه يجمد ويتوقف نتيجة لما ينسجه حول نفسه من ألياف سميكة تحول بين الضوء والماء وبين الوصول اليه ، فالانسانية كلها تتقدم وتتغلب على مشاكلها التقدمية ، اخترعت مذاهب وقواعد وقوانين وعادات وأفكار وقيم لتساعدها فى تقدمها ، ولكن هذه المقاييس لا تساعدها الا الى حين .. وبعد ذلك تعتبر من العناصر المعوقة والمعرقلة التى توقف تقدمها ، وتجمده ، ثم تعمل على قتلها** » !

ان هذا الكلام يبين ديناميكية شتاينبك .. وهذه الديناميكية هى التى أنقذته من الجمود المذهبى .

يقول شتاينبك :

« **اننى أختار شخوصى أو عناصر أبطالى من أسفل ، لانها هى التى ستنمو وتأخذ دورها بحكم احساسها بالضغوط والمأساة ... ومن هؤلاء أستطيع أن أقول شيئا .. بطريقة مباشرة وبلا تكلف ... شيئا أحسه تماما ، نتيجة معايشة طويلة أخذت من حياتى أياما طويلة .. ولعل ذلك سبب فى أننى لم أكتب عن المستغل والمستغل بالشكل المباشر ، ومن خلال مصنع مثلا** » ..

هذا هو فهم شتاينبك للآدب الاشتراكى . وهكذا استطعنا أن نحس بقهر النظام كله على ايفان فى (شتاء السخط) .. دون أن نرى مصنعا واحدا ، ودون أن نرى اضرابا واحدا ..

وحتى فى « **فيران ورجال** » التى تناولت حياة العمال الزراعيين الأمريكيين الحالمين أبدا بمزرعة موهومة يشترونها بعد أن يقتصدوا أجرها ! وعلاقتهم مع أصحاب الأرض ... لم تكن أبدا عملا مباشرا ... لقد حكت فى روعة قصة العقل والقوة عند العمال ... العامل الابله القوى ، والعامل العادى الذكى ، واحد يعمل والثانى يوجه ... واحساسهما المرير تحت ضغط الواقع والحلم .. وانتهاء احساسها بالنهاية الطبيعية

٠٠٠ الدمار لاحدى القوتين ٠٠٠ وقتلت القوة ، لكى يبقى العقل ، كما بقيت الحركة العمالية الأمريكية مجموعة من المثقفين ، دون قوة جماهيرية مذكورة ٠٠

لقد وصف الناقد السوفييتى (ف٠م٠ناراسوف) هذه الرواية بانها مغرقة فى الانسانية ٠٠٠ ولكنها ليست كذلك فحسب ، بل هى عمل اجتماعى من الدرجة الأولى٠ انها تصوير ذكى للحياة الأمريكية الحقيقية ٠

وأنت تقرأ (**عناقيد الغضب**) و (**فيران ورجال**) و (**تورتيلا فلات**) و (**شتاء السخط**) ٠٠٠ وحتى وأنت تقرأ (**يحيا زاباتا**) و (**أفول العمر**) ٠٠٠ تحس بالرؤى الخصبة للحياة ، ويقابلك خط واضح لنماذج « **المناضلين** » بالمعنى العام ٠٠٠ وهذا الانسان هو الذى أطلق عليه فوكنر « **انسان القاع النابت من الأرض المتوحشة التى تعطى الدفء** » ٠

لقد عرف شتاينبك الحياة الأمريكية من قلبها ٠٠ لم يجد فى نفسه حاجة مثل همنجواى لأن يبحث عنها فى افريقيا أو أوربا أو فى أمريكا اللاتينية ٠٠ فلقد عمل شتاينبك فى مجالات عديدة ٠٠ عمل كعامل بناء ، وعاملا فى أكثر من عشر صناعات مختلفة ، واشتغل جرسونا فى المقاهى والمطاعم ٠ وكان بين فترات العمل يقرأ ويمارس الكتابة ، ويسهر ويتعب ، ويفكر ويتأمل الحياة ٠ كان يكسب القليل ، ولكنه كان يطبق المثل الفارسى : « قرش لغذائك ٠٠ وقرش لعقلك » ٠ وهكذا استطاع – حتى برغمه – **أن يدرك أمريكا من الداخل** ٠

وكانت نهاية الرحلة الطويلة أعظم أعماله على الاطلاق – باجماع النقاد – (شتاء السخط) ٠ ان النقاد يرون فيها انها أولى الروايات الجادة التى كتبها شتاينبك ، وتشمل نظرة شاملة للانسان والوجود ، بعد انقطاع استمر ما يقرب من عشر سنوات ، لم يصدر له فى خلالها الا القصة المرحة (**الخميس الجميل**) – وهى قصة تاريخية اسطورية تروى أسطورة الملك بيبين الرابع ٠٠٠ الى جانب كتاب جمع فيه بعض مقالاته ، أسماه (يحكى أنه كانت هناك حرب) ٠

وتعكس (**شتاء السخط**) مرحلة جديدة فى أدب شتاينبك ٠٠٠ ليست جديدة بالمعنى المفهوم ، ولكنها جديدة بمعنى أنها وضعت شتاينبك فى مستوى جديد وهو مستوى الأدباء الكلاسيكيين ٠٠ وجديدة – أيضا – بمعنى أنها أسلوب الرواية فى المستقبل ٠ ان الرواية (ضد الرواية) و (الرواية اللا معقولة) ورواية (التداعى الواعى)٠٠٠ وكل الاتجاهات الجديدة تمثل تمردا على الأساليب القديمة ٠٠٠ ولقد استفاد شتاينبك من كل هذا التمرد ، وأضاف اليه خبرته العميقة بالأساليب القديمة التى تعتبر الأشكال الام بالنسبة للروايات مهما تغيرت أساليب كتابتها ٠

ان هذه الرواية التى صدرت عام ١٩٦١ ، وقبل حصول شتاينبك على جائزة نوبل بعام واحد ، تعتبر نقطة انتقال فى أدب شتاينبك ٠٠٠ ولكن هذا ليس فى أهمية انها نقطة انتقال هامة فى الرواية العالمية ٠

بعض النقاد يتوهمون انه سيأتى يوم يؤرخ فيه للرواية فى العالم برواية (شتاء السخط) ، فيقال : الاتجاهات قبلها والاتجاهات بعدها ٠٠ وقد يكون هذا مجرد وهم ، ولكنه لا ينفى ضخامة وروعة آخر ما كتبه جون شتاينبك ٠٠

كان صوت احتكاك عجلات السيارة « نصر » الصغيرة بأسفلت الطريق بعد أن ضغط قائدها فجأة على « الفرامل » كافيا لأن يهز المقعد من تحت فاطمة ويجعلها تلقى بكتاب كان بيدها جانبا وتمد رأسها لتوجه حديثها الى زوجها الذى يجلس خلف عجلة القيادة وقد تملكها رعب حقيقى :

قصة : محمد أحمد الشرقا

الحقيقة الأخرى

ـ ماذا حدث يا مصطفى ... أنت تخيفني بقيادتك هذه ؟!

ـ آسف يا عزيزتى .. لم أقصد ازعاجك .. كنت سأضل الطريق .

وساد الصمت بينهما برهة كانت السيارة خلالها تثير خلفها عاصفة كبيرة من الغبار بعد أن تركت الطريق المعبد وسارت بضع مئات من الأمتار على طريق زراعى ضيق يكاد من فرط ضيقه أن يجعل من مرور السيارة أمرا صعبا فى أماكن كثيرة وفجأة دفعت فاطمة برأسها مرة أخرى الى الامام من مقعدها الخلفى وقد فغرت فاها واعترى وجهها الابيض المستدير مزيجا من الانفعال والدهشة وقالت وهى تثبت منظارها على عينيها :

ـ هل جننت يا مصطفى ... ليس هذا هو طريقنا المعتاد ؟

ـ أعلم ذلك يا عزيزتى .

وسكت مصطفى ثم أشعل لفافة وجعل ينفث دخانها فى هدوء بينما ما زالت فاطمة واقفة ووجهها ينطق بحيرة شديدة وهى تحاول التحكم فى أعصابها



التى كاد أن يفلت زمامها منها بعد أن ضايقها مصطفى بطريقة حديثه معها وكلماته المقتضبة التى تركتها وهى أشد حيرة من ذى قبل :

- هل أستطيع يا عزيزى أن أعرف الى أين نحن ذاهبين ؟

وقال أحمد وعيناه مثبتتان على عداد السرعة :

- أجل يا فيفى .. هذا من حقك .. نحن يا عزيزتى ذاهبون لزيارة صديق .

- ولماذا لم تصحبنى معك فى زياراتك السابقة حتى أتعرف عليه .

وابتسم مصطفى وزادت ابتسامته واتسعت لتصبح ضحكة كبيرة تردد صداها بين جنبات العربة الصغيرة بينما تملكت الدهشة فاطمة من جديد ثم قال مصطفى وآثار الضحك ما زالت عالقة فى وجهه الصغير الأسمر :

- الأمر فى منتهى البساطة ياعزيزتى .. اننى أزور صديقى هذا كل عام فى هذا اليوم بالذات .. وبالطبع تذكرين أننا تزوجنا منذ أربعة شهور فقط .. أليس كذلك يا فاطمة .

لم تتكلم **فاطمة** بعد ذلك بل جلست فى مقعدها الخلفى وأمسكت بكتابها مرة أخرى وكلمات **مصطفى** مازالت تدور فى رأسها ... زيارة صديق.. نفس اليوم من كل عام .. أشياء غير مفهومة وهكذا عودها **مصطفى** منذ تزوجها ... كلماته دائما غامضة مبهمة .. انه يجعلها تحس دائما أنها أقل منه ذكاء وثقافة وينتهز كل فرصة للسخرية منها ومن تصرفاتها حتى تدمع عيناه من الضحك ... هذا الاحساس الضخم بتفوقه عليها يضايقها ويحول حياتها الى جحيم.. قضت سنوات دراستها حتى تخرجت طبيبة وهى لا تقرأ الا كتب الطب ولا تناقش الا فى علوم الطب ... كانت كلمات الثقافة والادب والسياسة تبدو شبه غامضة بالنسبة لها ولم تفكر فيها فى يوم من الأيام ولم تحاول فى أى لحظة أن تجهد ذهنها فى أشياء كهذه بل كانت تعدها مضيعة للوقت وعبثا لا طائل منه حتى قابلت مصطفى ويومها أدركت الهوة العميقة التى تفصل بينهما وأحست أن الأرض تنهار من تحت قدميها وبرغبة عميقة فى البكاء ..**مصطفى** .. كم يقسو عليها فى بعض الأحيان ولكنها تحبه لأنه طيب وديع وذكى لا يستقر فى مكان ولا يعجبه اى شىء .. الملل والنفاق عدواه اللدودان .. يبدو دائما كأنه يبحث عن شىء لاوجود له وهو فى بحثه لايكل ولا يتعب .. وهى لا تعلم حتى الآن لماذا يسخر منها ويحتقرها وفى نفس الوقت يشعرها أنه يعبدها وطالما بكى كطفل على صدرها .. كانت عيناها لاتفارقان الكتاب الممدود أمامها وصوت «**كلاكس**» السيارة يدوى فى أذنيها بين لحظة وأخرى ليفرق مجموعات الأطفال التى تتصايح وتملأ الطريق الضيق الذى يمتد كثعبان طويل يتلوى ثم قامت فاطمة لتغلق نافذة السيارة الزجاجية بعد أن بدأت حبات التراب الصغيرة تتسرب الى خياشيمها ثم خرج صوتها من جديد وهى تغالب نوبة من السعال :

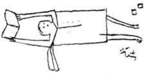
- هل بقى الكثير حتى نصل يامصطفى ؟

- لا يا عزيزتى .. ربع ساعة على الاكثر .

وعادت الى كتابها مرة أخرى بينما امتدت حقول القطن الشاسعة أمام مصطفى فبدت أمام عينيه كأروع مشهد يراه انسان .. أكتوبر .. شهد الرخاء للفلاح المصرى ... ينتظره طول العام

يصبر نافذ ففى أيامه السعيدة يجنى القطن ويعم الخير وتملأ النقود الجيوب الخاوية وعلى طول الطريق كان يصل الى أسماعه صوت الفلاحين وحناجرهم ترتفع بأهازيج طالما ابتهج لسماعها وارتعش قلبه الصغير لترديدها ... وعلت وجهه ابتسامة باهتة عندما رأى فى المرآة المثبتة أمامه فاطمة وكتابها ما زال راقدا بين يديها ... كنت أنتظر هذه الأيام من كل عام وأعد لها بالدقيقة ... هؤلاء الذين تمتد أيديهم الآن لتنزع من شجيرات القطن ثمارها الثمينة أكاد أحسدهم ... كم أود أن أترك سيارتى هنا فى هذا المكان وأنزع ثيابى البغيضة هذه وأرتدى جلبابا واسعا وأربط وسطى بحبل ثم أملأ صدرى حتى ينتفخ باللوزات البيضاء المتفتحة ثم أجرى وسط الحقول الممتدة الواسعة حتى ألهث ثم أجلس لأستريح وأقوم وأتسلق أطول شجرة نخيل هنا وأجنى ثمارها بنفسى وأقذفه هناك فى الهواء بعيدا عن الارض وأستنشق عبيرا صافيا افتقدته منذ مدة .. أكاد أختنق هنا فى هذه السيارة الصغيرة وصوت موتورها اللعين لا يكف عن الأزيز لحظة واحدة .. أحس كأن رباط عنقى يضيق حول رقبتى شيئا فشيئا حتى يكاد يخرس أنفاسى اللاهثة عشرة أعوام كاملة وأنا حبيس ملابسى هذه ... لقد أصبحت رجلا وستلتحق بالمدرسة الثانوية بعد اسبوع ولا يليق بالرجال أن يجروا وسط الحقول أو يتسلقوا أشجار النخيل .. هكذا قال والدى ويومها بكيت بأعلى صوتى وضربت الحائط برأسى وامتنعت عن الطعام يومين ثم جاءت نفس الكلمات.. لن تذهب الى هناك بعد اليوم .. هكذا قلت وهكذا سيكون ، دواب الفلاحين تملأ الطريق أمام السيارة وصوت « الكلاكس » يفزعها ويجعل أصحابها يصبون اللعنات على الافندية أصحاب السيارات الذى يتسببون فى ازعاجهم ومزاحمة الطريق على حيواناتهم، وبدأت السيارة تقترب من بيوت القرية الواطئة السوداء .. لايعرف مصطفى لماذا ينتابه هذا الشعور عندما تبدو له أى قرية من بعيد ... تكاد كل خلية فى جسده تنتفض فرحة مبتهجة ويحس كأن شيئا ثمينا قد عاد اليه بعد طول غياب وأن حواسه كلها قد أصبحت يقظة نشطة بعد أن وجدت مكانها الطبيعى التى تستطيع أن تمارس فيه نشاطها وحيويتها وبعد دقائق كان مصطفى يشق القرية بعربته .. قرى مصر تتشابه كلها .. نفس أشجار النخيل والمنازل الداكنة وحبات العرق التى تتعضد على حياة أولئك الناس الطيبين الذين يزرعون لنا الارض الطيبة وبلغ القرية من الناحية الأخرى ثم استدار وسار بضعة مئات من الأمتار ليتوقف بعدها وينزل من السيارة ثم أخذ طريقه على شريط ضيق وسط الحقول ثم توقف والتفت خلفه ليجد فاطمة تتعثر وهى تحاول اللحاق به ثم قالت لاهثة وهى تنظف حذاءها من آثار الطين الذى علق به :

– أين يسكن صديقك هذا يا أحمد



.. لقد عبرنا القرية من شرقها الى غربها ثم جئت الى هنا .. هل يقيم صديقك في هذه الحقول ..

وقال أحمد وهو ينزع لفافته من بين شفتيه ومسحة من الحزن تغطى وجهه :

ـ أجل يا عزيزتى .. هناك .

ثم أشار بيده ولم تر هى شيئا بل سارت الى جانبه ولم تحاول الكلام فهى تعرف من تجاربها الماضية معه أن الحديث فى مثل هذه الأوقات لن يجدى شيئا بل من الأفضل أن تظل هكذا صامتة وبعد وقت ليس بالقصير وجدت فاطمة نفسها أمام شىء أشبه بمنزل صغير له سور مرتفع يرقد وسط غابة صغيرة من أشجار الكافور ودب فى قلبها شعور مبهم بالخوف ومصطفى يتقدم ليدق على الباب دقات شديدة متوالية انفتح الباب بعدها عن كهل له لحية بيضاء طويلة تتدلى على صدره وقال وهو يكاد ينكفىء على وجهه :

ـ مرحبا يا دكتور مصطفى .. لم تخلف ميعادك أبدا .. ومن الذى معك يا دكتور ؟ .

ـ زوجتى يا عم ابراهيم

ـ مبروك يا ولدى .. ألف مبروك .. الزواج نصف الدين .

وسارت فاطمة خلف مصطفى وقد تقدمهم الكهل وقادهم الى باب آخر وعقدت الدهشة لسان فاطمة فلم تستطع الكلام بعد أن كادت ، فقد انفتح الباب عن مقبرة رقدت الى جوارها باقة كبيرة من الزهور وقال العجوز وهو يحاول بكل قوته أن يرفع الباقة الضخمة ليقدمها لأحمد :

وأسرع مصطفى ليحمل عنه الحمل الثقيل ثم تقدم ليضعه فوق المقبرة الصغيرة والدموع تملأ عينيه ثم مال برأسه على حافة المقبرة وقد أصابته موجة عنيفة من البكاء وتملك الاضطراب فاطمة ولم تدر ماذا تفعل فقد سيطر عليها فى تلك اللحظات شعور عميق بالحزن والفزع ... الكهل يبكى هو الآخر ودموعه تتساقط على خديه الضامرين ثم تتسلل ببطء بين شعرات لحيته التى تبدو بيضاء كالثلج لتنزل على صدره ساخنة غزيرة وبعد لحظات وجدت فاطمة نفسها تبكى هى الأخرى وقد غطت وجهها براحتيها ولم تدر كم من الوقت مر وثلاثتهم على هذا الحال ثم نهض مصطفى من جلسته وهو يجفف دموعه ثم وضع يده على كتف زوجته وبعد لحظات قاموا خارج المقبرة وعندما أدار مصطفى موتور السيارة ليبدأ فى العودة كانت آثار الدموع ما زالت عالقة فى وجهه وعينيه ثم قال وهو يحاول السيطرة على كلماته :

ـ هذه هى مقبرة صديقى فوزى يا فاطمة .. مات فى حادث منذ خمس سنوات .. كان أمله أن يصبح طبيبا .. كنا أصدقاء العمر .

ثم جذب نفسا عميقا من لفافته وعيناه ما زالتا تراقبان الطريق وقال .. ماتت أخته الكبرى عندما أخطأ طبيب فى تشخيص مرضها وعلاجها ولهذا صمم على أن يكون طبيبا .. كان مصطفى يتكلم كأنه يجب أن يتكلم .. لم يكن ينتظر من فاطمة جوابا .. كان يحس أن شيئا ما يثقل صدره ويكاد يحطمه ولهذا أحس أن يرغب فى الكلام .. أن يقول أى شىء .. لا يهم أن ينصت اليه أحد .. بل من الأفضل أن يحدث نفسه دون أن يرفع صوته أو تتحرك شفتيه .. شيد له أبوه المقبرة فى نفس المكان الذى كان يقضى فيه عطلته الصيفية .. وحيدا ..



بعيدا عن الضوضاء .. هناك تحت غابة الكافور الصغيرة .. فوزى كم كنت أحبه .. كانت عيناه تشعان بريقا غريبا كلما ثار وما أسرع ثورته وهيـاجه .. كان متطرفا فى آرائه أيما تطرف وما أكثر ما اختلفنا وتخاصمنا ثم نعـود كأروع ما يكون الأصدقاء .. كنت أتحمل ثورته وتطرفه عن طيب خاطر وأتنازل عن حقى ثم أقنعه فى هدوء فيستكين الى جانبى كقط هادىء وديع ويكاد يبكى وهو يعتذر الى عن تهوره وتسرعه ثم كان يوم ثار فيه وغضب مثلما لم يثر من قبل .. كنا فى الأسبوع الأول من دراستنا فى السنة الأولى بالكلية ، وتطـاحن مع فاطمة على مقعد بالمدرج وكاد يومها أن يشتبك معها ثم جاء لى بعدها يقول انه أحبها وانه لا بد أن يتزوجها وبات لا يتحدث الا وقد ذكر اسمها وانه لا يستطيع العيش بدونها وقال انه يحس انها تبادله نفس الشعور لأنها تنظر اليه نظرات خاصة يفهمها هو ليس لها معنى سوى أنهـا تحبه هى الأخرى وأرسل الى والده خطابا بذلك يطلب فيه موافقته على الزواج من فاطمة وبعد أسبوع حملته عربة الاسعاف الى «قصر العيني» بعد أن صدمته سيارة ملعونة وفى نفس اللحظة التى وصـل فيها بات الأمل فى نجاته قليلا فقـد أصيب اصابات جسـيمة ونزف قدرا كبيرا من الدماء وفى الصباح المبكر لفظ أنفاسه الأخيرة وفى المدرج الكبير كتب أحد الزملاء على السبورة نعيا له ووضعوا صورته حتى يتعرف عليه من لا يعرفه ويومها وبعد انتهاء المحاضرة من الجميع أمام الصـورة ووقفوا والدموع تكاد تطفر من عيونهم الا فاطمة وصديقة لها فقد ألقوا نظرة خاطفة على الصورة كأن الأمر لا يهمهم تماما وخطتهـا تملكنى شعور قوى بالحزن والغضب .. كدت أفقد صوابى وأنهال عليها بيدى حتى أفقدهـا الوعى .. كانت تتحدث مع صديقتها عن آخر الافلام والأزياء وهم يغادرون المدرج .. مات المسكين وهـو يعتقد أنها تبادله عاطفته والآن لم تكلف نفسها مشقة النظر الى صـورته ولو للحظة واحدة وكادت عيناى تخرجان من محاجرهمـا وهى تبحث عن فاطمة فى الجنازة الكبيرة التى سارت من المستشفى حتى المسجد حيث صلينا على روحـه الطاهرة .. أصبحت أكرهها ، بل أكره الأرض التى تغرس فيهـا أقدامهـا اللعينة وانقطعت عن الكلية قرابة شهر حتى لا أراها حتى لا تتجسد المأساة أمامى من جديد ومرت سـنوات ثلاث

كنت لا أستطيع خلالها مقاومة التفكير في فاطمة طول الوقت .. ثم وجدت كراهيتي لها وحقدي عليها يقلان شيئا فشيئا لقد تحولت الكراهية الى حب غامر عنيف .. ان الحب والكراهية كلاهما اهتمام شديد بشخص معين له علاقة وثيقة بنا .. كنت أمقتها في البداية بشدة .. هل لأنها لم تبكي أو تحزن أو تحاول الانتحار عندما مات صديقي فوزي وأبصرت صورته معلقة في المدرج؟ هذا هو رأيي وهذه هي الحقيقة التي أبصرها ولكن ماذا كان رأيها هي ؟ ان الحقيقة مسألة نسبية .. لكل منا حقيقته التي يعيش فيها ويحصر نفسه داخلها .. من الممكن جدا أنها لم تكن تبادله أية عاطفة وأنه أوهم نفسه أنها تحبه بينما هي لا تدرى به تماما وهكذا نقع دائما في سلسلة من المتناقضات والأعمال التي كان من الممكن ألا تحدث لو كانت نظرة الشخص منا عميقة نافذة لرى بها الحقيقة كاملة غير منقوصة .. وكنت أشعر في أحيان كثيرة أنها مظلومة وبريئة وأن حقدي وكراهيتي لها لم يكن لها أي مبرر وتزوجنا بعد التخرج مباشرة ومرت شهور أربعة حتى الآن منذ تزوجنا أشعر أحيانا برغبة ملحة في ايذائها وأتعمد مضايقتها وأثور بعنف على أتفه غلطة ترتكبها وعندئذ تبكي هي طويلا وتدفن رأسها بين راحتيها ولا تتكلم وأحس في نفس الوقت أنها رائعة وديعة لا تستحق مني كل ذلك وأكاد أبكي عند قدميها وأنا أصالحها أزور صديقي فوزي في نفس اليوم من كل عام .. اليوم الذي دفن فيه ... وهذه المرة شعرت كأنه يخرج من مقبرته يصرخ ويبكي ويمزق وجهه بمدية ثم يحاول الاقتراب منا وقد غابت الابتسامة عن وجهه ومديته ما زالت راقدة بين يديه كأنه رأى فاطمة وهي لا تلتفت الى صورته المعلقة في المدرج وكأنه شاهدها وهي لا تشترك في جنازته بل وتذهب الى حفلة السينما الصباحية وكأنه يراني وأنا أسرق فاطمة وأتزوجها .. أشعر الآن بتمزق هائل في جسدي وعقلي وعيناى تنتقلان بين عداد السرعة والطريق والمرآة التي أرى فيها فاطمة وكادت عملية القيادة أن تفلت من يدى وتصطدم بعربة أتوبيس تفوه سائقها بعدها بكلمات جعلت جسدي كله يهتز بالضحك ثم وجدت نفسي أقول لفاطمة وسعادة غامرة تسيطر على جسدي .

ـ كيف تبدين الآن يا زوجتي العزيزة .. لا عليك .. سنصل بعد نصف ساعة الى ميت غمر .

ورأيتها في المرآة وقد ارتسمت دهشة كبيرة على وجهها وظلت صامتة بعض الوقت كأنها لا تصدق الكلمات التي ترددت على مسامعها منذ لحظة .. ثم ابتسمت وقذفت بكتابها ... كانت ابتسامة عذبة صافية لم أرها من قبل على شفتيها ثم انتصبت من مكانها وطوقت عنقي بذراعيها وقبلتني وقالت وشعرات رأسي الخشنة تنكسر تحت وقع أصابعها الطويلة النحيلة : ـ

ـ لا يهمك يا زوجي العزيز .. نصف ساعة .. ساعة .. المهم أن نصل معا
وأكتم الضحك بين لحظة وأخرى كلما تذكرت كلمات سائق الأتوبيس النابية والشرر الذي كان يتطاير من عينيه بعد أن كدت أصطدم به في الطريق .

« د . محمد أحمد الشرقاوي »

قصة : طه حواس

العروسة



متولى

قطرات المطــــر تتســـاقط • الرياح سريعة باردة • الطريق موحل • الناس يسرعون الخطا . لا يلتفت أحدهم الى الآخر .. نظراتهم الى أسفل .. السماء معتمة . العربات فى الشـــارع ترش السائرين بالوحل • أزيز طائرات عابرة يملأ الميدان . اطفال يلعبون تحت المطر، تغوص أقدامهم فى الوحل • يتصارعون يضحكون يتقاذفون بحصـــوات يغمرها الطين ، يملأون الميدان صياحا وحركة ..

وعلى جانب الطريق سيدتان . أحداهما ممتلئة ترتدى رداء أسود . أما الأخرى فكان رداؤها زاهى الألوان • كانتا تسيران فى بطء ، تتفاديان المطر بالسير تحت مظلات الدكاكين التجارية . وبعد خطوات دخلنا أحد الحوانيت . وقفت

ذات الرداء الأسمر أمام البائع . جذبت زميلتها من يدها لتطمئن الى وجودها بجوارها . وقربت فمها ناحية أذنهـا وهمست . وعلى وجهها ملامح ابتسامة رقيقـة .

ـ أخبرينى يا نوال ..ماذا تريد فتاة فى سن الرابعة ؟ انا لا اريد أن ينقصها شىء .. اسمعى يا نوال سأشترى لها عروسة .. عروسة كبيرة .. هل البائع موجود يا نوال ؟ .

رد البائع على سؤالها بصوت خفيض .

ـ موجود يا هانم اى خدمة ؟ .

اتجهت ذات الرداء الأسمر نحـو البائع .

ـ ارنا العرائس .. اريدها جميلة وحياتك ..

ـ حاضر .

انصرف البـائع يحضر العرائس واستمرت ذات الرداء الأسـمر تسأل نوال .

ـ الواجب أن أشترى لها الفساتين أولا . ما رأيك يا نوال ؟

آه .. يجب أن اشترى لها كل شىء . أليس كذلك ؟ .

ـ طبعا ياعزيزة .. طبعا ..

أقبل البائع يضع صناديق العرائس أمام الصديقتين .

ـ العرائس يا هانم ..

وارتفع صوت عزيزة .

ـ اختارى عروسة جميلة يا نوال .

وضع البائع الصناديق أمامهما .. فى صف طويل نزع عنها أغطيتها . بدت العرائس فى الصناديق . كالأطفـال الصغيرة التى ترقد فى المهـد . تنطق وجوهها ببهجة الحياة .. امتـدت يد نوال الى صندوق وأخرجت منـه عروسة .. وارتفع صوتها ..

ـ الله .. عروسة جميلة جـدا .. يا عزيزة .. تشبه الملاك مدت عزيزة ذراعيها أسلمتها نوال العروسة وهى تقول ..

ـ احسن عروسة .

أخذت عزيزة العروسة . تحسستها بيديها .. ومرت بأصابعها على وجهها . ولمست خديها الناعمين فى رفق وأمالت راسها وعدلتها .. طربت لصوتها .

ـ ماما .. بابا .. ماما .. بابا ..

أثار الصوت فى نفسها أشياء خامدة . بعثت فيها نشوة جديدة . لها لذة الحلم الجميل .. ظلت تحرك العروسـة وتستمع الى صوتها . ثم رفعتها بين يديها الى صـدرها .. احتضنتها فى حنان . نظرت اليها نوال والى البـائع الذى كان ينظر الى صديقتها .

ـ ماذا ستشترين ايضا يا عزيزة ..

وقالت عزيزة وهى كالنائمة .

ـ نعم .. ماذا قلت ؟

ـ قلت ماذا ستشترين بعد العروسة ؟

ـ آه .. سأشترى كل شىء يلزم بنت فى سن الرابعة . الم اقل هذا من قبل ؟ انها تستحق كل شىء . انى سأجعلها أسعد بنت فى العـالم .. سأعلمها الموسيقى . بعد دروسى فى المدرسة . بعد أن اترك الأطفال العفاريت سأتفرغ لها . سأشترى لها بيانو جديدا غـير الذى عندى وسألها البائع .

ـ ماذا تريدين بعد العروسة ؟ .
ـ بعد العروســـــة .. آه .. أيوه يا نوال . ماذا تريد البنت أيضا غير العروسة ؟
ـ الفساتين .
الفساتين صحيح .
ثم وجهت كلامها للبائع .
ـ هات لنا سبعة فساتين .
وقال البائع يردد الكلمة ..
ـ سبعة فساتين .. ؟
وأجابت عزيزة وهى تهز رأسها علامة التأكيد .
ـ نعم سبعة فساتين .. أنا أريدها أن تلبس كل يوم فستانا جديدا .. آه يانوال لو أمكن أن أذهب أنا وهى الى مكان بعيد .. بعيد عن .. الناس كل الناس .. أنا أريدها ألا تعرف أحدا غيرى .. أريد أن أكون لها أما .. وأبا .. وأختا .. زميلة وصديقة .. وكل الناس .
وتوقفت لحظة عن الحديث . مرت بيدها على ظهـــرها .. وتحسست أقدامها الصغيرة الملساء ثم رفعت صوتها ..
ـ هات لها حذائين .. لا .. سبعة أحذية . لكل فستان حذاء . انصرف البائع يحضر الأحذية .. أخذت نوال تتفحص الفساتين .. بينما تصل الى أذنيها همسات عزيزة ..
ـ هم قالوا لى ان شـــاء الله طلبك سيقبل .. ولابد أنهم سيرسلوها .. أنا التى سأذهب الى هناك لأحضرها .. هذا أحسن أليس كذلك ؟ أنا أعتقـــد هـــذا .. لأن قلبى دائما يقـــول لى الحقيقة .. وقلبى يقول لى الآن .. انهم سيلبون طلبى . أنا عندى المال .. عندى الفلوس .. فلوس كثيرة .. وعنـــدى عمارة .. عمـــارة كبيرة انت تعرفينها يا نوال .. سأكتب لها حقى فيها . كل ما أملك سأكتبه لها .. وعندما تكبر سأحدثها عن أشياء كثيرة . سأقول لها يا بنتى .. لقد آذانى أولاد خالتك . كثيرا ما وضعوا المقاعد والأشياء فى طريقى لأتعثر واسقط على الأرض .. ليضحكوا منى .. لقد عانيت منهـــم الكثير .. والأطفال الصغار فى المدرسة .. سألونى كثيرا .. أليس لك أطفال يا أبله ؟
نريد أن نلعب معهم يا أبله ..
ما عدا هذه الأسئلة فأطفال المدرسة طيبون . أولاد حلال . فى الأيام التى كان يهملنى أولاد خالتـــــك يا بنتى كانوا يتسابقون كل منهم يريد ان يأخذ بيدى عبر الشارع الى المدرسة أو البيت . ولكن سؤالهم عن أطفالى كان يزعجنى يا بنتى ..
وضعت العروسة الى صـــدرها . وربتت على كتفها . ثم اســـتمرت فى همسها ..
ـ ولكن بعد الآن لن يزعجنى هـــذا السؤال يا بنتى . وان شاء الله سيكون لك مســـتقبل رائع . سأبنيه لك من الآن . ولكن الخوف من خالتك فقـــد تقتلك . قد تضع لك السم .. أو تصلت عليـــك أولادها .. وأنا لا أراك . فلا تأخذى منها شيئا مطلقـــا .. ومالت العروسة فانطلق صوتها ..
ـ بابا .. ماما ..
ـ وارتفع صوت عزيزة .
ـ مالك يا روح ماما .. ؟؟
ووعت الى نفسها بعـــد هزة من يد نوال .
ـ عزيزة .. مالك يا عزيزة ..



واجابتها عزيزة اجابة من يصحو من اغفاءة ..

ــ لا شيء يا نوال .. لا شيء لقد حلمت قليلا ..

أقبل البائع . وضع الأحذية أمــــام الصديقتين ..

ــ الأحذية يا هانم ..

ــ اختارى ما يناسب يا نوال .

نظر البائع الى نوال وقال ..

ــ كان من الأفضل أن تحضر الفتاةمعكما لتأخذ الأحذية المناسبة .

التفتت نوال الى عزيزة وقالت ..

ــ ما رأيك يا نوال ؟ أعتقد أن هــذاكلام سليم . ننتظر الى أن تأتى البنت. ثم نحضرها معنــا لتأخذ الأحـــذيةالمناسبة .

ضمت عزيزة العروسة الىصدرها..وقالت ..

ــ لا عليك يا نوال .

ثم التفتت الى البائع .

ــ الا تعرف مقاس فى سن الرابعة ؟

ــ لا مؤاخذة يا هانم هى البنت فىمكان بعيد ؟

ــ لا ابدا .. وعلى كل حـــال ..لا تخشى على الأحذية . عندما تحضر

البنت . ويتبين غير صلاحيتها .
أعاهدك أنى لن أردها وسأشترى منك غيرها .. انت لا تعرف يا بنى كم هذه البنت غالية عندى .. انها عندى أغلى من كل شيء .. توكل على الله واحزم الأشياء التى اخذناها .. أما العروسة فاتركها معى كما هى . سأسير فى الشارع وهى على ذراعى ..

ــ أمرك يا هانم . ربنا يخليها لك .. وتتربى فى عزك ..
لو كان كل واحد يعز أولاده مثلك لملأت السعادة البيوت .

وقالت عزيزة فى حماس ..

ــ يجب أن يحسوا اننا أمهاتهم حقا .. أليس كذلك يا نوال ؟؟
آه يا نوال .. اننى اخشى عليها من خالتها وأولادها . انهم شياطين أبالسة . لا يدرون ما يفعلون . لقد عذبونى كثيرا .. لذلك لا أريدها أن تعرفهم ولا تتصل بهم .. انهم ربما يقتلونها .. نعم يا نوال يقتلونها . لأنها ستشاركهم ثروتى بعد موتى .. يجب أن آخذها بعيدا عنهم .. وعن أولاد الشارع لأن أخلاقهم فاسدة لا تعجبنى.

سأذهب بها بعيدا عن الجميع .. لقد قدمت الطلب من مدة طويلة ، وكلما اذهب اليهم يقولون لى .. ان طلبك لم يبحث . لقد تعبت من الذهاب اليهم يا نوال .. أرجوك أن تساعدينى فى هذه المسألة يا نوال .. اذهبى اليهم غدا وقولى لهم اننى اشتريت لها أشياء جميلة حلوة تتمناها كل فتاة . كل بنت تتمنى أن تكون لها مثل هذه الأشياء يا سلام يا نوال .. انت لا تتخيلين كم سأكون سعيدة بهذه البنت . ان العالم سيصبح ملكى .. سأملكه عندما أملكها. سأبعدها عن كل سوء .. سأجعلها تعيش فى جنة يا نوال لأنها ستكون جنتى .. نوال .. لماذا لا تتكلمين يا نوال .. أنا أعرف لقد تعبتك معى كثيرا .. ولكن المسألة ستنتهى قريبا.. سيرسلونها بعد أن تذهبى اليهم .. أنا متأكدة يا نوال .. وسوف تأتين لزيارتنا أنا وهى .. بنتى يا نوال وستدركين مدى اعزازى لها ..

جففت نوال دمعات جالت فى عينيها ونظرت الى عزيزة . وقالت بنبرة مخنوقة ..

ــ ان شاء الله .. هذا أمر لا يحتاج الى توصية يا عزيزة ..

وسرحت بذهنها تسائل نفسها .. وهى تنظر الى عزيزة تحتضن العروسة..

ــ ماذا لو عرفت أن ادارة الملجأ لا يمكن أن تسلم بنتا لامرأة مثلها عمياء فى حاجة الى الرعاية . وكيف أقول لها هذه الحقيقة ؟

انها الآن فى حلم .. ويجب أن تعيش فيه أطول مدة ممكنة .

انا لا أستطيع أن أوقظها منه .. ليوقظها غيرى .. أما أنا فسأقول لها دائما .. ان طلبها لم يبحث بعد .. ثم رفعت صوتها تخاطبها . عندما وصلنا الى باب الحانوت ..

ــ ان شاء الله يا عزيزة ربنا يساعدك ..

خرجنا من الحانوت .. نظرت نوال الى الميدان .. المطر يتساقط عربات الأجرة تتسابق .. الأطفال يجرون . يتشاجرون . يتقاذفون بالحجارة .. عزيزة تحمل العروسة بين ذراعيها



تضمها الى صدرها . كما تضم الأم رضيعها الى ثدييها . سارت مع نوال خطوات فى الطريق .. صرخات الأطفال تصل الى آذانهما .. اقترب منهما طفل . نظر الى العروسة وهو يجرى .. رماه زميله بحصاة أصابت ذراع عزيزة. سقطت العروسة فى الطين .. انحنت عزيزة لتتحسسها . مرت عربة أجرة فى سرعة .. تطاير رذاذ الوحل . فأصاب وجهها ويديها .

أمسكت بها نوال من كتفها جذبتها بعيدا عن الطريق .. مرت عربة أخرى من خلفهما . داست عجلاتها العروسة الملقاة فى الوحل . ارتفع صوت عزيزة..

ـ العروسة يا نوال العروسة ..

ـ معلهش يا عزيزة . نشترى غيرها .. لقد سقطت وداستها العربة..

ـ يا خسارة . كانت جميلة وصوتها حلو .. لازم أشترى غيرها ..

ـ طبعا يا عزيزة .. سنشترى غيرها أحسن منها .. ولكن فى يوم آخر .. فى يوم آخر يا عزيزة ..

ـ ضرورى قبل أن يرسلوا البنت .. لابد أن تكون العروسة عندى يا نوال .. ولا تنسى أن تمرى عليهم غدا ..

ـ ان شاء الله ..

وسارتا فى بطء .. داخل احدى الحارات . يرتفع خلفهما صياح الأطفال يملأ الميدان .. عاد أزيز الطائرات . السماء معتمة .. الرياح سريعة باردة . قطرات المطر تتساقط ترتطم بكل شىء فى الميدان .

« طه حواس »

بائعة البنفسج

قصة : هنرى بوردو

ترجمة : صلاح الدين كامل

هنرى بوردو
١٨٧٠ - ١٦٩٣ م

قصصى فرنسى ، عضو الأكاديمية الفرنسية منذ سنة ١٩١٩ م .

نقل الى العربية ثلاثة من مؤلفاته فى السنين الأخيرة هى : « زواج حرب » و « الابن الضال » و « الحب والخطيئة » .

ويمتاز هذا الكاتب بقصصه الهادفة ، وخاصة ما يتعلق بالمشكلات العائلية ، ومعالجة أسباب التفكك فى الاسرة ، فكان يؤمن دائما بأن الأسرة الأساس الذى يقوم عليه مجتمع فاضل ، فيجب أن يهيأ لها أصلح جو لتربية الناشئة ، فسماه النقاد « روائى الأسرة » .

وأقصوصة بائعة البنفسج التى بين أيدينا تمثل لونا طريفا من قصصه التى تحمل فى ثناياها العبرة والحكمة .

و « بوردو » رغم أنه كاتب قصة طويلة الا أنه لم يكتب من الاقاصيص الا قليلا .

المترجم

- الجو صحو اليوم . هيا بنا نعودسيرا على الأقدام ، ففى ذلك نوع من الرياضة وقلما نقوم الآن بشىء منها .

أقترح ذلك صديقى الروائى الكبيربير لجنيير ثم نادى سائق سيارته فأمره بالانصراف . وقد كان ذلك عقب تناول العشاء فى أحد المطاعم حيث اجتمع فريق من الأدباء المعروفين يتندرون بذكر العقبات التى صادفتهم فى خطواتهم الأولى

لدى خروجنا من المطعم أنا وصديقى بيير وكنا قد تأخرنا عن زملائنا ، اعترضتنا فتاة صغيرة تبيع البنفسج ،مقدمة لنا باقاتها الناضرة ، ملحة أشد الالحاح فى أن نشترى من بضاعتها ..كانت فتاة هزيلة شاحبة محمرة الأنف والعينين ، ترتدى ملابس خفيفة لاتكفى لحمايتها من البرد . ولقد ذكرت حين رؤيتها قول فرنسوا كوبيه فى احدى قصائده الرائعة ، يصف هذا الفريق من الفتيات التعسات : «أولئك اللائى يمتن من الشتاء وهن يقدمن الربيع للناس ! »

وقد استثارت تلك الفتاة شفقتنا • أحسسنا بميل شديد الى التصديق عليها وخاصة فى وقت قد امتلأت فيه بطوننا بعد عشـاء فاخرا • الا أنه كانت هناك عقبة تعترض تنفيذ تلك الرغبة الشريفة• كان علينا أن نفتح معاطفناوسترتنا، وهى حركة مضجرة ثقيلة على النفس • ولقد كان الخياطون فيما مضى يساعدون على الاحسان بأن يعملون للمعاطف جيوبا صغيرة من الخارج توضع فيها العملة القليلة القيمة من الفضة والبرونز ، فكان يسهل على الانسان اخراج هذه النقود دون مشقة • أما الآن فبكل أسف لم يعد هذا الجيب الصغير يتفق مع « المودة » فحذف ، وليست رغبة الاحسان قوية فى النفوس بحيث تدفع الانسان لكى يفك أزرار ملابسه باحثا عن كيس نقوده فيفتحه وبعد ذلك يقفله ويعيده الى مكانه ثم يزرر ملابسه ثانيا!

ـ بخمسين سنتا فقط باقة البنفسج

الجميلة لم تكن تلك الفتاة المسكينة لتفهم ان المسألة ليست مسألة نقود وانما يحتاج الامر الى حركة أو سلسلة حركات مقلقلة ، فاستمرت فى عرضها مخفضة الثمن :

ـ بعشرين سنتا ! •• بعشرة سنتات!

ولقد كان المنظر الذى رأيته بعد ذلك مما أدهشنى • أنا أعرف بير لجنيير من زمن وأعرف فيهمنتهى الكسل • فهو فيما عدا عمله وهو جالس الى مكتبه لا يطيق شيئا يكلفه أقل مشقة أو عناء • ولذا كان عجيبـا حقا ان يقف على الطوار فيخلع قفازه ويفك أزرار معطفهوسترته ثميخرج كيس نقوده فيأخذ منه جنيها يضعه فى بد تلك البائعة الصغيرة !

قالت الفتاة فى مسكنة : « ولكن ليس معى لاعطيك الباقى يا سيدى ! »

ـ لا أريد منك باقيا

فنظرت اليه مشدوهة ثم قالت بعد ان بلعت ريقها :

ـ وهل تريد السلة كلها يا سيدى ؟

ـ كلا ، كلا ، باقة واحدة



– اختر ياسيدى الباقة التى تروقك

الفتاة ان الدهش قد أذهلها فلم تشكر لمن أحسن اليها ، فلحقت بنا وألقت بقية البنفسج تحت أقدامنــا وهى تهمهم . شكرا يا سـيدى ، شـكرا يا سـيدى ، سأذهب الآن لتناول الطعام ! ثم أطلقت لساقيها الريح • لقد فرغت من عملها اليومى وفرغت منه على أحسن حال

والتفت الى صديقى بيير يفسر لى سر تلك النزوة ، فقال :

– لا تدهش لهذا السخاء ، انه دين كان على أن أؤديه – دين ؟!

– نعم • فيما مضى ، كان لبائعة زهور صغيرة مثل هذه تماما الفضل كل الفضل فى انقاذى من فتور الهمة واليأس • ألا يسـاوى ذلك أكثر من عشرين فرنكـا ؟ لقد تذكرت ذلك منذ لحظة ونحن فى المطعم نتحدث عما صادفنا فى خطواتنا الاولى من عقبات • وكان من حظ هذه الفتاة ان انتفعت من وراء تلك الذكرى

وبطبيعة الحال سألته الايضاح فلم يتأخر، قال :

كان ذلك منذ سنوات لست أذكر عددها بالضبط • كنت قد انتهيت من كتابة أول مؤلفاتى • لا تسأل عن اسم هذا الكتاب فانه لحسن الحظ لم يظهر قط ، ولو انى كنت أعتقد فى حينها انه كتاب نموذجى ! وقد اعتنيت بكتابة نسـخة منه بنفس بخط واضح ، اذ فى ذلك الوقت طبعا لم يكن عندى من النقود مايسمح باستئجار نساخ • نسيت أن أقول لك ان أسرتى كانت قدتخلت عنى لسخطها على اشتغالى بصناعة الادب ، وان الجميع كانوا يأملون أن أعود صاغرا حين ترغمنى الحاجة • ولقد صرفت خلال العمل فى اتمام كتابى هذا

كل ما كان مدخرا لدى تقريبا ، ولكن كنت مطمئنا الى ان تلك الصحائف التى تعبت فى تحريرها ســوف تفتح أمامى أبواب الشهرة والثروة على مصراعيها ! حملت الكتاب ونفسى مفعمة بالثقة الى أكبر ناشر كان معروفا فى ذلك الوقت •• الا انه – ويا للخيبة المرة – رده الى بعد قليل مع سيل من الانتقادات القاسية ! فى تلك اللحظة تمنيت لو أتيح لى أن أخنق هذا الناشر خنقا ، اذ لم أفهم فى حينها قيمة ما أبداه من ثاقب الآراء كما لم أقدر عطفه وتسجيله الذى دفعه لقراءة روايتى قراءة سريعة واعطائى درسا فى التأليف القصصى ! ••• سألنى بصوته الخشن : « **كم عمرك ؟** » أجبت : « **ثلاث وعشرون سنه** » فعلق على ذلك بقوله : « **ان الانسان لا يكتب روايات قيمة قبل سن الثلاثين • وعند بلوغك هذه السن ســوف تكتب شيئا يقرأ** » وقد استمر فى حديثه موجها الى كثيرا من النصائح الثمينة التى اكتسبها من تجاربه ، بينما كنت بينى وبين نفسى أسخط عليه وألعنه ••• لقد كنت آخذ كلامه على اعتباره هجوالا نصـحا ! ان الانسان فى سن الثالثة والعشرين يعتبر ابن الثلاثين رجلا عجوزا أو نصف عجوز ، يتصور فى مثل هذه السن المتقدمة سوف يكون شهيرا قد ذاع اسمه بما أخرج من كتب رائجة ! وبطبيعة الحال ســحبت روايتى وقدمتها الى ناشر آخر • ولقد أبقاها هذا الناشر عنده ستة أشهر ثم ردهــا معتذرا فى كلمات رقيقة : « **أنت شخص ذو مواهب ، مواهب من الطبعة الأولى ، ولكن هناك أسبابا خاصة تعوق طبـع روايتك فى الوقت الحاضر ، ونخشى أن يطول انتظارك قبل ان تسمح الظـروف بطبعها** » قلت أحـدث نفسى : « هؤلاء أنــاس ذوو أدب ورقــة وذوق فنى ،

أى خسارة ان تقف الظروف دون قيامهم بطبع كتابى ؟ وعندما عدت الى غرفتى أقلب أوراق مؤلفى الثمين ، تبين لى بجلاء ان هؤلاء القوم الظرفاء المقدرين لمواهبى لم يفتحوا الكتاب ! وقصدت الى دار نشر ثالثة أقل مرتبة من الدارين الأولين ، فكان نصيبى الفشل أيضا. وبعد ذلك بدأت الطواف بالناشرين واحدا بعد واحد ، وفى خلال ذلك الوقت كنت أعطى دروسا فى قواعد اللغة والتاريخ حتى أقوم بأود حياتى ، ولو أنى كنت محتفظا للآداب بكل قلبى باذلا فى سبيلها كل وقتى وجهدى . ولقد صادفت فشلا اثر فشل ، ولكنى تحملت ذلك بصبر وجلد ... الى ان كانت آخر مرة اذ صدمت صدمة مخجلة مزرية بعثت الى نفسى الكلال واليأس ، كنت قد ذهبت بكتابى الى أحد ناشرى الدرجة الثالثة فصرح لى بعد تصفحه بأنه يرفض اخراجه حتى ولو تكفلت أنا بمصاريف الطبع . وقد خرجت من هذه الزيارة وكنت اعتبرها ملاذى الاخير مطعونا فى كبريائى وثقتى بنفسى ، وهو مالا غنى عنه لأديب يريد أن ينتج ويخلق . أحسست بنفسى خائر الهمة أفكر فى الهرب من الميدان والانزواء فى أحد بلاد الريف حيث اشتغل فى عمل عادى يضمن لى العيش فى هدوء . وبينا أنا أسير فى الطريق على غير هدى ، قادتنى قدماى الى هذا المكان أمام المطعم الذى تعشينا فيه الليلة ، واذا ببائعة بنفسج صغيرة مثل تلك الفتاة التى صادفناها الآن تضع تحت أنفى باقة من باقاتها ، فأنهرها رافضا الشراء . الا أنى بحركة آلية لا أدرى علتها قد تتبعتها بنظرى ، فاذا بها تعرض بضاعتها على آخر ثم آخر دون جدوى ، واذا بى أجد تسلية فى مراقبتها ! كم مرة يجب ان تعرض بنفسجها فى سبيل عشرة السنتيمات التى سوف تحصل عليها ؟! تتقدم لهذا ثم لذاك ولا أحد يقف أو يسمع لها .. الكل يسيرون مسرعين ، اذ الكل ذاهبون لتناول العشاء ... بينا هى قد تكون جائعة أحوج ما تكون الى الطعام ، ومع ذلك فهى مثابرة على عرض زهورها دون ملل أو كلال ! وفوق هذا فلكيلا تنفر منها المشترين ، تجدها تبتسم محاولة ان تكسب وجهها المكتئب الحزين تعبير رقة ودعه . وانتهيت الى أنى أخذت أعد المرات التى يقابل عرضها فيها بالرفض ! أتعرف الى اى عدد وصلت ؟

– ثلاثين أم أربعين !

– **كلا ، بل مائتين وخمسين ! وعندما أقول مائتين وخمسين** فانى أعنى ان الواحد والخمسين بعد المائتين كان اياى ، اذ عدت الى الفتاة فأخذت منها باقة وأعطيتها خمسين سنتيما . وثق بأن هذا المبلغ كان اكثر بالنسبة لى وقتئذ من الجنيه الذى دفعته الآن . كان مبلغا جسيما ، ولكنها كانت تستحقه . لقد محت ما كان قد خيم على نفسى من اليأس ، وعنها تلقيت درسا فى المثابرة كان له فى حياتى أثر بعيد ...

القصة الوجودية عند كافكا

ترجمة : أحمد عصام الدين

يحكى التاريخ الأدبى فيقول ان القصة القصيرةهى أقدم أشكال العمل الأدبى طرا ، بل لعلها أول ما عرف الانسان من وسيلة ينقل عن طريقها الى غيره ما يزجى به الوقت فى صحبة ممتعه يوم كان يجتمع الشمل حول نار يصطلى القوم بها ، يردون عنهم غائلة الشتاء ، أو فى حمى شجرة ، يفيئون الى ظلها ، يدفع عنهم قيظ الصيف ، وهم يتجاذبون أطراف الحديث فى سمر شيق ، فيحكى هذا قصة تنقل تجربة الحياة ، ويروى ذاك أخرى تضم بين جنبيها نادرة طريفة .

وقد جرى التطور على القصة القصيرة كما جرى على غيرها مما يضطرب فى الحياة ، فاذا هى فى دور من أدوار حياتها ، أداة يصطنعها الانسان من أجل رسم صورة من صور الحياة ، ينقل فى سياقها عقيدته التى يدين بها ، ومذهبه الذى يعتنقه .

وواحد من المذاهب التى تسربت الى العقيدة الانسانية على مدى واسع ، مذهب الوجودية ، ذلك المذهب الذى يقول بالذاتية والذاتية وحدها ، اذ هى دون الذا تـوالعقلالمعول الوحيد فى عالم تبدو فيه الأشياء وقد خلت من كل معنى ، وبدا العقل سخفا أو ضر بأمن السخف ، وترتب على هذا نتيجة طبيعية ، أن تعين على الانسان وقد جرد مما كان له من معتقدات وتقاليد وعادات هى تكأته فى هذه الحياة الدنيا ، تعين عليه أن يتخذ هو قراراته ، وأن يجد حقائقه التى تسلبالانسان فى رأى كيركينارد سترته البشرية التى ألفها وألفته ما اقترن بالحياة ، تلك الحقائق التى تحطم القناع الذى ينظر المرء من خلال رحلة روحه المعذبة فى « ليل اللاشىء البهيم » .

والوجودية بما اختلف من وجوهها ، وتباين من نظراتها ، تنعكس صورتها فى القصة القصيرة ، فكل قصة قصيرة وضعها قصاص وجودى ترمز لجانب من المذهب ، وتعالج القضية على نحو يطيب للنفس أن تخلد

فترة من الزمن ، فهو يأتيها عن طريق القصـــة ـ الشـــكل الوحيد من أشكال العمل الأدبى الذى يروق لها وتطمئن الى صحبته ٠

وتطل علينا عند هذه النقطة من حديثنا حقيقة لا مناص من ذكرها تلك أن القصة القصيرة الوجودية لا تنتهى أبدا النهاية التقليدية ، فهى ليست قصة قصيرة من الطراز الذى ألفه القارىء ، وانمـا هى تشذ عن القـاعدة التى درجت عليها هذه الصـــورة الادبية ، فهى ، أى القصة الوجودية ، «رقرقة سلوك» أو «خفقة غم» أو «سحابة سقام» أو « حطام علاقة » أو ما اليها ـ انها «رحلة تتم فى غير مكان» هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فان القصـــة الوجودية من شأنها أن تبعث الالم فى النفس الانسانية ، لا لشىء سوى أنها تفترض تجرد الحياة بل هى تجردها من أوهامها وخيالاتها وما اليهـــا من مظاهر خداعها التى تمسك على الانسان وجوده فى هذه الارض ، وهو الذى كله زيف ، وكله باطل ٠

ونحن اذ نوسم صورة القصة الوجودية القصيرة التى توفرت لها ملامح الشكل الادبى كلها ، فهى وحدة قائمة بذاتها ، متمايزة من غيرها ، اننا اذ نفعل ذلك ، انمـــا نمهد طريق الحديث عن عالم من أعلام القصة الوجودية القصـــيرة ، فرانز كافكا ، وعن عمله فى اطار المذهب الذى آمن به ٠

ولد فرانز كافكا فى مدينـــة براغ حاضرة تشيكوسـلوفاكيا عام ١٨٠٣ م ، حيث اتصلت حياته حتى عام ١٩٢٤ ، ولم يسعده الحظ فيرى فى حياته قصـــته الطويلة الكبيرة ترى النور ٠ ومنذ ذلك الوقت أخذت أعماله العظيمة : «القلعة» و «المحاكمة» و «أمريكا» ، وقصصه القصـيرة الكثيرة أخذت تنعم بالانتشار فى أنحاء العالم ٠ والموضوعات التى يعالجها كافكا فى قصصه ، طويلها وقصيرها ، هى القلق المتصل وخيبـة الامل وانعدام الوحدة الكونية ، وجلها موضوعات تلائم عصرا فيه قلق ، خاصا كان أم عاما ، له صفة الوجودية الحقة الاكيدة ٠

بعد هذه الترجمة المقتضبة لحياة فرانز كافكا ، ننتقل الى الـكلام عن الكيان الكافكى فى اطار المذهب الوجودى ، فى محـاولة صادقة الى بيان مدى العلاقة بين الشخص والمذهب فى ضوء عمله الادبى ٠

فى ظل النظر الوجودى ، يغترب الانسان عن نفسه اغترابا يظل يعمق ويعمق حتى تنعدم شخصيته ، ويشكل هذا حجر الزاوية فى بناء كافكا الفنى ٠

ففى قصته الموسومة « راكب » الجردل ، نراه يخرج لنـــا قصـــة « **سيرياليزية فى ذاتها** » اذ كانت تشدد على التفـاصيل أو التفصيلات ، «وجودية فى طالبها» اذ كانت تقدم لنا عالما أصابه الجمود ، تلعب فيه الارادة الانســـانية دورا صغيرا ، أو هى لا تلعب أى دور على الاطلاق ، وتشير البداية ، بداية القصة ، بمـا تبعث من جـو جليدى ، تشير الى نصيب الفرد الذى قد يهلك لحاجته الى سلعة أساسية • انه يحتاجها ومع ذلك لا يمكنه أن يحصل عليها بالوسائل الطبيعية ، فبالنسبة للراكب ، الذى يمتطى صهوة جردله الذى هو جواده ، يصبح البائع الذى لا سبيل الى بلوغه ، فى صورة من الصور ، الها يوزع الفـحم الذى يحفظ الحياة اذا أمكن صاحبها الوصول اليه •

وفى هذه القصة الغريبة التى لا يكاد يحدث فيها شىء ، والتى يبدو فيها رغم هذا كل شىء له وجود ، فى هذه القصة ، يكشف كافكا القناع عن عالم قاس تمتد فيه أكثر أشياء حظا من طابع العـادية ، الى أشكال جديدة ومعان جديدة •• ومثل شخصيات كافكا الاخرى الكثيرة ، يتحتم على الراكب أن يخضع ارادته لارادة الآخرين ، فبغير قرار بائع الفحم أن يعطيه وقودا لن يبقى حيا • وفى هذا ما فيه من السخف ــ سخف عالم لا يمكن أن يأمل فى فهمه • والسخف يشتد ويعمق أكثر من ذى قبل حين لا يقابل الراكب بائع الفحم اطلاقا • فعلى نحو ما فى مؤلفه المعروف: «القلعة» يعترض طريق الشخص عائق قبل وصوله الى وجهته ، فيحول دون بلوغه غايته ، يجد الراكب ملتمسه تعترض عليه زوجة التاجر ، وهى التى تتابع تبليغ المعلومات الخاطئة الى زوجها ثانية • وهكذا لايتصل الراكب بالشخص الوحيد الذى يمكنه أن يمد له يد المعونة ، وبغير المعرفة والفهم وتحقيق ذاتيته ، يصعد صاحبنا طريقه الى «موت متجمد» ، وقد أغلق على نفسه فى داخلها ، وهو يلعن قسوة الدنيا •

وفى فرانز كافكا يقدم الانسان دائما الى ساحة القضـاء ، فاذا هو مذنب ، يدينه ذنب لا يدريه ، ويلقى جزاءه عقابا لم يقترف جريمة يستحقه من أجلها ، فهو الضحية البريئة لقوة ليس من يخفف غلواءها حياله •

ولا يملك الا أن يندب حظه وينتحب : « **أنا هنا ، وأكثر من هذا لا أعرف ، وأبعد من هذا لها يمكننى أن أذهب • ان جردلى لا دفة له ، وتسوقه الرياح التى تهب وتسفى فى مناطق الموت • وحتى هذه الصيحة تذهب صرخة فى واد ، واذا كان هناك فحم يحصل البعض عليه ، فان لى البرد والزمهرير** » •

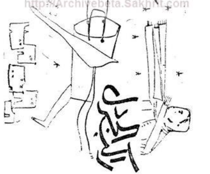
وتذهب بصيرة كافكا أبعد مما تذهب بصيرة ديستيوفسكى من حيث الثبات وعدم التغير • فهى تنكر على الانسان الحرية ، وهى تنكر عليه الذعر من الاختيار ، ثم هى تنكر عليه فى النهاية أن يمكن وجود السلام•

ان «راكب الجردل» يثور على نظام الاشياء ، ولكنه بوصفه متمردا ، اذا به « ضحية أوفق » ففى عالمه ، يستحيل عصـــيان راكب الجردل الى ســخافة ، حين يقع التعبير عنه على آذان صماء • ان راكب الجردل ، هو فى حقيقته الضحية السخيفة ، أو ضحية السخف ، انه العاصى الفاشل ، « المخبول الكونى » •

والشخصيات فى قصص كافكا بعد الذى ذكرت ، شخصيات تحظى بقدر غير ضئيل من الواقعية ، الا أنها واقعية تقل عن نصيب مثيلاتها منها عند قصاصين وجوديين آخرين مثل سيزار بافيس الايطالى • كمـــا أن المفردات التى هى تفاصيل فى القصة تكثر كثرة لا تخفى على عين تلحظ ، الا أنها تزيد فى جملتها عن نصيب قصص وجوديين آخرين منها ، مثل صمويل بيكيت الايرلندى • والتفاوت فى النصيب تبـــاين فى التناول الفنى ، يشكل على نحو من الانحاء مدى الفرق فى النظر الى الاشياء ، كان هذا النظر فى ظل المذهب الوجودى أو غيره ••

هذا هو فرانز كافكا ، وهذه هى نظرته الوجودية الى الدنيـــا وما يضطرب فيها من بشر ، وما تحفل به من أحداث ، وتزخر به من أوضاع تنتظمها الحياة الانسانية •

وأسلم القــارىء بعد هذا الى قصة « راكب الجردل » التى تناولت الحديث عنهـــا بسبيل التمثيل للقصة الوجودية عند كافكا ، موضوع مقالى •



نفد الفحم جميعه ، الجردل فارغ ، الجاروف لا فائدة منــه ، الموقد ينفث البرد ، الغرفة تتجمد ، الأوراق خارج النافذة ، متصلبة يغطيها التراب القذر ، الســماء درع فضى فى وجه كل من يتطلع اليها فى طلب العون منها • انه يتحتم على الحصـــول على فحم ، انى لا يمكنني أن أتجمد حتى الموت •• الى ورائى يقبع الموقد الذى توقف نبضـه بالشفقة ، وأمامى السماء التى لا تنم عن شفقة تضطرب بين جنبيها ، ومن ثم فلا بد أن أخرج راكبا بين الاثنين ، وفى

رحلتي أسعى الى العون من جانب بائع الفحم . ولكنه قد غدا أصما فهو لا يسمع الى المناشدات العادية . انى لا بد أن أقيم له الدليل في صورة لا تقبل التفنيد أني لم يعد في حوزتي قطعة فحم واحدة ، وأنه أصبح يعني لى ما تعنيه الشمس ذاتها في كبد السماء . لا بد لى أن أتقدم اليه مثل شحاذ يصر ، وقد أخذت حشرجة الموت تتردد في حلقه ، يصر على الموت على عتبة الباب ،والذى يقررها هي الشعب الأعظم على أساس من هذا أن يعطيه ثمالة براد القهوة . على هذا النسق ، لا بد أن يلقى المرء بائع الفحم، وقد امتلأ قلبه (قلب بائع الفحم) حنقا وغيظا ، ولنه يعترف بالوصية : « انك لن تقتل » ، لا بد أن يلقى ملء جاروف من الفحم في جردلي .

ان طريقة وصولى يجب أن تقرر الأمر ، ومن ثم فانا أركب جردلي وأنطلق ان يداى وقد استقر بى المقام على الجردل في هيئة مقعد لى ، تمسك بيده ، أبسط أنواع اللجام ، ثم أنا أدفع نفسى قدما هابطا الدرج ، ولكنى لا أكاد يستقر بى المقام في أسفل الدار ،حتى يصعد جردلى في صورة رائعة ، في صورة رائعة . وان الجمال التى تجلس القرفصاء في تواضع على الأرض لا تنهض في هيئة أو في حظا من الهيبة ، وهى تهز قوامها تحت لفحات عصى حداتها . ونمضى خلال الشوارع التى تجمدت صفحتها ، نخطو خطوا حثيثا منتظما ، وبينما نحن نمضى يرتفع مقامى في أغلب الأحيان ، فاذا هو يعلو بما يوازى ارتفاع الطابق الأول في منزل ، وما أغرق أبدا ، فأبلغ درجة من الانخفاض أحاذى عندها أبواب المنازل . وفى النهاية أطفو على ارتفاع غير طبيعى فوق سرداب البائع الذى تغطيه الأقبية ، ذلك البائع الذى أراه أسفل منى الى بعيد يجثم على منضدته ، حيث يمضى في الكتابة ، وكان قد فتح الباب حتى يجد متنفسا تخرج منه الحرارة الزائدة .

فأصرخ : « أى بائع الفحم ! » وتدوى صرختي في صوت احترق فغدا أجوف بفعل الجليد ، وخفت فيما أثرت من سحابة نسجت رقعتها أنفاسى . « **من فضلك يا بائع الفحم ، اعطنى قليلا من الفحم ، ان جردلى خفيف الى درجة اننى أستطيع ركوبه . تعطف ، وحين يتيسر لى ، سوف أدفع لك** . »

ويضع بائع الفحم يده الى أذنه : «**هل** أسمع حقا ؟ » يلقى بالسؤال عبر كتفه الى زوجته . « أو أسمع حقا ؟ زبون» .

تقول الزوجة : « **انى لا أسمع شيئا** » وأنفاسها تشوقوتزفر وهى تعمل ابرتها في لفة الخيط التى معها ، وقد تدثر ظهرها بالدفء الجميل الذى تشعه الحرارة .

فأصرخ : «**أوه . نعم يجب أن تسمع انى زبون قديم ، مخلص أمين ، الا أنى أعدم الآن القدرة على الدفع** » .

فيقول بائع الفحم : « **زوجتى . ثمة شخص هناك . لا بد . ان أذناى لايمكن أن تكونا قد خدعتاني الى هذا الحد . لا بد أنه عميل قديم ، قديم جدا ، حتى أنه يستطيع أن يحركني ، بل يثير عاطفتي الى هذا المدى العميق** » .

فتقول الزوجة : « **ماذا يعنيك أيها الرجل** » ، تقولها وقد توقفت عن العمل لحظة تضغط شغل ابرتها على صدرها ، « **ليس هناك شخص ما . فالشارع خلا من المارة ، وكل عملائنا**

قد حصلوا على حاجتهم من فحمنا ، انه ليمكن لك أن تغلق الحانوت أياما عديدة، ونستريح شيئا » .

فأصرخ : «**ولكنني أجلس هنا فى عال فوق جردلى**» . وتغرورق عيناى بدموع تتجمد فهى لاحظ لها من احساس .

فأعاود الكلام : « **من فضلك ، أنظر الى أعلى ، هنا ، مرة واحدة فقط ،فسوف ترانى فى الحال ، أتوسل اليك . ملء جاروف واحد فقط . واذا أعطينى أكثر فانك سوف تسعدنى الى درجة أنى لن أعرف . ماذا أفعل . ان كل الزبائن الآخرين قد نالوا قسطهم من زادك ، أوه لو أنى استطعت سماع الفحم تخبط قطعة واحدة منه الأخرى داخل الجردل !** » .

يقول بائع الفحم : « **انى قادم !** » **ويأخذ يتسلق على رجليه القصيرتين** درجات السرداب ، الا أن زوجته قد وقفت من قبل الى جانبه ، فاذا هى ترده الى وراء بذراعيها وهى تقول : « عليك أن تبقى هنا . واذا وجدتك تصر على أوهامك وأخيلتك ، فسأذهب بنفسى . اذكر نوبة السعال السيئة التى لعبت بك الليل طوله . ولكن من أجل قطعة من العمل ، حتى ولو كانت عملية تخيلتها فى رأسك ، أراك مستعدا أن تنسى زوجتك وأطفالك وتضحى برئتيك . سأذهب أنا » .

– «**اذن ، فتأكدى أن تخبريه بجميع أنواع الفحم التى لدينا خزين منها ، وسوف أرفع عقيدتى معلنا الأسعار فى أثرك** » .

فتقول الزوجة : « **حسنا** » ، وتعتلى الدرج الى الشارع . وطبيعى أن ترانى على الفور . فأصرخ : « أى زوجة بائع الفحم ، تحياتى المتواضعة . ملء جاروف واحد من الفحم . هنا فى جردلى وسأحمله الى البيت بنفسى ، ملء جاروف واحد من أسوأ أنواع الفحم لديكم ، وسأدفع القيمة كلها طبعا ، الا أنى لن أفعل الآن للتو . » كم كان لهذه العبارة « ليس على الفور » من وقع مثل صوت دقات الناقوس يعلن وفاة راحل عن الدنيا ، وكم بدت العبارة محيرة وقد أخذت تختلط مع أنغام المساء الصادرة من برج الكنيسة التى تقوم قريبا من المكان !

يصيح البائع : « حسنا ، ماذا يريد ؟ » فترد زوجته عليه الصيحة قائلة : «**لاشيء**» ، وتمضى بعدها فتقول: « **لا شيء هنا ، انى لا أرى شيئا . انى لا أسمع شيئا . وانما تدق الساعة السادسة . ويجب أن تغلق الحانوت . ان البرد يثير الذعر فى النفوس ،وسوف يكون لدينا الكثير نعمله فى الغد ثانية**».

انها لا ترى شيئا ، ولا تسمع شيئا ، ولكنها سواء ترخى خيوط مرولتها وتلوح بها تبعد عن المكان . وتنجح لسوء الحظ . فان جردلى له فضائل الجواد الطيب كلها الا القدرة على المقاومة، فهذه لا تتوفر له . انه خفيف للغاية . ان ميدعة امرأة تستطيع أن تدفعه طائرا فى الهواء .

فأصيح فى وجهها : « **أيتها المرأة الخبيثة !** » ، بينما تلوح هى ، وقد استدارت تدخل سردابها يتوزعها الشعور بالازدراء والطمأنينة ، تلوح بميدعتها فى الهواء . «أيتها المرأة الخبيثة! **لقد رجوت ملء جاروف من أسوأ أنواع الفحم ، وأبيتيه على** » . وبهذه الصيحة اتخذ طريقى صعدا الى مناطق الجبال الجليدية ، وأفقد حياتى الى الأبد .

نشأة القصة

فى الأدب التركى

بحث : أكمل الدين إحسان

ان القصة كنتاج أدبى مصدره رغبة الانسان فى التعبير عن حوادث مثيرة وفى أن يسمعها وينقب عن أسبابها ودوافعها القديمة قدم رغبته هذه وقدم احتياجه لها ، ولذا فهى ليست بجديدة على الأدب التركى كما أنها لم تكن جديدة على آداب الأمم الأخرى ٠

فلقد بدأت القصة فى الأدب التركى كما بدأت فى الآداب الأخرى بالأساطير التى كان عمادها الدين والبطولة ، واستمرت ممثلة فى الحكايات المنظومة ٠ فعندما بدأ الأتراك يهاجرون من وطنهم الأم فى آسيا الكبرى الى الأناضول (آسيا الصغرى) كانت تعيش على ألسنتهم حكايات دده قورقوت ، وبعد أن تم لهم الاستقرار أخذ المثقفون منهم يعنون بالقصص الاسلامية الكلاسيكية مثل مجنون ليلى ، خسرو وشيرين ، يوسف وزليخا ، وغيرها ٠

واستمرت القصة التركية من ناحية تطرق هذه الموضوعات الكلاسيكية ومن ناحية أخرى تتناول موضوعات محلية ، كل هذا فى القالب الشعرى المعروف باسم « المثنوى » ٠

كذلك كانت الملاحم الشعبية تتردد على ألسنة الشعب مثل ملحمة « على وحمزة » و « كورا اوغلى » وحكايات « فرهاد وشيرين » ، و « كرم وأصلى » و «خنجر لى خانم » ، وكذلك قصص المداحين ٠ ولقد كانت البطولة هى العنصر الأساسى فى كل هذه الأشكال القصصية والتى كان معظمها يجرى حول التضحية فى سبيل الدين والحب ٠

وهكذا ظل الأدب التركى يزخر بهذه الأنماط الشرقية القديمة فى فن القصة حتى بدأ مفهوم القصة الحديثة بشكلها الأوربى ينتقل الى الأدب التركى مع فجر ما يعرف فى التاريخ العثمانى باسم « عهد التنظيمات » الذى يجمل بنا هنا أن نشير اليه اشارة اجمالية تمكننا من تفهم الجو العام الذى بدأت فيه القصة التركية بشكلها الحديث والتى هى أساس بحثنا هذا ٠

كانت الدولة العثمانية تسير نحو الضعف والتفــكك بكل عناصرها بعد أن وصلت فى القرن السادس عشر الى أوج رفعتها حين كانت تشكل أقوى قدرة سياسية وعسكرية فى العالم آنذاك ، واستمرت فى تدهورها هذا حتى أحس بعض رجالها المخلصين وعلى رأسهم السلطان عبد المجيد بأنه يتحتم عليهم أن يأخذوا بأســباب الحضارة الاوربية ليدعموا الدولة وينقذوها من الانهيار ولكى تسـتطيع الدولة أن تستعيد سابق قوتها وقدرتها لمجابهة قوى الدول الاستعمارية الأوربية التى كانت تتحين الفرص للانقضاض على أجزاء الدولة المترامية •

لذا فقد أصدر السلطان عبد المجيد سنة ١٨٣٩ « فرمانا » يعرف باســم « كلخانه خط همايونى » أى « مرسوم كلخانة السلطانى » وكلخانة اسم الميــدان الذى قرىء فيه هذا الفرمان وكان أبرز ما جاء فيه : ــ

- **أن المسلمين وغير المسلمين سواء أمام القــانون وأنهم آمنون على حياتهم وأموالهم وأعراضهم •**
- **أن الضرائب ستحصل بشكل منتظم وحسب قدرة كل شخص •**
- **القضاء على الرشوة •**
- **لايعاقب أحد الا بناء على حكم المحكمة ، ولا يعدم أحد الا بحكم المحكمة •**
- **تحدد مدة الخدمة العسكرية**

ولقد كان لهذا الفرمان وما تلاه من فرمانات أخرى أثر كبير فى تطوير الحياة الاجتماعية والثقافية والاقتصادية فى الدولة العثمانية ، فأخذت الحياة تتغير ودبت فيها مظاهر الحضارة الأوربية وأنشئت المدارس الحديثة التى أخذت تعنى باللغات الأوربية وخاصة الفرنسية ، وبذا استطاع الشباب التركى أن يطلع على الآداب الغربية وان كان أكثر اطلاعه على الأدب الفرنسى وكنتيجة طبيعية لهـذا التطور الاجتماعى والثقافى أخذ الأدب التركى يتطور بدوره ويأخذ بالأنماط الأدبية الأوربية من صحافة وقصة ومسرحية وأخذت لغة الأدب من نثر وشعر هى الأخرى تتطور وتقترب من لغة الشعب بعد أن كانت هنــاك هوة كبيرة تفصل اللغتين • ويعرف الأدب التركى الذى ظهر فى هذه الفترة باسم « أدب عصر التنظيمات » أو « أدب التنظيمات » •

ومن الطبيعى أن تكون الترجمة هى أول وسيلة يتعرف بها الأدب التركى على القصة الاوربية وكانت أول قصة ترجمت الى التركية هى قصة « تلماك » ترجمهــا **يوسف كمال باشا** سنة ١٨٦٢ بأسلوب تغلب عليه الصناعة اللفظية • وهى تعتبر بداية لحركة ترجمة القصص الأوربى ، وبعد ذلك نشر ملخص لقصة « **البؤسـاء** » تباعا فى جريدة « **حوادث** » **وأعقب هذا ترجمة لقصة** « **روبنســون كروزو** » عن الترجمة العربية لها (**سنة ١٨٦٤**) ، وهذه الترجمة بالقياس لترجمة **يوسف كمال باشا** لتلماك تعتبر خطوة تقدم كبيرة فى تطور النثر التركى •

ونشطت حركة الترجمة بعد هذا فترجمت **بول وفرجينى** (١٨٧٠) **ومونت كريستو** ، **والشيطان الأعرج** • وبهذا ترجمت بعض النماذج القصصــية لفيكتور هوجو واسكندر دوماس الأب وأنارد كليف ، ودانيل دوفوا ، وفولتير •

وللأسف لم تكن حركة الترجمة هذه تسير وفق مخطط معين بل انها كانت متروكة لرغبات المترجمين وقدراتهم الثقافية المحدودة ، وباستثناء قصة أو اثنتين لهوجو وفولتير فاننا لانجد فى المترجمات التى ظهرت آنذاك شيئا من النماذج الأدبية الأصيلة ، فلا نجد مثلا مترجمات لسرفانتس أو بلزاك أو ديكنز •

ولا شك أن هذا أمر طبيعى بسبب عدم انتظام العلاقة بين الثقافة التركية والثقافة الغربية • ومع هذا فانه لايمكن انكار أثر هذه المترجمات فى تقريب المفهوم الأوربى المتطور للقصة الى العقلية التركية •

وقد ساعد تقدم الطباعة والصحافة وانتشارهما على تكوين جمهور كبير من قارئى القصة المترجمة ، وان كان جل هم هذا الجمهور أن يبحث عن عنصر الخيال والمغامرة فى القصة دون أن يعبأ بالعناصر الفكرية والنفسية فيها •

وهكذا باطلاع الأدباء الأتراك على القصص الأوربى وتذوق القراء للفن القصصى المترجم أصبح الطريق ممهدا بعض الشىء لظهور القصة التركية الحديثة -

● الفن القصصى فى أدب التنظيمات ●

يمكننا أن نقسم القصص التى ظهرت فى أدب التنظيمات الى نوعين رئيسيين هما القصة الشعبية والقصة الأدبية (أو الفنية) •

أولا : القصة الشعبية : - (المقصود هنا من القصة الشعبية هو القصة على المستوى الشعبى أو العامى وليس القصة الفولكلورية)

هذا النوع الأدبى كان أسبق الى الظهور بطبيعة الحال • وأول قصة ظهرت هى « قصة دون حصة » لأحمد مدحت أفندى أول الروائيين الأتراك (نشرت ١٨٧٠)، وفى نفس السنة بدأ ينشر مجموعة من القصص تحت اسم « لطائف روايات » استمر يصدرها حتى سنة ١٨٩٥ حتى اكتملت خمس وعشرون مجلدا تحتوى ٢٨ قصة ما بين قصص مترجمة حرفيا أو بتصرف قليل أو كبير وما بين مؤلف ومختصر لأعمال أوربية •

وفى نفس الفترة التى كان يصدر فيها أحمد مدحت « لطائف روايات » أصدر أمين نهاد بك سلسلة « مسامرات نامة » أى كتاب المسامرات ، والمسامرات نوع أدبى عرف فى الشرق والغرب وهى حكايات تقص مغامرات وحوادث شيقة تروى فى مجالس الأصدقاء واجتماعاتهم • ولا شك أن أحمد مدحت كان رائد هذا النوع وبطله •

ولد أحمد مدحت أفندى (١٨٤٤ - ١٩١٣) فى استانبول فى حى شعبى من أب كان يعمل تاجرا للفاكهة استقر به المقام فى استانبول بعد أن هاجر من قريته فى الأناضول طلبا للرزق •

نشأ أحمد مدحت نشأة متواضعة ، لكنه استطاع بذكائه أن يصل من مجرد كتابة المقالات الصغيرة فى مجلات الولاية الى أن يصبح أكثر الكتاب الاتراك شعبية وانتاجا •

كان يطرق باب كل موضوع ويكتب فيه ، وكان فى كل كتابته كأنما أوكل اليه أن يعلم الشعب التركى وأن يثقفه الثقافة التى يحتاجها فى تلك المرحلة لذا أطلق عليه أحد مؤرخى الأدب التركى اسم « **الموسوعى الشعبى** »

وكنماذج مميزة لهذا النوع القصصى نعرض بعض أعمال أحمد مدحت ٠

١ – من قصص المغامرات : حسن الملاح (نشرت ١٨٧٤) ٠

كتبها أحمد مدحت على غرار مونت كريستو لالسكندر دوماس ، وقال أنه عندما قرأ رواية مونت كريستو أحس برغبة شديدة فى أن يكتب « نظيرة » لهـا فكتب حسن الملاح ٠

تدور حوادث هذه القصة فى البحر الابيض ، وتنتقـل بين مصر والجزائر ومراكش واسبانيا واستانبول والشام ٠ ينقذ فيها القرصان حسن الملاح فتـاة اسمها « جوزالا » من الغرق وكانت مفرطة الجمال ، شديدة العفاف ٠

ومحور القصة ، حب عفيف ينشأ بين الفتاة وشاب اسمه « ألفونس »

وتتوالى هذه الرواية فى مغامرات وحوادث طويلة لاطائل تحتها ٠

وكتب أحمد مدحت روايات مغامرات أخرى استلهم موضوعاتهـا من التـاريخ العربى والعثمانى فى اطارهما الاسلامى المشترك ٠

٢ – من القصص الاجتماعى :

(أ) فلاطونى بك وراقم أفندى

« **فلاطونى بك** شاب متفرنج ومتحذلق يدعى أنه يعمل كاتبـا ومؤلفا ، ينفق كل وقته فى حى السفاهة والملاهى فى استانبول حى « بك أوغلى » ، يقع فلاطونى فى حبالة غانية من غوانى الملاهى ، تبدد وتبتز منه ثروته الطائلة التى ورثها عن أبيه أما راقم أفندى فهو مثال الشاب العصامى الذى نشأ يتيما فلم يكن له سند ولا معين الا علمه وذكاؤه ، تعلم فأتقن الفرنسية وحذق الترجمة فكانت مورد رزق له ، كان يدرس لابناء أحد الانجليز اللغة التركية حيث يلتقى بفلاطونى بك فى منزل الانجليزى وتستمر القصة معتمدة على المفارقات التى تحدث بينهما » ٠

ونستطيع أن نرى أن أراقم أفندى ليس الا أحمد مدحت ذاته ، ولقد عكس أحمد مدحت كل خصائص شخصيته على شخصية راقم هذا ، فهو عصامى النشأة ، دؤوب ، يصفه بأنه « مكنة شغل » كما كان الادباء المعاصرون يصفـونه بأنه « مكنة تأليف » ٠

(ب) قصة « أسارت » ٠

« أسارت » تعنى الرق وهى ذات مغزى وأهمية معينة لأنها طرقت مشـكلة الرق والتى كانت تعيش فى المجتمع الشرقى آنذاك ٠

« يملك أحد أثرياء استانبول جارية تعهـدها بالتربية منذ الصـغر على أن يتزوجها لكنها كانت تحب عبدا لهذا السيد الثرى ، ويعلم السيد بأمر هذا الحب فيعانى من انصراف قلب الجارية عنه الى هذا العبد ، وتأخذه الغيرة ، لكنه آخر الأمر يتغلب على رغبته ويوافق على زواجهما ٠

وفى ليلة الزفاف أخذ العبد والجارية يقص كل على الآخر قصة عبوديتـه وكيف أن النخاسين خطفوهما وكيف استقر بهما المقام فى منزل هذا السيد ولكن وياللدهشة !! يتضح أنهما أخوان شقيقان فرق بينهما الرق ثم جمعهما ، تحابا وهما اخوان ، واسقط فى أيديهما أمام هذه الكارثة فيقتل كلا منهما الآخر وبذلك يضعان حدا لحياتهما وحبهما وعبوديتهما » ٠

ولقد طرق الروائيون والقصاصون الأتراك هذا الموضوع مرارا وسوف نشير اليه فيما بعد بشيء من التفصيل لأهميته .

وبعد استعراض بعض نماذج هذا النوع القصصي يحسن بنا أن نقف عند اسم هاتين المجموعتين ونتأملهما . أولا « لطائف روايات » توحي للانسان بأنها مجموعة منتخبة من بين عدد كبير من القصص . « والمسامراتنامه » تذكرنا باجتماع الاصدقاء فى ليالى السمر . اذن فهذين الكاتبين ارادا بقصصهما أن يكونا امتدادا للحكاية والقصة الشرقية القديمة .

وفى هذه التجارب الأولية لانجد أى شخصيات متميزة أو أى تحليل نفسى أو أى محاولة لتجسيم الحياة المعاشة ، لكن ترتيب الحوادث والعلاقات التى بين الأبطال والمحيط وأسلوب التعليق على الحوادث ، كل هذا كان لاشك فى شكل مغاير لشكل الحكاية أو القصة الشرقية القديمة وأقرب للشكل الأوربى .

الرواية الأدبية .

ظهرت أول رواية تركية أدبية سنة ١٨٧٦ للاديب الوطنى التركى الكبير نامق كمال (١٨٤٠ — ١٨٨٨) وهو من أشهر الأدباء والشعراء الأتراك فى القرن التاسع عشر عرف بنضاله الوطنى فى سبيل الحياة الدستورية والحرية ، كان شعره ينبض بالوطنية ويفيض بالحماسة وكانت له يد طولى فى تقدم الأدب التركى الحديث .

وتعتبر روايته « انتباه » أول رواية تركية ذات محتوى أدبى . وهى تعرض انطاع من الحياة التركية داخل المدينة (استانبول بالذات) .

على بك بطل الرواية شاب فى ريعان شبابه آلت اليه ثروة طائلة ، وقع فى غرام غانية اسمها « ماهبيكر » ولم تكن والدته راضية عن هذا الحب الآثم فحاولت أن تحول قلبه عنها الى جارية جميلة اسمها « ديلاشوب » وتهيم الجارية حبا بسيدها « على بك » لكن قلبه منصرف عنها الى (ماهبيكر) الغانية الفاتنة . وتغضب الأم من ابنها وذات مرة يذهب على بك الى بيت عشيقته فلا يجدها وينتظرها نصف ساعة ثم يحدث بينهما خلاف وسوء تفاهم فيقطع علاقته بها . وتتجسم أمام عينيه صورة الجارية المخلصة « ديلاشوب » ويعود الى بيته والى أمه ويبـــدأ غرامه الجديد مع ديلاشوب ، وعندما بلغ أمر هذا الغرام الى ماهبيكر أضمرت لهما الحقد والحســد وكادت لديلاشوب وكانت قد رأتها فى أحد الحمامات وتعرفت على بعض أوصاف جسمها واستطاعت أن تعرف بعض أسرارها بواسطة « دلالة » كانت تتردد على بيت على بك وتخبره ماهبيكر بهذه الاسرار وتثبت له أن جاريته هذه انما تخونه مع غيره . فيثور على بك ويستشيط غضبا ويضرب جاريته ويذهب بها الى سوق النخاسة ويبيعها فتشتريها ماهبيكر نكاية به وانتقاما منها ، لكنه رغم هذا لم يعد الى غانيته ، مما زادها حقدا وضغينة لعاشقها السابق فتسعى للانتقام منه ، فتدعوه الى احدى الأوكار حيث تدبر له مكيدة ، لكن جاريته الوفية تخبره بما أضمروا له عند وصوله الوكر ، فيهرب وينجو وتتدثر هى بمعطفه لكى تهرب فيقتلونها ظنا منهم بأنها « على بك » وينتقم على بك لجاريته المخلصة بقتل ماهبيكر ») .

وفى هذه الرواية تظهر أيضا كما فى أعمال أحمد مدحت عدم الدراية بأحوال

النفس البشرية أو اظهارها فى صورة واضحة فى العمل الأدبى ، وتسود الرواية اخلاقية لاتقبل الأحوال الطبيعية للنفس البشرية ، وتفهم الحياة اجمالا دون أدنى تسامح ، اخلاقية لم تحدد غايتها تحديدا واضحا ، ولا يسمع صوتها جليا . ويمكننا ان نعتبر القسم الاول الذى ينتهى بانفصال علي بك عن ماهبيكر كعمل مستقل ، وفى الحقيقة فان هذا القسم الذى يشغل أكثر من نصف الرواية نستطيع أن نقرأه بتشوق على أنه قصة من القصص القديم .

ويظهر فى الرواية عدم تمكن الكاتب تمكنا كاملا من « التكنيك » القصصى ، فان أسلوبه المنمق الزاخر بالأخيلة يقطع الخط الدرامى لرواياته ويمنع الأشخاص فيها عن أن تعبر عن ذاتها بما لها من امكانيات فنية كما أنه يقطع التسلسل الطبيعى للأحداث . فالكاتب يتخذ صورة رجل الأخلاق ، الذى لايترك الفرصة للأشخاص لأن تكون هى نفسها .

ولا شك فى أن أكثر الشخصيات حيوية هى شخصية (ما هبيكر) ولكن يجب علينا أن نتناولها كما هى وليس تحت ذلك الشعاع الذى سلطه الكاتب عليها فقارىء الرواية يسمع اعتراضات ماهبيكر على أن تكون هى تلك التى أراد الكاتب قسرا أن تكون ، يسمع هذا فى صوت أعلى من صوت الكاتب ، كأنها تقول « أنا لست هذه .. أنا لم أكن ذلك الشخص الذى تصورتموه ... دعونى أعبر صادقة عن ذاتى وأن أقدم لكم صورتى الحقيقية .. »

لكن نامق كمال يقاطعها فى كل مرة ويحيطها بالأحكام الصارمة وبأقسى الكلمات وفى الحقيقة فان الكاتب يعانى هنا ازدواجا ، فمن ناحية يريد أن يظهر العلاقة التى بين علي بك وماهبيكر (فى القسم الاول من الرواية) فى شكل قوى ، ومن ناحية أخرى يقدم للقارىء هذه العلاقة بصورة منفرة ..

وتعتبر الليلة التى أمضاها علي بك وحيدا فى بيت ماهبيكر مفتاح الرواية ، فان العاشق الذى ذهب الى بيت حبيبته خارجا على ارادة أمه ، عندما لم يجد حبيبته لايعانى أكثر من نصف ساعة ، ولا يشعر بأى شعور بالغيرة ! لكنه يندم فقط لعصيانه أمر أمه ، ولأنه انساق فى علاقة غير بريئة مع ماهبيكر ، ثم هو يكرها لأنها كانت السبب فى ذلك !!

ومن الواضح أن شخصية « ديلاشوب » ــ وهى كالحمل الوديع الطيع التى علق قلبها بعلي بك من أول وهلة ــ تبقى باهتة بجانب شخصية ماهبيكر أو بالأحرى فان هذه الجارية تعتبر مفقودة الشخصية تقريبا ، انما أراد الكاتب أن يبدعها كنموذج للطهارة فى مقابل الدنس ... حب الروح فى مقابل حب الجسد ، ورغم أن ملامح وخطوط شخصيتى ديلاشوب وما هبيكر على طرفى نقيض ، فلا نكاد نرى فى الرواية الا امتداد شخصية ماهبيكر ولا شك فى أن نامق كمال قد تأثر تأثرا كبيرا ب (غادة الكاميليا) ، لدوماس الابن ، لكن نامق المسلم الذى يؤمن بالاخلاق الدينية ، وبرباط الاسرة الوثيق لم يكن يستطيع أن يظهر امرأة ساقطة على نحو آخر يخالف ما أراد لها أن تكون فى روايته هذه ، وعلى هذا لم يكن أمامه الا أن يقسم شخصية ماهبيكر المستوحاة من غادة الكاميليا الى شخصيتين احداهما مفترسة والاخرى وديعة .

ومن أوجه التشابه الاخرى بين «انتباه» و «غادة الكاميليا» مشهد على بك وهو يقذف بأوراق البنكنوت فى وجه ماهبيكر بعد أن ضربها ضربا مبرحا يشبه الحركة الاخيرة من مشهد لعب القمار فى رواية دوماس ·

ويقتل ديلاشوب وبانتقال على بك لها بقتل ماهبيكر تنتهى الرواية نهاية ميلودرامية حزينة ·

ومن الملاحظ أن نامق كمال فى اتجاهه نحو الرواية الحديثة كان شديد التأثر بنمط القصة القديمة وخصائصها فى التصوير والتحليل ، ويمكن القول أنه كتب رواية «انتباه» هذه محاولا الاستفادة من عناصر القصة القديمة ، فمثلا تصوير الربيع الذى فى أول الرواية ، أشبه ما يكون بالنسيب الذى يكون فى أول القصائد القديمة ·

٢ ــ جزمى :

وهى ثانى رواية «أدبية» نشرها نامق سنة ١٨٨٠ ، وهى ذات موضوع تاريخى وهى أطول من «انتباه» وحوادثها أكثر تعقيدا ، وذكر المؤلف أنه سيصدرها على مرتين ولكن لم يصدر منها الا الجزء الاول فقط ·

تدور حوادث الرواية فى عهد السلطان مراد الثالث (١٥٧٤ ــ ١٥٩٤) أثناء حرب الدولة العثمانية مع الشيعة ، وجزمى بطل الرواية محارب جسور ذو روح شاعرة ، يتطوع فى الحرب ويظهر شجاعة نادرة وينقذ أحد القواد من الموت فينال بفدائه هذا الحظوة عند قواده ·

وفى أثناء الحرب يتعرف على قائد جيش القرم عادل كراى وينال تقديره ·

ويقع عادل كراى أسيرا فى يد الشيعة (الصفويين) وينقل الى تبريز مركز حكم الشاه محمد خدابند ملك الصفويين ، وكان كفيف البصر ضعيف الارادة ، انصرف ولداه الى الملذات وانغمسا فى الشهوات ، فآلت شئون الحكم وتصريف الامور الى يد زوجته شهريار وأختها بريخان · وتفتن المرأتان بعادل كراى وتقع الاثنتان فى أسر حبه كما كان هو أسير حبهما · لكن قلبه يميل الى بريخان دون أختها ··

ويجمعهما أيضا أن بريخان كانت سنية المذهب على عكس أختها الشيعية ، ويتفق العاشقان على أن يخلصا عرش تبريز من يد الشيعة ، ومن ناحية أخرى يرسل القائد العثمانى (السنى) « جزمى » متخفيا الى تبريز كى ينقذ « عادل كراى » من الاسر ولكى يعمل معهما على نقل عرش تبريز من يد الشيعة الى السنيين لكن سرهم يفتضح ويهجم الصفويون على عادل كراى وحبيبته بريخان اللذين يناضلان حتى يسقطان شهيدين ويجرح جزمى لكنه يستجمع شتات قوته ويدفن العاشقين سويا ويكتب على شاهد قبرهما شعرا بدمه ··

هناك فترة أربع سنوات بين صدور انتباه وجزمى (١٨٧٦ ــ ١٨٨٠) وفيها تطور مفهوم القصة عند نامق كمال ، واقترب فيها أسلوبه من الاعتدال وان كانت الشخصيات كلها تتكلم بنفس الأسلوب ، وامتنع عن البحث عن الجديد بين اطلال القديم ، ويظهر فيها تأثره بهوجو خاصة بالبؤساء ويتجلى هذا واضحا عنده فى الحوار ·

وموضوع الرواية من الناحية التاريخية يأخذ الصبغة الأيدولوجية ، فهو يعالج

قضايا الوحدة الاسلامية والصراع بين السنية والشيعة وحب الوطن ، وحقوق الانسان، عرض نامق كمال لهذه القضايا بأسلوب مفرط فى الرومانسية • وكنتيجة لهذه الرومانسية فان شخصيات الرواية اما أن تكون خيرة أو شريرة الى أقصى الحدود ، وشخصيتى شهريار وبريخان هما بالضبط كشخصيتى ماهبيكر وفيلاديلاشوب فى روايته السابقة « انتباه » فبينما تمثل الاولى نموذجا للرذيلة تمثل الاخرى نموذجا للفضيلة ، وهنا أيضا يظهر الكاتب على صورة رجل الأخلاق الذى يبدى اعجابه بالفضيلة وانكاره للرذيلة •

ولكن الشخصيات هنا رغم المبالغات والافراط فى الخيالات الشعرية أكثر طبيعية بالنسبة للعصر المحيط الذى تجرى فيه الوقائع وهى تبدو فى صورة أصدق من شخصيات انتباه • وأهم دور ل «جزمى» هو التمهيد لسيكولوجية عادل كراى ، فلقد مزج نامق كمال حياة عادل كراى بشىء من المرارة التى تذكر بمفهوم القدر لدى الرومانسيين ، فعادل كراى كغيره من الابطال الرومانسيين يشعر منذ صغره بفراغ فى ذاته ، لكنه يختلف عنهم فى أنه ليس مهضوم الحق مثلهم فهو سليل أسرة مالكة وله من المبادىء ما يسعى اليه • ويبدو هذا الشعور بالفراغ والملل واضحا فى بعض الاشعار التى كانت ترد فى سياق الرواية •

وتعتبر شخصية عادل كراى شخصية فريدة لانه فى طريقه للبحث عن ذاته بمفهومه للقدر يمزج صوفية الشرق برومانسية الغرب •

وهناك بعض الشخصيات الاخرى التى ظهرت فى هذا العصر (أى عصر التنظيمات) مثل شمس الدين سامى وغيره ، لكن أعمالهم القصصية لم تكن ذات قيمة تاريخية أو أدبية •

وأهم شخصية فى عصر التنظيمات بعد نامق كمال هو رجائى زاد أكرم بك (١٨٤٧ ــ ١٩١٤) وهو ثالث ثلاثة كانوا دعامة أدب التنظيمات ، نامق كمال ، وعبد الحق حامد ورجائى زاده أكرم كما أنه أيضا أول ثلاثة أسسوا مدرسة الفن للفن فى الادب التركى رجائى زاده ، عبد الحق حامد وسامى باشا زاده سزائى •

وخلال قصصه الثلاثة «صائمة» ، «محسن بك» ، «غرام العربة» نلمح تطور القصة نحو الواقعية ، لذا كانت أهم قصصه من الناحية التاريخية هى قصة :

غرام العربة : نشرت سنة ١٨٩٥ •

نشرها تباعا فى أول الامر على صفحات مجلة ثروت فنون ، التى تعرف بالمرحلة التالية لمرحلة أدب التنظيمات باسمها ، ثم نشرها على شكل مستقل •

« بهروز ابن لأحد الاثرياء يلم بطرف من الفرنسية ، متحذلق مريض بحب الظهور يبدد ثروته فى السفاهة يقع فى حب غانية عاهرة يراها فى احدى المركبات الفاخرة فيصور له خياله المريض أنها بمركبتها الفخمة هذه لابد أن تكون سليلة أحد البيوتات العريقة ، وأراد أن يطارحها الحب والغرام ، فاقتبس قصيدة من ديوان لأحد الشعراء بعث بها اليها ، ولكنه يفطن بعد أن يرسل هذه القصيدة أنها قيلت فى رجل ولم تكن فى النساء • ووقع بهروز فى حيرة شديدة ولم يدر ماذا يفعل وخيل اليه عقله المضطرب

أن الفتاة المسكينة الاصيلة قد ماتت من هول القصيدة !! فجعل كل همه أن يبحث عن قبرها .. وبينما هو سائر فى أحد الايام اذا به يلقاها مصادفة ويتضح له أنها امرأة ساقطة وأن تلك المركبة أو العربة التى كانت تركبها انما أجرتهـــا بعد أن غررت باحمق مثله . »

والقصة انما تروى بسخرية حياة طبقة ظهرت طفرة فى المجتمع تحت ظروف اجتماعية واقتصادية معينة . وأهمية هذه القصـــة فى أنها نعتبر نظرة وداع الى الرومانسية وتطلعا الى الواقعية وليست القصة هى التى اتجهت نحو الواقعية فحسب بل أن النقاش والنقد الذى أثير حولها اتجه هو أيضا بدوره الى الواقعية مما قرب مفهومها الى الادباء الاتراك . كما انها تعتبر أول قصة تركية ذات تكنيك قصصى مكتمل .

الاتجاه نحو الواقعية :

ظل الأدباء الاتراك تحت تأثير مدرسة نامق كمال مسحورين بطلاوة أسلوب لايستطيعون الخروج من دائرة الرومانسية ، ومع أن نجمها قد أفل فى الغرب الا أنه كان مازال متألقا فى سماء الادب التركى بفضل نامق كمال ومدرسته الى أن ظهرت بوادر الاتجاه الى الواقعية فى «غرام العربة» ثم قوى الاتجاه الى الواقعيـــة بظهور رواية « سركذشت » لسامى باشا زاده سزائى (١٨٥٩ ــ ١٩٣٦) ، ونحن اذا استعرضنا أعمال سزائى نرى فيها بوضوح تطور الاتجاه نحو الواقعية اذ يمكننا أن نقسم أعماله الى ثلاثة أقسام أو مراحل يتنازعها عاملان ، العـــامل الاول ، هو تأثير نامق كمال وأسلوبه الفخم والعامل الثانى ، هو الواقعية والطبيعية اللتـــان كانتا قد تبلورتا فى الغرب فى أواخر القرن التاسع عشر ، ففى المرحلة الاولى يتجلى تأثير كمال واضحا وفى المرحلة الثالثة فتتجلى الواقعية الى حد كبير وذلك فى رواية سركذشت . لكنه لم يستطع التخلص نهائيا من تأثير أسلوب نامق كمال الضـــخم وان كان استطاع أن يخرج من دائرته الرومانسية .

سركذشت :

« دلبر صبية جميلة تخطف من جبال القوقاز وهى لم تتجـــاوز التاســـعة من عمرها ، تباع فى سوق النخاسة الى موظف «مطرود» وتنشأ فى بيته وتحت سيطرة امرأته القاسية القلب ، تسومها سوء العذاب حتى تضج المسكينة من قسوتها وتحاول الهرب فتفشل وتساق ثانية الى سوق النخاسة ويستقر بها المقام الى بيت أحـــد الاثرياء فتعيش حياة رغدة وتمضى عمرها فى راحة واطمئنان ، ويعود جلال ابن سيدها من أوربا ، وهو رسام يستخدم دلبر «موديل» فى رسم لوحاته ، ويتحاب الشابان ، لكن الباشا وزوجته يقفان حجر عثرة فى سبيل حب ابنهما جلال لهذه الجارية ، لانهما يريدان له زوجة تناسب مستوى العائلة الاجتماعى ، فيبيعا الجارية سرا دون علم جـــلال ، وينتهى المطاف بدلبر مرة ثالثة الى مصر فى قصر أحـــد الباشوات ، لكن الجارية الصادقة فى حبها لجلال تتحمل فى سبيل هـــذا الحب الصادق أقصى أنواع التعذيب والاهانة ، ويعطف عليها أحد أغوات القصر فيساعدها على الهرب ، بيد أنه أثناء هروبها يسقط فيدق عنقه ويموت وتنجو دلبر ، ولكن

يسقط فى يدها اذ أنها لاتستطيع السفر الى استانبول والى حبيبها جلال بمفردها فتيأس من حياتها وتلقى بنفسها فى النيل ٠

فالقصة عبارة عن رحلة جارية واستعراض لحياتها ٠ فهى قصة ذات خط واحد ، وكما ذكرنا من قبل فان أسلوب القصة يجرى على نمط أسلوب نامق كمال فهو يزخر بالجمل الطويلة جدا التى «تقطع نفس» القارىء القارىء جريا وراءها ٠

وهنا أيضا يتدخل الكاتب بين القارىء وشخصيات القصة ولا يحاول أن يستتر خلفها اذ تراه يصرخ مهاجما الرق ٠

وقد يلوح لنا بمجرد قراءة هذا الملخص أن القصة رومانسية أكثر منها واقعية ولكننا لو نظرنا اليها خلال عصرها لوجدناها أقرب الى الواقعية ، اذ أن العديد من الجوارى والعبيد كانوا يعيشون فى بيت كاتب القصة « سامى زاده سزائى » ، فهو قد لمس حياتهم عن كثب ، فالقصة ليست وليدة الخيال المحض بقدر ما هى محصول المشاهدة والمعايشة ٠

ومن القصاصين الواقعيين الذين عاصروا أواخر أدب التنظيمات وأدب المرحلة التالية وهى ما تعرف باسم مرحلة «ثروت فنون» الاديب والشاعر نابى زاده ناظم (١٨٦٥ ــ ١٨٩٥) وفى أعماله الادبية تبدو ملامح الواقعية أكثر وضوحا عما فى أعمال سزائى ، ففى قصة (قره بيبك) التى تعتبر أنضج أعماله يبدو أن هدفه منها هو المشاهدة الموضوعية كما يبدو أنه كتبها متأثرا بمفهوم القصة المعتمد على التسجيل ، ويصدر قصته هذه بمقدمة عن الواقعية فى الادب والمهم فى هذه القصة أن موضوعها مستمد من الريف التركى (الأناضول) ٠ ومن حياة الفلاح التركى ، ومن ميزات هذه القصة أن الاشخاص فيها يتكلمون بلغتهم الاصيلة المتناسبة مع مستواهم الفكرى والاجتماعى ٠

والحق أنه فى الفترة (١٨٨٠ ــ ١٨٩٥) كانت هناك حركة تمهيد للادب التركى نحو عهد جديد ، فلقد كان احمد مدحت ، ومعلم ناجى الذى كان يترجم أعمال زولا ، وسزائى الذى لم يعجبه السبيل الذى انتهجته القصة التركية والذى **زرع بذور الواقعية** فى الأدب التركى ، رغم انتمائه لمدرسة نامق كمال ، ونابى زاده ناظم بآرائه الواقعية المتطورة وبقصته (قره بيبك) ورجائى زاده أكرم بمحاولاته لتدوين المشاهدات والتسجيل فى قصص (محسن بك) و «شمسا» و «غرام العربة» كل هؤلاء رغم الحسية الشعرية البادية فى أعمالهم كانوا يمهدون الطريق للمفهوم المتطور للأدب وللقصة ٠

وهكذا فان القصة التركية الحديثة بهذه المكاسب الصغيرة أخذت تنحو نحو النماذج الجديدة ، بينما بعدت المسافة بينها وبين الطراز الشرقى والمحلى القديم للقصة ٠٠

نظرة عامة للموضوعات التى تناولتها القصة فى أدب التنظيمات

كانت الموضوعات المتداولة فى هذه الاعمال عامية فى مجموعها وهذا أمر طبيعى لان استعداد الروائيين الأوائل للابداع الادبى كان محدودا وكانت ملكاتهم الفنية سطحية فكانت موضوعات أعمالهم القصصية أقرب لموضوعات القصة الشرقية

القديمة والواقع أن القصص الشعبية القديمة كانت مصدرا خصبا لقصص وروايات التنظيمات ، فمثلا قصص الحب الذى ولدته الصدفة المحضة ، وكون الحبيبين رفيقين منذ نعومة أظفارهما الى أن يتحابا أو أن أحدهما رقيق والآخر حر طليق أو حب أولاد الجيران كل هذه الموضوعات استمدها الروائيون الأوائل من التراث القديم ..

ومن الموضوعات التى جدت نتيجة الاتصال بالغرب ، أن امرأة أوربية تحاول أن تنصر شابا تركيا ، وشاب يطلب العلم فى لندن ويعشق فتاة انجليزية تسبب له مشاكل عائلية ، وبطبيعة الحال لم يكن الواقع الاجتماعى هو مصدر هذه الموضوعات ، فتنصر شاب تركى فى ذلك العصر أو حتى فى هذا العصر لم يكن واقعا اجتماعيا ملموسا بالدرجة الاولى . وكأنما أراد الروائيون الأوائل بتناولهم هذه الموضوعات أن يسترعوا انتباه النشء الى ما قد يجره عليهم اتصالهم بالحضارة الأوربية من مساوىء .

وكأحد نتائج التغير الاجتماعى الذى صحب عصر التنظيمات ـ الذى أشرنا اليه فى صدر المقال ـ ظهرت طائفة من المدعين المتحذلقين والمتفرنجين كانوا موضوعا طريفا للقصة وموضع سخرية لكتابها ، كما رأينا فى رواية « فلاطونى بك وراقم افندى» لأحمد مدحت وفى «غرام العربة» لرجائى زاده .

وكان من الموضوعات التى تناولتها القصة فى هذا العصر (مرض السل) اذ أن مرض السل كان متفشيا فى استانبول آنذاك ، ولما كان الكتاب الأتراك فى هذا العصر يفضلون الموضوعات الحزينة فلا شك فى أن موضوعا كهذا كان مادة خصبة لقصصهم ..

وساعدت النماذج الرديئة المترجمة على المضى فى هذا الاتجاه الحزين ، فلقد كانت موضوعات : الرذيلة والمرأة المجهورة ، والفتاة المخدوعة ، والمصدرون تشغل مكان الصدارة فى الادب الرومانسى فى القرن التاسع عشر .

وحتى عند الكتاب الواقعيين (سزائى ، ناظم) ظلت هذه الموضوعات الحزينة تاتى فى المقام الاول .

القضايا الانسانية فى قصص التنظيمات :

(أ) الرق :

لاشك فى أن الرق من أخطر القضايا الانسانية التى تناولها الكتاب الأتراك فى أعمالهم القصصية الاولى ، فلقد كان الرق ظاهرة اجتماعية من ظواهر المجتمع الشرقى ، حتى القرن التاسع عشر ، وكان لها تأثيرها الكبير فى الحياة . فالرق منذ ثلاثة أرباع قرن كان طريق النجاح والمستقبل الباهر لكثير من الرجال والنساء . فكثير من الوزراء ورجال الدولة العثمانية كانوا فى الاصل من الرقيق ، أما الجوارى الحسان فكن أساس الزواج الموفق وأكثر السيدات المرموقات كن يجلبن من القصور العثمانية والمصرية وبعض البيوتات التى اشتهرت بجمال جواريها وقدرتهن على

القراءة والكتابة ، بل ان الكثير من هؤلاء الكتاب أنفسهم كانوا ثمرة من ثمرات الرق فأحمد مدحت وعبد الحق حامد وغيرهما كانوا من نتاج هذه الظاهرة فى أنسابهم البعيدة والقريبة •

وحياة الرقيق من يوم أن يولد ويخطفه النخاسون من بين قومه وعشيرته ويسوقونه تحت سياطهم الى سوق العبيد ، حيث يباع بثمن بخس ، فيبدأ فى بيت سيده الجديد صفحة جديدة ، حياة غنية تعتمل فيها رغبة وطموح الرقيق ــ الذين ذاقوا مرارة الذل والهوان منذ نعومة أظفارهم ــ فى أن يصلوا الى المناصب الرفيعة رأن يتحكموا فى الآخرين ، والكفاح الخفى الذى كانوا يباشرونه لتحقيق أمانيهم وتساندهم الغريب ، وجلبهم الاقرباء والاصدقاء ليكونوا عضدا وسندا لهم فى قضاء مآربهم ، واختلاف أقدار العبيد المجلوبين باختلاف أقوالهم وأنسابهم ، كل هذه العناصر التى تحويها قضية الرق بكل امكانياتها النفسية والاجتماعية لم يحسن الروائيون الأوائل استغلالها اذ كان من الممكن أن تؤدى الى عالم نفسى يشبه عالم الروائى الفرنسى ستندال • فبينما نجد أن انعكاس كفاح الرقيق فى أمريكا على على الادب الغربى قد أوجد مادة روائية هامة أحسن الروائيون الغربيون استغلالها فقد اقتصر الروائيون الاتراك على معالجة القضية معالجة ميلودرامية حزينة دون أى اهتمام بأبعادها السيكلوجية والاجتماعية •

(ب) الانسان :

ان عظمة القصص الانجليزية والروسية والفرنسية تكمن فى أنها تتناول الانسان كهدف تبحث عنه وتتقصاه ، ولا شك فى أن هذا لم يتيسر لهذه القصص فى شكل طفرة فجائية ، فالقصة تحتاج أولا الى رؤية انسانية والى تراث من التجربة يعد الفنان ويمده بالامكانيات ، كما تحتاج الى تراث العصور ، والى التمهيد الداخلى الذى يكون حصيلة استقراء ذلك المجتمع لحياته ولتجربته الانسانية ، كذلك تفاعل ثقافة ذلك المجتمع مع الثقافات العالمية ، والتأثيرات المتبادلة للفنون •

ولقد كان مؤسسوا القصة التركية فى الفترة بين (١٨٧٠ ــ ١٨٨٩) محرومون من أغلب هذه العناصر الأساسية • فلم تكن لديهم رؤية صادقة للحياة والانسان التركى •

فنامق كمال يرى الانسان كنموذج للخير أو للشر وليس كشخصيات متميزة متكاملة تتنازعها عوامل الخير والشر ، واحمد مدحت كانت علاقته بالانسان كعلاقة الأب العطوف بابنه ، كان دؤوبا فى خدمة الشعب فى مجالى الثقافة والتعليم الا أنه لم يتمكن أيضا من رؤية الانسان التركى كفرد مستقل •

كان القصاصون الأوائل يجرون وراء النوايا الخيرة والاخلاقيات بطريقة أشبه بالوعظ • •

***

وفى الحقيقة فلقد كان من الضرورى لكى يحقق فن القصة نجاحا مرموقا أن يتغير مفهوم القيم الجمالية وأن تتطور اللغة التركية تطورا كبيرا يمكنها من أن تفى باحتياجات التعبير الجديد ، وأن تتكون رؤية فلسفية وحياتية تتناول الانسان التركى كموضوع وغاية ، وأن يتجه محور العلم والاستقراء نحو الانسان •

هانت

قصة عبد العزيز مصطفى

كان انزعاجى هذا الصـــباح ، لأنى سأزور زوجة أخى · أمى تلح على فى ذلك ، ولكن انزعاجى لم يلبث أن تلاشى، عندما ارتسم فى ذهنى مرضها ·وحاجتها الى زيارات · واذا كنت قد ضقت بالحاح أمى فلأنى أضمر كراهية غامضة لزوجة أخى ، تنوء بها نفسى الى حد انى أتمنى أحيانا الخـــلاص من كراهيتى ، فانه شعور يشقينى ، الأمر غريب فى الظاهر ولكن لا غرابة اذا كانت زوجة أخى فى العشرين ، ولا زلت أدعى : « موموزيل ليلى » رغم الخامســـــة والعشرين التى أتممتها أمس · كان على أن أحل مشكلتى بيدى ، فلقد أخفقت ، كما أخفقت أمى فى أمر زواجى المنشود · أما « حسن» فهو بدين أكثر من اللازم ، و « طاهـر » مجرب فى دنيا النســـاء الى المدى الذى أفســـده ، فلم يعد من الحكمة أن يؤمن جانبه · أما « عبد الموجود » فلا أعرف له عيبا الا قسوة أحلامى التى تفرض على أن أزف الى رجل مثقف يحمل درجـــة جامعية ، وفرق كبير بين « عبد الموجود » الثرى الريفى وبين رجل أحلامى ·

ولم أجد بدا من الذهاب· ولم يستطع رونق الصباح وبهاؤه أن يبهجنى فقـــد كانت آثار مشكلتى « كصمام الأمان » ولكن ضد السرور والنشـــوة ·· ولم تمض ســـاعة واحدة حتى كان القيظ يبســـــط أجنحته الذهبية الحمراء على الطريق اللامع حيث يقيم أخى ·

بينما كنت أصعد الى الطابق الثالث ، اذا بشاب يهبط الدرج ، ويثبت نظره نحـوى لحظة ، ثم يشـــملنى بنظرات مستوعبة سريعة من أعلا الى أسفل · ويمضى متباطئا كأنه يفتعل الهـــدوء والرزانة ، لم يثر اهتمامى الا نظراته المستوعبة وسوالفه البيضاء · ودلفت الى زوجة أخى ، وصورة الشاب الوقور تتلاشى فى نفسى كما يتلاشى الصدى · كم هى جميلة زوجـــــة أخى ، داخلنى احســـاس بأنوثتى عندما اقبلت نحـوى باسمة تصافحنى لعلها شفيت من مرضها احساس فيه حقد وألم ورغبة فى كسر القيود من حولى · وياللاضطراب اللذيذ الذى تسلل الى أعماقى عندما فوجئت بالشاب الوقور حائلا أمامى عند العودة· نفس النظرات ، وان شابها ابتســـام يعدى حتى جعلنى ابتسم ابتســــامة واهنـــة بالرغم منى · انه يختلف عن الكثيرين الذين يتطلعون الى فى الطريق· أو هكذا أحببت أن أوهم نفسى ، مجـرد ميل يجعلنى أعتقد أنه مختلف وجدير أن التفتاليه وأفكر فيه ·ولكن ياللوهم وانطلاق الخيال ، وكعادتى أجهدت نفسى فى النادى · « البينج بونج » يستأثر باهتمامى ، كأننى اتشـــبث به حتى أشغل نفسى عن نفسى ·

·· حتى أنفق حيويتى فى اللعبة مجاهدة مشاعرى ، ثائرة على احساسى بأنوثتى · هـــاربة من شعور الوحدة والانفراد بالرغم من كل الناس حولى· ولماذا لا أصارح نفسى ، الست واحدة

من الفتيات المنتظرات حتى أصبح كزوجة أخى .. وانى لجميلة .فرصتى أكثر ضمانا وأوفر .

تكرر اللقاء بينه وبينى ، حتى أدركت أنه يقيم فى الطابق الأول من بيت أخى ومع ان الآمال تسرف فى التلويح لى ، الا أننى لازلت ثائرة من أجل أنوثتى ، ولذلك أندفع فى النادى الرياضى ،حتى الهث فى اللعب ، ويبلل العرق جبينى وجسمى كله .

لعنة الله على الخجل ، فلا زلت أصر على تجاهله وافتعال التكبر والعناد . وماذا أفعل ؟ لا أستطيع مبادلته ابتسامته ، والكلمات التى يهمس بها عندما يرانى على السلم صاعدة أو هابطة حتى يوم أن واجهنى وقال : صباح الخير .. لحظة واحدة .. ؟

ورغم بساطته فقد أدركت اضطرابه ، وشجعتنى هذه المحاولة الجريئة على أن أغامر وأحادثه . ربما بدافع الفضول . كما أحب أن أوهم نفسى وعلى التأكيد شعور يشقينى ، الأمر غريب فى الظاهر، بدافع التفكير فى مستقبلى .

ابتسمت ، ولكنى ندمت على تسرعى فقلت له جادة وأعصابى تتماسك :

ـ صباح الخير .

ـ سؤال واحد .. هل أنت طالبه ؟

ـ نعم .

ـ مدموازيل طبعا ؟

وابتسمت فى سذاجة وصعدت الدرج، يغمرنى السرور . وعند عودتى قررت أن أحادثه وليحدث ما يحدث ولكنى لم أره منتظرا كعادتى .

وبدا لى أن انقطع عن زيارة زوجة أخى شهرا أو شهرين . لا بد أن أقسو على نفسى ، ولا بأس أن تشغلنى الأحلام ، وترهقنى لعبة البينج بونج حتى أعود اليه لأحادثه هذه المرة .

وكان ما قدرت ، لم أرفض دعوته فصحبته الى الحدائق والملاهى . وفى كل خطوة أخطوها يتراءى لى وجه أبى ينظر شزرا وأمى غاضبة فى صمت ثم تنزاح هذه الصورة الغاضبة فتتراءى لى أيام مشرقة قادمة ، فأحس انه يلتصق بى عامدا ، ويترصد صوتى وكلامى ، ولون شعرى الأسود فأستجيب للسرور العميق ، وتهجس فى نفسى نزعات حادة أن أمنحه بعض ما يريد أو أكثر .. لكن سرعان ما أتمالك نفسى .

نضب معين الحديث بينه وبينى ، بعد أن تهالكنا عليه ، وقطعنا أشواط الثرثرة بيننا شأن كل علاقة جديدة طارئة ؛ بعد تعطش ، وانتظار . وبدا لى اننى قد انضويت تحت كنف العاطفة الناشئة بينى وبينه . وكأنما كان الملل فى انتظارنا ليدفعنا من جديد ، فاتفقنا على الزواج ،فى غمرة الحماس بينما كانت يداه تمس أجزاء جسمى فى رفق وعصبية ونشوة .

صار الليل والنهار ظلمة ونورا لامعنى لهما الا كعلامات على الطريق الذى نمضى فيه ، الظلمة تحيط بجونا العاطفى الحار وهمساته الدافئة . والضوء بسمة ومرح نشغله نحن بثرثرتنا ولمس أيدينا ولقاء أنفاسنا .

وكشأن المحبين أصبحت أيامنا كلها أعيادا ترتفع فيها الزينة وترفرف عليها

الاعلام المزخرفة المتعددة الألوان • وهكذا نتخيل أنفسنا ، فى عيد دائم متجدد • وكشأن الحياة وعادتهــا كان لا بد من الدموع خلال البسمات والضحكات • ذات يوم ، كنت أجلس الى أمى نثرثر فى هدوء كأننا نخفى أشجان الذكريات • لقد أصبح فتاى الوقور ذكرى ، بعد أن أحاطه أبى ببرودة وحنان وهو القاسى العنيد • وبعد ان اطمأنت اليه أمى وكانت بسمتها تتسع فيشرق وجههـا بالصفاء والصدق كلما رأته على البـاب يستأذن مستحيبا فى الدخول •

أصبح فتاى ذكرى منذ أن انقطعت أخباره وزياراته ، ولم تعد قلوبنا تخفق لرؤيته كأنها ترحب بالزفاف المنتظر •

وسارت ظلمة الليل فى جهامة ليسطع ضوء الشمس من جديد كالسيف يبدد الظلمة ، ويثير الصراحة والوضـوح ، ويفتح المجال مرة أخرى للأمل فى حياة جديدة • وجاءت الحياة الجديدة ، فى هدوء ، وفتحت عينى ذات يوم لأجدنى زوجة ، تزوجنى رجل لم أعرفه من قبل وأصبح لى بيت هادىء ، يقطع هـدوءه صراخ طفلى الرضيع •

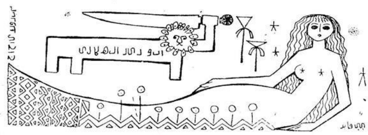
ان زوجى يستأثر باهتمامى ، وصورة الشاب الوقور • تضعف وتنزوى ثم تعود • لكن لقد هانت تلك الصــلة السخيفة التى حشدت آمالى وقضت عليها بضربة واحدة ، هانت ولم تعد تتسلل الى قلبى • أو هكذا أحب أن أعتقــد واتخيل قضائى • وفجأة ذات يوم كنت أحمل طفلى الرضيع ، عائدة الى منزلى •• عندما رأيته •• وجها لوجه • وكان ضعفى وضعف صورته قد تحولا الى قوة عاصفة ، هزتنى ، ولكنى تمالكت • مد يده فصافحته ، وابتسمت فى هـدو وجاهدت كى أبدو غير مبالية به ساخرة منه ، زاهدة فيه•وقلت له فى بساطة : لماذا لا تزورنا ؟ • أمى تسأل عنك •• وكذلك أبى •

وافترقنا • وشعرت اننى أعود الى الأمس ، وان الماضى يجثم على صـدرى ليجذبنى اليه • وفى تزاحم الذكريات نزع فى ظلال الحزن شعاع باسم « كان ذلك لأنى مسرورة هذا السرور الطارىء، الذى نفترضـــه ساعة أن يطغى الألم وتهجم موجاته على الشاطىء المستسلم بلا حيلة • نفترضه ونتعلق به كما نتعلق بطوق الحياة •

مسرورة لأنى • عندما رأيته فجأة ـ نجحت فى اخفاء مشاعرى كأن الأمر كله لا يعنينى •

مِن أقاصيص الأولين

عرض : د . محمد أحمد خلف الله



ـمع يزيد بن معاوية بن أبى سفيان بجمال زينب بنت اسحاق زوج عبد الله بن سلام القرشى ـ وكانت من أجمل النساء فى وقتها ، وأحسنهن أدبا ، وأكثرهن مالا ـ ففتن بها · فلما عيل صبره ذكر ذلك لبعض خاصة أبيه ـ واسمه رفيق ـ فذكر ذلك لمعاوية ، وقال له : ان يزيد قد ضاق ذرعه بها ·

فبعث معاوية الى يزيد ، فاستفسره عن أمره ! فبث له شأنه ·

فقال : مهلا يا يزيد ·

فقال له : علام تأمرنى بالمهل وقد انقطع الأمل ؟

فقال له معاوية : فأين مروءتك وحجاك وتقاك ؟

فقال : قد عيل الصبر ، ولو كان أحد ينتفع فيما يبتلى به من الهوى بتقاه ، أو يدفع القضاء بحجاه ، لكان أولى الناس به داود حين ابتلى به ·

فقال معاوية : اكتم يا بنى أمرك فان البوح به غير نافعك ، والله بالغ أمره منك ، ولا بد مما هو كائن ·

وأخذ معاوية فى الاحتيال فى تبليغ يزيد مناه ، فكتب الى زوجها عبد الله بن سلام ـ وكان قد استعمله على العراق : أن أقبل حين تنظر كتابى لأمر فيه حظك ان شاء الله تعالى فلا تتأخر عنه ·

فاغذ السير وقدم ، فأنزله معاوية منزلا كان قد هيىء له ·

وكان عند معاوية يومئذ بالشام أبو هريرة وأبو الدرداء • فقال لهما معاوية : ان الله قد قسم بين عباده قسما ، ووهبهم نعما أوجب عليهم فيها شكره ، وحتم عليهم حفظها ، فحباني منها عزوجل بأتم الشرف وأفضل الذكر ، وأوسع على الرزق ، وجعلني راعي خلقه وأمينه في بلاده ، والحاكم في أمر عباده، ليبلوني أأشكر أم أكفر • وأول ما ينبغي للمرء أن يتفقد وينظر من استرعاه الله أمره ، ومن لا غنى به عنه •

وقد بلغت لي ابنة أريد زواجها والنظر في اختيار من يباعلها ، لعل من يكون بعدي يقتدي فيه بهديي ، ويتبع فيه أثري ، فانه قد يلي هذا الملك بعدي من يغلب عليه الشيطان ، ويحمله على تعضيل البنات ، فلا يرون لها كفئا ولا نظيرا • وقد رضيت لها ابن سلام القرشي ، لدينه وشرفه ، وفضله ومروءته وأدبه •

فقالا له : ــ ان أولى الناس برعاية نعم الله وشكرها ، وطلب مرضاته فيما اختصه ، لأنت •

فقال لهما معاوية : ــ فاذكرا له ذلك عني ــ وقد كنت جعلت لها في نفسي شورى ، غير أني أرجو ألا تخرج من رأيي ان شاء الله •

فخرجا من عنده ، وأتيا عبد الله بن سلام ، وذكرا له القصة •

ثم دخل معاوية على ابنته ، وقال لها : ــ اذا دخل عليك أبو الدرداء وأبو هريرة ، فعرضا عليك أمر عبد الله بن سلام ، وحضاك على المسارعة الى اتباع رأيي فيه ، فقولي لهما : ــ انه كفء كريم ، وقريب حميم ، غير أن تحته زينب بنت اسحاق ، وأخاف أن يعرض لي من الغيرة ما يعرض للنساء ، فأتناول منه ما يسخط الله تعالى فيه ، فيعذبني عليه ، ولست بفاعلة حتى يفارقها •

فلما اجتمع أبو هريرة وأبو الدرداء بعبد الله ، وأعلماه بقول معاوية ، ردهما اليه يخطبان له منه ، فأتياه ، فقال : ــ قد علمتما رضائي به وحرصي عليه ، وكنت قد أعلمتكما الذى جعلت لها في نفسها من الشورى ، فادخلا عليها ، واعرضا عليها الذى رأيت لها •

فدخلا عليها ، وأعلماها ، فقالت لهما ما قاله معاوية لها ، فرجعا الى ابن سلام ، وأعلماه بما قالته •

فلما ظن أنه لا يمنعها منه الا فراق زينب أشهدهما بطلاقها ، وأعادهما الى ابنة معاوية •

فأتيا معاوية ، وأعلماه بما كان من فراق عبد الله زوجته ، رغبة في الاتصال بابنته • فاظهر معاوية كراهة فعله ، وفراقه لزينب ، وقال : ــ ما استحسنت له طلاق امرأته ، ولا أحببته ، فانصرفا في عافية ، ثم عودا اليها ، وخذا رضاها •

فقاما ثم عادا اليه ، فأمرهما بالدخول على ابنته وسؤالها عن رضاها ، وقال : ــ لم يكن لي أن أكرهها ، وقد جعلت لها الشورى في نفسها •

فدخلا عليها فأعلماها بطلاق عبد الله بن سلام امرأته ليسرها ، وذكرا من فضله وكمال مروءته وكرم محتده • فقالت لهما : ــ انه في قريش لرفيع القدر ، وقد تعرفان أن الأناة في الأمور أرفق لما يخاف من المحذور ، واني سائلة عنه حتى أعرف دخلة أمره ، وأعلمكما بالذى يزينه الله لي ، ولا قوة الا بالله •

فقالا : ــ وفقك الله ، وخار لك ، وانصرفا عنها ، وأعلما عبد الله بقولها فأنشد :

فان يك صدر هذا اليوم لي ... فان غدا لنظـــاظره قريب

وتحدث الناس بما كان من طلاق عبد الله زينب ، وخطبته ابنة معاوية ، ولاموه على مبادرته بالطلاق قبل احكام أمره وابرامه •

ثم استحث عبد الله أبا هريرة وأبا الدرداء ، فأتياها وقالا لها : ـ اصنعى ما أنت صانعة ، واستخيرى الله فانه يهدى من استهداه ·

فقالت : ـ أرجو أن يكون الله قد خار لى ، وقد استبرأت أمره ، وسألت عنه ، فوجدته غير ملائم ولا موافق لما أريد لنفسى · ولقد اختلف من استشرته فيه ، فمنهم الناهى عنه ، ومنهم الآمر به ، واختلافهم أول ما كرهت ·

فلما بلغاه كلامها علم أنه مخدوع ، وقال : ـ ليس لأمر الله راد ، ولا لما لا بد منه صاد · فان المرء وان كمل حلمه ، واجتمع له عقله ، واستد رأيه ، ليس بدافع عن نفسه قدرا برأى ولا كيد ، ولعل ماسروا به ، واستجذلوا له ، لا يدوم لهم سروره ، ولا يصرف عنهم محذوره ·

وذاع أمره ، وفشا فى الناس · وقالوا : ـ خدعه معاوية حتى طلق امرأته ، وانما أرادها لابنه ، وقبحوا فعله ·

فتمت مكيدته تلك ، لكن المقادير أتت بخلاف تدبيره · وذلك أنه لما انقضت أقراء زينب ، وجه معاوية أبا الدرداء الى العراق ، خاطبا لها على ابنه يزيد ، فخرج حتى قدم الكوفة ، وبها يومئذ الحسين ابن على رضى الله عنهما ، فبدأ أبو الدرداء بزيارته ، فسلم عليه الحسين ، وسأله عن سبب مقدمه · فقال : ـ

وجهنى معاوية خاطبا على ابنه يزيد زينب بنت اسحاق ، فقال له الحسين : ـ

لقد كنت أردت نكاحها ، وقصدت الارسال اليها اذا انقضت أقراؤها ، فلم يمنعنى من ذلك الا تخير مثلك ، فقد أتى الله بك ، فاخطب ـ رحمك الله ـ على وعليه ، لتتخير من اختاره الله لها ، وهى أمانة فى عنقك حتى تؤديها اليها ، وأعطها من المهر مثل ما بذل معاوية عن ابنه ·

فقال : ـ أفعل ان شاء الله ·

فلما دخل عليها أبو الدرداء قال : ـ أيتها المرأة ، ان الله خلق الأمور بقدرته ، وكونها بعزته ، فجعل لكل أمر قدرا ، ولكل قدر سببا ، فليس لأحد عن قدر الله محيص ، ولا للخروج عن أمره مهرب ، فكان مما سبق لك ، وقدر عليك ، الذى كان من فراق عبد الله بن سلام اياك ، ولعل ذلك لا يضرك ، ويجعل الله فيه خيرا كثيرا ، وقد خطبك أمير هذه الأمة وابن ملكها ، وولى عهده ، والخليفة من بعده : يزيد بن معاوية ، والحسين ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسيد شباب أهل الجنة ، وقد بلغك شأنهما وسناؤهما وفضلهما ، وقد جئتك خاطبا عليك فاختارى أيهما شئت ·

فسكتت طويلا ثم قالت : ـ يا أبا الدرداء ، لو أن هذا الأمر جاءنى وأنت غائب لأشخصت فيه الرسل اليك ، واتبعت فيه رأيك ، ولم أقتطعه دونك ، فأما اذا كنت أنت المرسل ، فقد فوضت أمرى بعد الله اليك ، وجعلته فى يديك ، فاختر لى أرضاهما لديك ، والله شاهد عليك ، فاقض فى أمرى بالتحرى ، ولا يصدنك عن ذلك اتباع هوى ، فليس أمرهما عليك خفيا ، ولا أنت عما طوقتك غبيا ·

فقال : ـ أيتها المرأة ، انما على اعلامك ، وعليك الاختيار لنفسك ·

قالت : ـ عفا الله عنك ، انما أنا ابنة أخيك ، ولا غنى لى عنك · فلا تمنعك رهبة أحد عن قول الحق فيما طوقتك ، فقد وجب عليك أداء الأمانة فيما حملتك ، والله خير من روعى وخيف ، انه بنا خبير لطيف ·

فلما لم يجد بدا من القول والاشارة ، قال : ـ

أى بنية ـ ان ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم أحب الى وأرضى عندى ، والله أعلم بخيرهما لك ·

قالت : ـ قد اخترته ، وأردته ، ورضيته ·

فتزوجها الحسين ، وساق لها مهرا عظيما ، فبلغ ذلك معاوية ، فتعاظمه ولام أبا الدرداء لوما شديدا ، وقال : ـ

من يرسل ذا بله وعمى يركب خلاف ما يهوى .

ثم اطرح معاوية عبد الله بن سلام ، وقطع عنه جميع روافده ، لسوء قوله فيه ، وتهمته أنه خدعه ، ولم يزل يجفوه حتى عيل صبره ، وقل ما فى يده .

فرجع الى العراق ، وكان قد استودع زينب قبل طلاقه مالا عظيما ، ودرا كثيرا ، فظن أنها تجحده لسوء فعله بها ، وطلاقها من غير شىء كان منها .

فلقى الحسين فسلم عليه ثم قال : -

قد علمت ما كان من خبرى وخبر زينب ، وانى قد استودعتها مالا ، ولم أقبضه - وأثنى عليها - وقال له : ذاكرها أمرى ، واحضضها على رد مالى .

فلما انصرف الحسين اليها ، قال لها : -

قد قدم عبد الله بن سلام ، وهو يحسن الثناء عليك ، ويحمل النشر عنك فى حسن صحبتك ، وما آنسه قديما من أمانتك ، فسرنى ذلك وأعجبنى ، وذكر أنه قد استودعك مالا ، فأدى اليه أمانته وردى عليه ماله ، فانه لم يقل الا صدقا ، ولم يطلب الا حقا .

فقالت : - صدق استودعنى مالا لا أدرى ماهو ، فادفعه اليه بطابعه .

فأثنى عليها الحسين خيرا ، وقال : -

ألا أدخله اليك حتى تتبرئى اليه منه كما دفعه اليك ؟

ثم لقى عبد الله ، وقال : -

ما أنكرت مالك ، وانها زعمت أنه بطابعك . فادخل اليها وتسلم مالك منها .

فقال : - أوما تأمر من يدفعه الى ؟

قال : - لا ، بل تقبضه منها كما دفعته اليها .

ودخل عليها الحسين وقال : - هذا عبد الله قد جاء يطلب وديعته .

فأخرجت اليه البدر ، فوضعتها بين يديه وقالت : - هذا مالك .

فشكر وأثنى .

وخرج الحسين عنهما ، وفض عبد الله بن سلام خواتم بدره ، وحثى لها من ذلك ، وقال : خذى فهو قليل منى .

فاستعبرا جميعا حتى علت أصواتهما بالبكاء - أسفا على ما ابتليا به ، فدخل الحسين عليهما ، وقد رق لهما ، فقال : -

أشهد الله أنى طلقتها . اللهم انك تعلم أنى لم أتزوجها رغبة فى مالها ولا جمالها ، ولكنى أردت احلالها لبعلها .

فسألها عبد الله أن تصرف الى الحسين ما كان قد ساقه اليها من مهر ، فأجابته الى ذلك . فلم يقبله الحسين وقال : -

الذى أرجوه من الله خير لى .

فلما انقضت أقراؤها تزوجها عبد الله ، وحرمها الله يزيد بن معاوية .

- ٢ -

يوم الحســــاب

قال أحد الرواة : -

كان فى زمن المهدى رجل صوفى يركب قصبة فى كل جمعة يومين - الاثنين والخميس . فاذا ركب فى هذين اليومين فليس لمعلم على صبيانه حكم ولا طاعة ، فيخرج ويخرج معه الرجال والنساء والصبيان . شاهدته يوما وقد صعد تلا ، فنادى بأعلى صوته : ما فعل النبيون والمرسلون ؟ أليسوا فى أعلى عليين ؟ .

فقالوا : ـ بلى ·

قال : ـ هاتوا أبا بكر الصديق ·

فأخذ غلام فأجلس بين يديه ·

فقال : ـ جزاك الله خيرا أبا بكر عن الرعية ، فقد عدلت وقمت بالقسط ، وخلفت محمدا عليه السلام فى حسن الخلافة ، ووصلت حبل الدين بعد حل وتنازع ، وفرغت منه الى أوثق عروة وأحسن ثقة ، اذهبوا به الى أعلى عليين ·

ثم نادى · هاتوا عمر ·

فأجلس بين يديه غلام ·

فقال : ـ جزاك الله خيرا أبا حفص عن الاسلام ، قد فتحت الفتوح ، ووسعت الفيىء ، وسلكت سبيل الصالحين ، وعدلت فى الرعية · اذهبوا به الى أعلى عليين بحذاء أبى بكر ·

ثم قال : ـ هاتوا عثمان ·

فأتى بغلام فأجلس بين يديه ·

فقال له : ـ خلطت فى تلك السنين ، ولكن الله تعالى يقول « خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم » ثم قال : ـ اذهبوا به الى صاحبيه فى أعلى عليين ·

ثم نادى : ـ هاتوا على بن أبى طالب ·

فأجلس بين يديه غلام ·

فقال له : ـ جزاك الله عن الأمة خيرا أبا الحسن فأنت الوصى ، وولى النبى ، بسطت العدل ، وزهدت فى الدنيا ، واعتزلت الفيىء ، فلم تخمش فيه بناب ولا ظفر ، وأنت أبو الذرية المباركة ، وزوج الزكية الطاهرة ، اذهبوا به الى أعلى عليين ·

ثم قال : ـ هاتوا معاوية ·

فأجلس بين يديه غلام ·

فقال له : ـ أنت القاتل عمار بن ياسر ، وخزيمة بن ثابت ذا الشهادتين ، وأنت الذى جعل الخلافة ملكا ، واستأثر بالفيىء ، وحكم بالهوى ، وبطر بالنعمة ، وأنت أول من غير سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونقض أحكامه ، وقام بالبغى · اذهبوا به فأوقفوه مع الظلمة ·

ثم قال : ـ هاتوا يزيد ·

فأجلس بين يديه غلام ·

فقال له : ـ أنت الذى قتلت أهل الحرة ، وأبحت المدينة ثلاثة أيام ، وانتهكت حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وآويت الملحدين ، وبؤت باللعنة على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتمثلت بشعر الجاهلية ·

ليت أشياخى ببـدر شهدوا جزع الخزرج من وقع الأسل

وقتلت الحسين ، وحملت بنات رسول الله صلى الله عليه وسلم سبايا على حقائب الابل · اذهبوا به الى الدرك الأسفل من النار ·

ولم يزل يذكر واليا بعد وال حتى بلغ الى عمر بن عبد العزيز فقال : ـ هاتوا عمر ·

فأتى بغلام فأجلس بين يديه ·

فقال : ـ جزاك الله خيرا عن الاسلام ، فقد أحييت العدل بعد موته ، وألنت القلوب القاسية ، وقام بك عمود الدين على ساق بعد شقاق ونفاق · اذهبوا به فألحقوه بالصديقين ·

ثم ذكر من كان بعده من الخلفاء الى أن بلغ دولة بنى العباس ، فسكت ·

فقيل له : ـ هذا أبو العباس أمير المؤمنين ·

قال : ـ فبلغ أمرنا الى بنى العباس · ارفعوا حساب هؤلاء جملة ، والقوا بهم فى النار جميعا ·

رسالة أم



قصة : جيرى ماريك

ترجمة : أحمد مصطفى النمر

ذات يوم وصلتني هذه الرسالة من سيدة مجهولة ، لاتربطني بها سابق معرفة ، وطلبت مني نشرها ، وهأنذا أنفذ رغبتها :

سيدى ..

أنا لست الا مجرد امرأة عادية ، كسائر النساء ، وأقطن فى شقة متواضعة فى بيت عادى ، ولا أتميز عن غيرى بشىء .

ولقد عشت طوال حياتى ، مغمورة ، لم أتعرف على أحد ، كما لم يهتم بى أحد ، ولا تطل نافذة مسكنى الا على زقاق مظلم ، ولذا فلا أرى من خلال الستارة البالية المسدلة عليها الا حائط المسكن المقابل ، ولم أكن فى حاجة الى منظر أجمل ، لاننى دائمة النظر الى الماضى ، والاهتمام به .

وكان سكان المنزل لايرونني الا مرة ، أو مرتين في اليوم ، مرة حين أخرج من مسكني ، وأنا احمل حقيبة الشراء السوداء ، وأخرى حين أعود بعد برهة قصيرة ٠

وكنت أسير بخطى وئيدة ، لاني كنت ضعيفة القلب ، وأتنفس بصعوبة ، فهل فكرت في أن كثيرات من النساء الوحيدات مثلي لايهتم بهن أحد في غدو أو رواح ؟ ان الحياة المحيطة بهن لم يعد لديها ما نمنحه أو نقدمه لأمثالهن ٠

وليست الأضواء ، والانوار المتلألئة في واجهات المحال التجارية مضاءة لهن ، لانه ما من شخص يقف لهن في الانتظار ، أو يرحب بمقدمهن ، ومع هذا تسير حياتهن ، وكأنهن يعشن على هامش الحياة ، ولا ينعمن منها الا بمجرد ظلال قليلة ، ويسرن وكأنهن أشباح تدب وتسعى هنا وهناك ، ويعشن في الظلام ، بعيدا عن الأضواء ٠

وبالرغم من كل ذلك لايقل اهتمامهن عن غيرهن بمجريات الامور ، فهن يتتبعن الأحداث ، ويحاولن تعرف كل ما يحدث ، وكأنهن أحياء ، ينعمن بسائر حياة البشر ، ويتمتعن بما في هذا العالم من مباهج ومسرات ، أو هكذا يخيل اليهن ، ولكن هناك آلام تنطوي عليها النفوس ، وأحزان لايكترث لها أحد غير صاحبها ، ولا يحاول أحد تخفيفها ، فالحياة المهدمة لا تثير اهتمام الغير من الناس ٠٠

وكثيرا ما سمعت الناس يقولون عني ، لقد خرجت العجوز التي تسكن الطابق الارضي لشراء حاجياتها ، أو انها قد عادت من جولتها ٠

ويوما ما سمعت من البوابة مايفيد استنكارها لذلك ، بعد أن عرفت حقيقة سني ، اذ قالت لي لماذا يصفونك بالعجوز ، مع انك لازلت في ميعة الصبا ؟ ان هو الا شعرك الابيض ، الذي فعل هذا ٠

ولكن لم تكن تلك هي الحقيقة اذ كانت تمر بي أويقات أشعر فيها أني تقدمت في السن آلاف السنين ، واني لم أعد في سن الشباب ، وذلك هو ما عبرت عنه للبوابة التي ضحكت مستنكرة قولي عندما سمعته مني ، وأبدت لي أسفها ٠

ولكن لماذا تأسف على تلك المرأة الطيبة القلب ، فحياتي حينذاك لم تكن تدعو الى الاسف ، كما هي الآن ، فهناك أوقات كانت حياتي تمتلىء فيها بالبهجة والسرور ، وكنت أنا وزوجي لانعاني الفقر ، وسعدنا كثيرا حين أنجبنا طفلا ٠

وهكذا ترى أن قصتي لاتحوى أمورا غريبة ، أو تختلف عن حياة غيري من الناس ، فكثيرات كانت حياتهن مثلي ، ولكني أخشى أن يظن القارىء أن قصتي ليست من الاثارة بحيث تستحق الاثارة ، وكل ما أرجوه أن يصبر قليلا حتى يرى النهاية ٠

لقد نشبت الحرب ، وهذا قد لايكون أمرا بالغ الأهمية بالنسبة لي ٠٠ ولكن كل فرد قاس من ويلاتها ولا يخفى على القارىء ما تعنيه كلمة حرب

بكل مافيها من مآس، وأهوال ويكفى أن تذكر تلك الـكلمة ، أو تسـمعها حتى يقترن بها الخراب والدمار والحرمان والخوف ٠

ولكنها مجرد كلمة من ثلاثة حروف ، وفى هذه الحروف الثلاثة يعلق شرف الانتصار ، أو عار الهزيمة ، ولعمرى انها لكلمة ثقيلة على الأسماع رغم أنها قد تمر بنا ، وتنطقها أفواهنا فى سـهولة ويسر ، وحين تتحقق وتقع ، يندلع لهيبها فيأتى على الاخضر واليابس ، وتنطلق أصوات المدافع ، وتنبعث رائحة البارود ، وعندها نجد أن ما تنطوى عليه هذه الكلمة من ليونة يخالف الواقع والحقيقة ٠

وقد حارب زوجى ، واشترك فى الحرب ، ولكن لا بالسلاح ، فقد كان ذلك مستحيلا عليه بل بالقاء القبض عليه لارتيابهم فى نشاطه المعادى ، واتهامه بالتجسس ، وهكذا تركت وحيدة أنا وطفلى ٠

ولا يغيب عن ذهن القارىء شيئان هما الفزع والرعب من كلمة « حرب » ذاتها وكل ما يقترن بها من متاعب ، وما يصاحبها من أهوال ، فهنـاك أشياء تفقد مكانها فى الحياة ، وأرواح تزهق ، ومـوت يحلق فوق الرؤوس ، وقد يكون كل ذلك لاشىء بجانب رؤيتك لطفلك الهادىء الوديع الراقد فى مهده مستسلما ، وقد أطبق راحتى يديه فى سكون ، وكأنه قد أطبقهما على حلم جميل يخشى أن يفلت منه ، أو هكذا تمر به الحياة ، وكأنها حلم رائع ، فلا يعرف مايدور حوله ، ولا يفطن الى شىء ، حتى ولا الى تلك الكلمة ذات الحروف الثلاثة كلمة «حرب» التى قد تذهب فى غمضة عين بذلك الحلم الجميـل ، وبالطفل وبكل شىء ٠

وما أروع ما ترى ، حين تشهد طفلا يلهو ويلعب فى ممرات حديقة ما يدب بقدميه ويطيح بيديه ، وينبعث من فمه صوت يمثل سير القـاطرة ، أو يقلد سيارة ، وهو سعيد فى حياته بصخبه ومرحه ، وقد أرسلت الشـمس أشعتها الذهبية ، وبعثت الحياة فى الكائنات ، وتفتحت الأزهار على أعوادها ودانت قطوف الاشجار بثمارها ، وتنظر اليها فتشعر بالحياة والأمل ، ثم ترى كل ذلك قد تغير فجأة وأصبحت الحديقة وممراتها مخبأ للغـارات الجوية ٠٠ واختفت الوجوه الباسمة المستبشرة ، وحل مكانها وجوه كادحة ، قاتمة يتصبب منها العرق ، واكفهر لونها من الحفر ، والكد ، ولا ترتفع الأعين عن أرض الآباء والأجداد ، الا لالتقاط الانفاس ، ثم يعاودون العمل من جديد ٠

وهكذا تبدو لك الحياة هناك وكأنها قافلة تسير ، أو قاطرة تنهب الارض أو أسطولا يمخر عباب الماء ، والناس فى سباق مع الزمن ، يغامرون بكل شىء وكل ذلك لمجرد اطلاق كلمة من ثلاثة حروف هى التى أحدثت كل ذلك التحول حقا انه لعالم ملىء بالعجائب ٠

ولا تعجب حين ترى ذلك الطفل ، الذى امتطى صهوة حصانه الخشبى ، وأخذ يهز نفسه فوقه ، ليحرك جسمه ، ويهز ساقيه وذراعيه ، ويستحثه على السير والاسراع ، ويهيب به ، ويلهبه بسوطه الصغير فى يده ، الكبير فى نظره

وقد يطيب لك ذلك المنظر ، حتى ولو رأيت رأس ذلك الحصان قد كسر ، فان الطفل لا يتركه ، ولا يرحمه ٠

وقد تبتسم لذلك المنظر ولكن ذلك الطفل نفسه ، لايعتقد انه مجرد طفل صغير يلهو بدميته ، بل هو فارس خطير ، وهو أيضا ليس ضعيفا ، بل قويا مغوارا يستهين بالعقبات ، ولا يخشى السقوط ، وتلك أيضا من قبيل المغامرة التى يقوم بها الطفل ، والتى تنشأ معه وتنمو معه ٠

وقد لاينتهى ركوب الطفل ، ولا تقف سيطرته عند حد ، فهو سادر فى طريقه ، ولا تعرف الهزيمة طريقها اليه ، وانه لابد سيقهر الأعداء ٠

وبعدها قد يلمح ذلك الطفل نفسه عصفورا ، يستهويه جمال ريشه ، وتجتذبه زقزقته ، وسرعان ما يسقط الحصان على الارض ، ويتخلى عنه راكبه مندفعا فى أثر العصفور ، محاولا الامساك به ، واذا بالحصان الذى كان لايكف عن الحركة قد أصبح كتلة هامدة خشبية صماء ، ملقـاة على الارض مهملة لاقيمة لها ٠

وقد تمر برهة قصيرة يصل بعدها صوت العصفور ، الى أسماع الطفل ، فيتجه نحوه ، ويراه قد دخل الى غرفة مقفلة النوافذ ، فيلصق أنفه وفمه بزجاجها ، منعم بالنظر الى ذلك العصفور ، عله يقبل عليه حين يفطن الى وجوده ولكنه يعجب حين يراه يطير ، ويتخبط فى جنبات الحجرة ، وكأنه يفر منه ، ولكنه يحاول الافلات من سجنه الصغير ٠

وقد يعجب الطفل فى نفس الوقت ، حين يراه يقبع أحيـانا على حافة النافذة ، أو على أحد محتوياتها ، ويهز ذيله ، ويتساءل الطفل حينذاك ، هل الطائر سعيد وقانع بحالته ، أم أنه حائر ، يفكر فى طريقة للافلات ، ويعينه اهتزاز ذيله على التفكير ، وقد يدهش الطفل حين يسمع صوت العصفور ٠٠ ويحاول فهم ما يقول ، ولكنه لايفهم شيئا ، ولا يملك غير العجب وعندها يقول لنفسه ، ترى بأى لغة يتحدث ذلك الطائر ٠

وأخيرا قد يستولى على الطفل شبه يأس من العصفور ،ويسترعى نظره بائع البالون حين يمر به ، وقد شرع ذراعه بمجموعة منها ، فى ألوانها الزاهية الجذابة ، وعندها يفكر الطفل بعقله الصغير ، لماذا لا يشترى منها واحدا يطيره فى السماء وتملك تلك الفكرة على الطفل مشاعره ، فيسرع الى مربيته لتشترى له ما يريد ٠ وبعدها يبدأ فى اللعب بالبالون ، وهو سعيد قانع ، ويفرح حين يراها ترتفع فى السماء ، ثم تعود حين يجذبها ، وأخيرا تصطدم بشىء فتنفجر وتنتهى ، وينتهى معها كل شىء وكأنها فقاعة ماء ، وهكذا الحياة قد تنتهى فى أى لحظة ويطوى الكائن الحى ، وينتهى بزواله كل شىء ، وكأنه لا شىء ٠

ومع هذا ترى الكبار ، يمرون بلافتات كتب عليها كلمة حرب ، ومنهم من لايعيرها التفاتا ، ومنهم من يجلس ليندد بمساوىء الحرب ، ويعدد ويلاتها ولكنه لا يذكر من آثارها غير الحياة والموت ، ويتجاهل ما عدا ذلك ٠

ثم انظر الى ذلك الطفل الوديع الهادىء الذى أمسك فى يده بكتاب أنيق

مصور ، وهو يمر بأصبعه الصغير على صفحاته ، يقلبها واحدة بعد أخرى ٠٠ ويطوى تلك الصفحات المصورة المطبوعة ٠

والمنظر فى جملته لايعدو أصبع الطفل على صفحات الكتاب ، وقد علقت عيناه بما فيها من صور جميلة جذابة ، حيث يرى أناسا فى عربات أو سيارات وسائق قد أمسك بالسوط فى يده يلهب به أهور الخيل التى تجر العربة ، ليستحثها على الاسراع ٠

وتلك صورة عامل ينظف المداخن ، وقد تسلق سلمه الطويل ، ويبدأ الطفل فى عد درجات ذلك السلم ، «واحد ، اثنين ، ثلاثة» ثم يرفع عينيه الصغيرتين عن تلك الصورة ، ويتجه بها الى والدته ، وفى براءة الاطفال يسألها أين ينام منظف المداخن فى الليل ، ثم يسألها من الذى وضع النجوم فى السماء وهل الشمس أكبر من طبق طعامى ، الى غير ذلك من الأسئلة المحيرة ٠

حقا أن هناك جمال كامن فى الاطفال ، وأجمل ماتراهم حين يتأهبون للنوم ، اذ تحيطهم الاحلام السعيدة ، ويبدأ النعاس يداعب أجفانهم ، ويتخيلون أنهم نائمون على فراش وثير من ريش النعام ، ثم يبدأون فى غمض أجفانهم وقد ارتسمت بسمة رقيقة على شفاههم ، وعندما يجرى الحصان الخشبى ، ويرتفع البالون ، وينخفض ، ويزقزق العصفور الصغير وتبدو لهم كل تلك الأشياء ، وكأنها قد أصبحت أشياء حقيقية ، وقد بعثت فيها الحياة من جديد وأخذت تحلق فى سماء أحلامه ، وتعيش معه فى دنيا أحلامه الجميلة التى لاتنتهى ٠

ولعلك قد تعجب يا سيدى ، لم أرهقك بذكر كل تلك الاشياء ، وذلك لانى رأيت ابنى وقد اختطفه الموت منى ، من أجل كلمة واحدة ، هى «حرب»

نعم لقد رأيته بنفسى ، وهو يغمض عينيه الى الأبد ، ونفس البسمة الرقيقة مرتسمة على شفتيه وكان فى وهدته الاخيرة كأنه يعجب من كل ما حوله وكأنه وهو قابض راحتيه ، قد أطبقهما على زملائه من الاطفال الذين لاقاهم فى العالم الآخر ، وكونوا موكبا رائعا ، وقد أمسك كلا منهم بيد الآخر ، وهم فى وداعتهم ، ورقة أجسامهم واستسلامهم كأنهم ملائكة أبرار ٠

وعندما همست فى أذنه ، لاتفزع ياطفلى العزيز حين تسمعنى أصرخ جزعة لفراقك ، انه لاشىء ، سوى صوتى ، وهو يهتز ، ويتذبذب فى الهواء ، وسأبكى كثيرا ، ولكنى بعدها سأكفكف الدمع ، وبعدها لاشىء ، يبقى معى ، غير ذكرى عزيزة على نفسى ، هى ذكراك أنت يابنى ، والجزع لفراقك والجزع لايعرف البكاء ٠

وحين أصبحت وحيدة فى هذا العالم ، سرت فى طريق موحش مقفر ، ليس به الا بقايا عشب جاف ، وينبعث من نفسى شعور بالكآبة والحزن ، وبجانب ذلك الطريق لمحت خطا حديديا لسير القطارات ، ولم أر فى ذلك الطريق الجاف الا آثار أقدام الاطفال الصغيرة ، انطبعت على الارض ، وبدا بعضها واضحا ، والبعض قد طمسته آثار أقدام أخرى ، وتطلعت الى السماء

فوجدتها قاتمة مكفهرة ، لاتدل على شيء ، ونظرت الى الاشجار فوجدتها جافة الأوراق ساكنة ، لاتحرك الريح غصنا منها .

لقد كان كل شيء هادئا ساكنا ، وما أقسى السكون الذى يسبق العاصفة وما أشد ما شعرت به من رعب ، لانى شعرت بالحياة بكماء ، صماء ، قاتمة ، مقفرة لاتنبض بالحياة ، فلا حركة هناك الا موكب أولئك الاطفال الصغار الذين شهدوا كثيرا من الويلات .

ولعل ذلك الطريق سار فيه أولئك الاطفال ، لانهم كانوا غير عالمين بما يدور حولهم ، وهكذا اندفعوا فى موكبهم الطويل ، كما لو كانوا فى طريق عودتهم الى منازلهم ، بعد نهاية يوم دراسى ، وقد أمسك كل منهم بيد الآخر فى هدوء واطمئنان ، ولم يسمع منهم الا صوت وقع أقدامهم .. ولكنهم كانوا فى طريقهم الى الفناء ، الى الموت ، وهكذا ذهبوا ولم يبق منهم أحد ، ولم يبق منهم غير الذكرى تمر بخيال الآباء والامهات ، ووقع أقدامهم يتردد فى فضاء لانهائى .

ولا عجب فقد مر بخاطرى ، أنا وغيرى من الامهات الحزينات أطياف وأطياف لاولئك الاطفال ، حين تكدست مع جمع غيرى فى سيارة نقل كبيرة ، حشرنا فيها الى طريق طويل ، أطلقوا عليه معسكرات اللاجئين ، لنبعد عن مكان المعركة .

وكانت رحلة طويلة شاقة ، متعبة ، أرهقت الكثيرات منا،فمات البعض وأغمى على البعض ، وقاسينا الأمرين من الجوع والعطش ، ونحن فى طريقنا الى الأمان كما قالوا لنا .

وكان أهمما أثر فى نفوسنا ، هو الحديث عن أطفالنا الذين افتقدناهم ، وخلفناهم وراءنا ، وبعثوا بهم الى مكان بعيد فى نهاية طريق طويل ، لن يعودوا منه الى الأبد ، فلماذا أخذوهم منا ، وفرقوا بيننا وبينهم .. لماذا . ؟ انها نفس الأحرف الثلاث «حرب» .

وكان التشكك هو أهم ما يقض مضاجعنا ، لعدم اطمئناننا على مستقبلنا أو مستقبل أطفالنا ، فقد أخذوا منا أطفالنا بحجة صيانتهم ، والحرص عليهم وقالوا للأمهات انهم فى مكان أمين ، ولكن ترى ما الذى آل اليه أمر أولئك الاطفال ، هل زجوا بهم فى بعض ، الملاجىء ، وهل أشفقوا عليهم ، أم عاملوهم بقسوة ، وتلك حقا كانت أفكارا مزعجة ، ولكنها كانت لاتخلو من بعض الاطمئنان ، فكان هناك بعض الامل فى الابقاء على أولئك الاطفال أحياء ، والا كانت الطامة الكبرى اذا لقوا حتفهم .

وحينئذ مر موكب الاطفال بخط السكة الحديد ، وغيره فى هدوء الى حيث كان القطار منتظرا منذ وقت طويل ، فحشروا فيه حشرا ، حيث حملهم الى أماكن ينبعث الدخان من مداخنها الكثيرة .

وتطلعت أنا وغيرى الى أولئك الاطفال وهم فى القطار ، ولمحت بعضهم فى نوافذه ، ومن العجيب انى لمحت بينهم طفلى أنا ، فصرخت هاتفة باسمه ،

وتخيلته يلعب حولى ، وحين أفقت من اغمائى شعرت بيد احدى زميلاتى وهى تربت على وجنتى لتنبهنى ، وتعيدنى الى حالتى الاولى ، وحين أخذت أردد اسم ابنى ، وأشير تجاه القطار كانوا يجارونني ، ويفعلون مثلى ، وقد ارتسم الوجوم على وجوههن ، وأخيرا تمددت على أرض السيارة بينما أخذ البعض يدلك لى راحتى ، وأطرافى أو هكذا خيل لى رغم انى لا أذكر شيئا من ذلك مطلقا ، بل لا أذكر أى شيء ، وسمعت بعد هذا أن الاوامر قد صدرت الى السيارة بالتحرك سريعا ، وأن نحيب أولئك الامهات كان عاليا لفراق أطفـــالهن ، ولم تخفت أصواتهن ولم تطغ عليها أصوات طلقات الرصاص والمدافع التى كانت تطلق بشدة حينذاك ٠

ثم بدأت النساء ، كل تواسى الاخرى لان هناك شيئا واحدا لايغنى ولا يفقد ،ويظل حيا باقيا على الدوام ، وذلك الشيء هو الأمل ولذلك أصبحت كل واحدة تقنع نفسها ، بأن أولئك الاطفال ، لم يعودوا أطفالهن مطلقا ٠

ومن المؤكد أنى لم أستطع تمييز طفلى أنا ، لانه لاشك لم يكن بين أولئك الاطفال ، ولن تحدث مطلقا ، مثل تلك المعجزة الخارقة لانى كنت أعرف مكان طفلى ٠ ٠

وحدا الأمل بالكثيرات الى الاعتقاد بأن أولئك الاطفال ليسوا أطفالهن ، لأنهم لابد سيحسنون معاملة أطفالهن ، ويضعونهم فى أحد الملاجىء ، ولكنهم لن يذهبوا بهم الى الموت ويعرضونهم للهلاك ٠

وأخذ النساء يرددن ، كلا انهم ليسوا أطفالنا ، الذين شهدناهم ولعلهم أطفال أناس غيرنا ، ثم أخذن يرددن ، ولكن كيف يكونون أطفال أناس غيرنا وقد تعلقت قلوبنا بهم حين رأيناهم ٠

وهكذا سار طفلى فى موكب طويل مثل ذلك الموكب تماما ، نعم انه طفلى المتورد الوجنتين ، الذى سألنى يوما ما عن النجوم ، ومكان نومها والذى نعمت ببسمته حينذاك ، وانا أربت على تلك الوجنات مداعبة ملاطفة ٠

ومع هذا اذا لم يكن هو نفس طفـــلى ، هو الذى رأيته فى ذلك الموكب الطويل ، فلا شك انه طفل آخر تركته أمه ٠

وهكذا ساوى الموت بين الاطفال ، فقادهم جميعا فى موكب الفناء ، أولئك الاطفال الذين يدفعون أصابع أقدامهم فى جواربهم ، ليحدثوا بها خروقا نرتقها نحن فيما بعد ، بعد أن يلعبوا هم ، ويلهوا ويفرحوا حين تبرز أصابعهم منها ، أولئك الاطفال الذين يفركون أنوفهم بأصابعهم حتى تحمر ، وتصبح فى مثل لون الجزر ، وينظرون اليها فى المرآة ويفرحون بمنظرها ، وهى تنعكس أمامهم فى المرآة أولئك الاطفال الذين يسيرون ، ونسمات الربيع تداعب خصـــلات شعرهم الناعم كالحرير ، وفى مثل خيوط الذهب الرقيقة فتموجها وتنســـدل على جباههم فنرفعها نحن الامهات فى رفق وحنان ٠

ولكن هل تسعفنى الكلمات لأصور لك الفواجع التى أنزلتها نبأ كلمـة

من ثلاثة حروف «حرب» لعله قد يبدو سهلا أن يصور القلم ، ويسطر فى سهولة مشاعر الامهات ، ولكن ياسيدى أن الحقيقة أفظع من الخيال ٠

والأقسى من كل ذلك انى بقيت على قيد الحياة وحيدة ، امرأة بلا قلب ، لان قلبى قد مات منذ زمن طويل ولعلى لم أمت ، لأن الموت قد خجل من مواجهتى أو حتى مجرد النظر فى وجهى ، ولذا فقد بقيت على قيد الحياة ، وعدت ثانية ولكن ابنى ، ابنى لم يعد ٠

وقد يتراءى لك ياسيدى أن قصتى لاتعدو أنى رأيت ابنى يلاقى نهايته ، وأن تلك هى الحال فى حالة الحرب ، كما قال بعض الناس ، فى اجتماع ما ، حيث قال معلقا على ويلات الحرب وآثارها : «حتى الاطفال يحاربون» ، وليس هذا من الحقيقة فى شىء فالاطفال لا يحاربون ، ولكنهم يقاسون فقط ٠٠ انهم الضحايا ، والقرابين التى تقدم على مذبح الحرب فقد لاتجد فى ميدان الحرب الا الجنود ، أو محاربون قلائل ، ولكن هناك ضحايا يتعرضون لمآسى لانهاية لهـا ٠

ولكن لماذا أقص عليك كل هذا ؟ ماهذا الا لانى أريدك أن تكتب هـذه القصة الدامية بيراع من ضلوع أطفال ومداد من دماء قلوبنا ، وقد تعتذر عن نشرها بحجة أن معظم الناس يفضلون قراءة القصص المسلية المرحة ، التى تتحدث عن الحب والجمال ، ولكن قصتى تتحدث أيضـا عن حب ، وهو الحب الخالد ، حب الامهات لأطفالهن وهو حب راسخ متين ، لاحب زائف ينطوى على الغش والخداع ، أو قد يكون من محض خيال الكاتب نفسه ، ولا وجود له فى عالم الحقيقة ٠

وقد يخيل لك ، انى فزعة من كلمة حرب ، ولكنى لم يبق فى حياتى شىء أخشى أن تأتى عليه الحرب بعد أن ذهب زوجى وطفلى ، وذهب بذهابهما كل شىء ، وأصبحت خالية الوفاض ، اذ لم أدخر شيئا قد تسلبه منى الحرب ٠

ولكن هناك نساء غيرى ، لهن أطفال لا زلن أحياء ، ويبتسمون لهم حين يفيقون من نومهم ، مثلما كنت أفعل مع ابنى تماما ولديهم فى حجراتهم الصغيرة نفس اللعب ، التى كانت عند ابنى ، ونفس الشعر والوجنات التى يداعبهـا النسيم العليل ، كما تتراءى لهم نفس الاحلام التى كان يراها ابنى ٠

من أجل هؤلاء أرجو أن تكتب ، وقل لهم نيابة عنى انى لازلت أرقب ، وأشدد عليهم فى القول أن يرقبوا مثلى ، ولكن لمن أريدك أن تكتب وتقول ٠

انى أريدك أن تقول وتكتب الى أولئك الذين يشعلون نار الحروب ٠٠ ويشحذون أسلحتهم استعداداً لهـا فهؤلاء يجب أن تذكرهم ، بأن صرخات الاطفال أقوى من طلقات المدافع ، وان أنات الجرحى أشد من وأقسى من أزيز الطائرات التى يشنون بها الغارات ٠

أريدك أن تذكر صانعى الحروب الذين يعتدون على الشعوب الوادعة المسالمة ، وقد تملكهم الجشع ، وأعمتهم القوة الغاشمة ، بأن يفـكروا قليلا قبل أن يخطوا كلمة حرب ٠

وقل لهم انى حين أذرع ممرات الحديقة العامة ، وأرى الأطفال وهم يلهون ويلعبون هناك بين الزهرات اليانعات ، لأرى أولئك الأطفال فى الحقيقة ، بل أرى مكانهم ، أولئك الأطفال ، الذين لم يقدر لهم ان يعيشوا ليشهدوا نهاية الحرب ، بل انى أرى مواكب من مخلوقات عجيبة ، قد حكم عليهم بالموت من شرذمة طاغية مستبدة وقد سولت لهم أنفسهم أمرا ، فأعلنوا حربا • فى قبرص وفى فيتنام الشمالية ، وقد شردوا من قبل ملايين الأطفال فى فلسطين ، وهاهم اليوم ، يعيدون الكرة ، ويتبعون نفس الطريقة • وتآمروا على أولئك الأطفال الصغار الذين لازالوا يتساءلون عن الشمس ، وهل هى فى حجم أطباق طعامهم ،

وهأنا أسمع اليوم ، نفس الكلمة •• حرب • حرب انا الأم التى جاوز عمرها الألف عام . وهدمتها آلاف الأحزان ، أم فقدت زوجها ، وثكلت طفها • ولكنه لم يكن طفلا واحدا ذاك الذى فقدته ، ولا رجلا واحدا ، بل قد يستعصى عليك أن تحصى قبور أبنائى ، الذين فقدتهم لأن جميع من ماتوا ضحية كلمة حرب •• كانوا أبنائى ، ولم يستطع أحد أن يعيد الى ابنى من بينهم ، ليحتضن بذراعيه الصغيرتين •

لا • لا ياسيدى ، يجب الا يكون هناك حرب فلا زال وقع خطوات الأطفال الذين ذهبوا ، يرن فى أذنى ، لينبهنى الى الخطر المرتقب ، ويصيح فى وجهى ، قولى لصانعى الحرب أن يوقفوا الحرب ، يجب الا تكون هناك حرب أخرى ، فى أى مكان •

وقد يكون اسمى ، مارى ، أو كاتيا ، أو فاطمة ، أو أى شىء ، وقد تكون لى آلاف الأسماء ، ولكن أم أبدية لجميع الأطفال •

وانهم ليتحدثون عن الحرب ، ولكن أصم أذنى حتى لا أسمع تلك الكلمة البغيضة ، وأغمض عين كى لا يقع نظرى عليها فى الصحف •

وأفضل أن أسمع بدلها أزيز عربات الأطفال ، وصراخ الأطفال • وصخبهم ، وهم مقبلون •

وهأنا أمد ذراعى ، بأقصى ما أستطيع ، فانظر الى ، انى أمدها ، لا لأحتضن طفلى ، بل لأبعد عنه ذلك الشبح المخيف شبح الحرب الذى يهددهم ، وقدلايكون هو طفلى ، ولكن جميع الأطفال أطفالى •

وهأنذا أعيد ذراعى ثانية الى جانبى ، ثم أمدهما ثانية بأقصى ما استطيع ، ولكنى فى هذه المرة ، لن احتضن طفلا من أطفالى ، الذين لاعداد لهم ، بل لاطبق بها على أعناق أولئك الذين يتحدثون عن الحرب ، ويفكرون فى اشعال نارها ، ساطبقها على أعناقهم بقوة وعنف حتى أزهق أرواحهم قبل أن يزهقوا أرواح أطفالى •

الركيزة والرسام



قصة : دافنى دى موريه

ترجمة : سمير وهبى

تمددت المركيزة على كرسى طويل (شيزلونج) فى البالكونة المطلة من غرفتها بالفندق • كانت تلبس كيمونا طويلا ولا شىء سواه ، بينما كان شعرها الذهبى الجميل ملفوفا بعمامة زرقاء يتفق لونها مع بريق عينيها الفاتحتين • وبالقرب منها على مسند خشبى كانت ثلاث زجاجات صغيرة بها ألوان مختلفة لأظافرها• كانت قد انتهت توا من دهن طبقة على أظافرها ، ثم فردت أصابعها لكى تحكم على اللون • ان بريق ظفر الابهام أكثر لمعانا من غيره •• كان يعطى أصابعها الرقيقة لمسة من لمسات الاغراء • انه يشبه نقطة دم سقطت حديثا من جرح • هذا بينما كان ظفر السبابة فاتحا •• ولكن جماله بدا صناعيا • أما الاصبع الثالث فكان بريقه مناسبا لجمالها اذ بدا كعيدان الريح الحمراء فى خفرها • كانت مثل هذا النبات الرطب وقد نما وسط النخيل الكثيف فى انتظار بزوغ الشمس لكى يقدم لها بتلاته المخضبة •

كان هذا اللون هو اللون الذى ارتاحت اليه ثم أمسكت بقطعة قطن ومررتها على الألوان المسودية فمسحتها ، ثم غمست فرشاتها ؟ فى الزجاجة المناسبة ودهنت بقية الأظافر فى حركات قصيرة وسريعة • وما انتهت من هذه العملية حتى ألقت ظهرها على الكرسى الطويل وجعلت تحرك يديها حتى تتيح للدهان أن يجف • كانت حركاتها أشبه شىء بحركات كاهنة فى معبد • ونظرت الى أصابع قدميها وقررت أن تدهنها أيضا ولكن ليس الآن • كان عليها أن ترتاح وأن ترتخى ، فقد كان الحر قاتلا لا يشجعها أن تترك مسند الكرسى وتنحنى الى الأمام ، حتى ولو كانت هذه الانحناءة لتجميل قدميها الرائعتين ، خاصة وانها تجد متسعا من الوقت فى يومها الطويل الذى تقضيه فى تكاسل وفى رتابة لا تتغير • وأغمضت المركيزة عينيها •

كانت الأصوات البعيدة تأتيها من الفندق ، كما لو أنها فى حلم • انها أصوات غير محددة ولذيذة ، تماما كحياتها فى هذا الفندق ، حيث تعيش الآن بعيدا عن عبودية البيت • ومن البالكون الذى يعلوها وصلها صوت شخص يجر كرسيا • ومن بعيد ، عند الساحة السفلية ، رأت الجرسونات يثبتون الشماسى ذات الألوان الزاهية فوق موائد الأكل • وكانت أوامر « المتردوتيل » تصل الى أذنها من غرفة الأكل • وفى الشقة الملاصقة لها كانت الخادمة تنظف الغرف واتتها أصوات أثاث ينقل من موضعه مصحوبة بصرير سرير يزاح • وخرج أحد الخدم ليكنس البالكون المجاور • واختلطت الأصوات بعضها ببعض ثم ساد الصمت • ولم يبق سوى هدير البحر وهو يمسح الرمال الساخنة •• ومن بعيد أتتها ضحكات الأطفال ومن بينهم أطفالها هى • وعلى الشرفة ، طلب أحد الرجال قهوة وتصاعد الى أنفها رائحة سيجار • وتنهدت المركيزة وارتمت يداها الجميلتان كما تتساقط زهرتان • ما أسعدها بتلك الغبطة التى تستشعرها الآن ! ولكن ليتها تدوم لمدة ساعة أخرى • كان ثمة شعور فى داخلها ينبئها بأن احساس الملل والفراغ سوف يأتيها قبل انقضاء ساعة ، حتى وهى الآن هنا حرة فى الأجازة •

وظهرت حولها نحلة وطارت برهة حول زجاجات الالوان ، ثم اختفت داخل الوردة التى قطفها أولادها وتركوها على المقعد المجاور • وخف طنينها بعد لحظة • وفتحت المركيزة عينيها ورأت النحلة وهى تحاول أن تخلص نفسها من بتلات الزهرة • وهامت النحلة لحظة قبل أن ترتفع فى الهواء وتطن ثانية • وبدأت البهجة تتبدد ، وأمسكت المركيزة برسالة ادوار ، زوجها ، وقد سقطت على الأرض •

« •• ولهذا تجدين يا عزيزتى أنه يستحيل تماما أن أحضر عندك •• عندى شواغل أريد أن أتمها هنا وانت تعلمين أنى لا أعتمد على أحد فى انجازها • وطبيعى أنى سوف أبذل جهدى لأحضر قبل نهاية الشهر لأعود بكم • وفى الانتظار أرجو أن تتمتعوا جميعا وأن ترتاحوا • انى أعلم أن هواء البحر مفيد لك • وبالأمس ذهبت لزيارة أمك ومادلين • وأعتقد أن القسيس العجوز •••• »

وتركت المركيزة الرسالة تسقط منها وعقدت ما بين حاجبيها • انها تجد دائما زوجها غارقا فى أعماله • فعنده الضيعة ، والغابات والعقارات ، وعنده رجال القانون الذين يتعامل معهم ، ثم الأسفار المفاجئة التى يقررها دائما على عجل • كل هذه الأسباب جعلت من ادوار زوجا لا يجد وقتا كافيا يخصصه لزوجته •

وقبل عقد الزواج أخبرها البعض أن المركيز رجل أعمال وكثير الشواغل وأنه رجل جاد فى نظرته لأمور الحياة المتباينة ، غير أنها لم تعر هذا الأمر انتباهها وقبلت الزواج به وهى تقول ٠٠ « ماذا فى الدنيا أحسن من زوج جاد ، وماذا أبهج من المعيشة فى قصر منيف أو فى ضيعة واسعة أو فى فندق خاص فى العاصمة ؟ فما أمتع أن يعيش الانسان فى عالم سحرى ومن حوله خدم مطيعون ينتظرون الأوامر ويقولون دائما فى ردهم « **نعم يا سيدى المركيز ، نعم يا سيدتى المركيزة !** » انه عالم ساحر بالنسبة لفتاة تنحدر من الطبقة الوسطى ، أبوها طبيب من مدينة ليون ، وأمها امرأة مريضة على الدوام ٠ واذا لم يظهر المركيز فى حياتها فجأة ، فلم يكن أمامها الا أن تتزوج مساعد والدها الشاب وأن تكافح معه طول حياتها فى بلدتها الصغيرة ٠

كان زواجا رومانسيا وان عارضته عائلة المركيز فى بدء الأمر ٠ ولكن المناقشات اختفت بسرعة لأن المركيز تجاوز الأربعين من العمر والعروس جميلة جمالا فاتنا ٠ وتزوجا وأنجبا طفلتين ٠ وعاش الجميع فى سعادة تامة ٠

ولكن رغم ذلك ، قامت المركيزة من كرسيها الطويل وتوجهت الى غرفة النوم وجلست أمام المرآة ٠ وفكت الدبابيس التى تربط شعرها ٠ وخلعت الكيمونو فى تكاسل ونظرت الى جسمها فى المرآة نظرة تأمل ٠ وتحسرت على حياتها وهى فتاة فقيرة فى بلدة ليون ٠٠ وتذكرت الضحكات والقفشات التى كانت تتبادلها مع صديقاتها ، والهمسات التى كانت تسمعها فى الشارع عندما ينظر اليها أحد المارة أو الأوراق المعطرة التى قد توضع فى يدها عندما كانت تخرج بصحبة صديقاتها لتتناول الطعام عند واحدة منهن !

أما الآن ، وهى مركيزة فلم يعد هناك شخص تقاسمه ضحكاتها أو أسرارها ، فالكل جادون والزيارات الكثيرة للقصر من أهل ادوار العديدين تشغل وقتها باستمرار ٠ أمه واخوته وأخواته وزوجات اخوته طول الشتاء يقيمون فى باريس ٠ الأشخاص لا يتغيرون وفى أحيان قليلة ، عندما يدعو ادوار أحد رجال الأعمال ، ويتجرأ هذا المدعو أمام جمالها الأخاذ فيزف لها كلمة اعجاب قبل أن ينحنى ليقبل أناملها ٠ ـ كانت حينئذ تنظر الى الضيف وتتخيل فى ذهنها أنه بطل مغامرة سرية تربطها به ٠٠ فترى نفسها هاربة اليه وقد ركبت سيارة أجرة أسرعت بها الى بيته ، ثم صعودها بالمصعد الى الشقة الصغيرة ، وأخيرا وقوفها على بابها وقرعها الجرس قبل أن تختفى فى غرفة مظلمة ! ولكن ما أن تنتهى الدعوة حتى يقوم الضيف وينصرف ، ثم تظل تقول لنفسها انه غير وسيم وأن أسنانه صناعية !

وظلت تمشط شعرها وتحاول أن تبتدع تسريحة جديدة ، كأن تضع مثلا شريطا من لون أظافرها ٠٠ ثم لبست رداءها الابيض وألقت بوشاح من التل الرقيق على كتفيها ، وظلت تفكر فى الأثر البديع الذى سوف يحدثه خروجها بهذا الشكل المغرى ، فعندما ستكون فى الشرفة ومن خلفها ابنتاها ومعهما المربية الانجليزية وهن فى الطريق الى المائدة ، سوف يرفع الناس جميعا عيونهم نحوها ويتابعونها باهتمام ٠ وربما توقفت لحظة لتداعب خصلة من شعر احدى بنتيها أو تقرص الاخرى قرصة مليئة بعاطفة الأمومة وخفة الدلال ٠

ولكنها الآن ما زالت أمام مرآتها ٠ وفى عينيهـــا ثورة مكتومة ٠ للنســاء الأخريات عشاق ٠ كانت الاشاعات والهمسات تصل دائما الى مسامعها فى الحفلات التى يقيمها ادوار ، فتعرف أن الفضائح موجودة فى أوساط النبلاء الذين تنتمى الآن اليهم ٠كانت تسمع الى كلمات مثل « **يقولون ان** » ، أو « **هل تعلمون ان** » وسرعان ما تهتز الأكتاف بحركة عدم مبالاة ٠ وكان يحدث أحيانا فى حفلات الشاى أن تنصرف احدى المدعوات مبكرة ، قبل السادسة مساء ، وهى تقول انها مدعوة الى حفلة أخرى . فكانت المركيزة تصحبها حتى باب القصر وتودعها بكلمات كلها أسف ولكن هذا لا يمنعها بأن تتخيـــــل ضيفتها وقد ذهبت بعد عشرين دقيقة الى حيث ينتظرها عشيقها وترى بعين الخيال الكونتسة الصغيرة وقد سقطت عنها ملابسها !

وحتى « اليز » صديقتها فى المدرسة وهى الآن متزوجة ومقيمة فى ليون منذ ست سنوات ، لهـــا عشيق ٠ وعندما تكتب اليها ، لا تسميه باسمه وانما تقول « صديقى » ٠ كانت تقابله مرتين فى الأسبوع، فى يومى الاثنين والخميس ، فتركت سيارته ويتريضان فى الريف ، حتى فى أيام الشتاء ، وكانت أليز

تكتب للمركيزة وتقول : تبدو لى مغامرتى شعبية بالنسبة اليك يا من تنتمين الى طبقة النبلاء ! كم أتخيل عدد المعجبين بك ! كم مغرم بك وقع أسير حبك . حدثينى عن مغامراتك . حدثينى عن باريس وعن حفلاتها ! ومن هو الشخص الذى وقع اختيارك عليه لهذا الموسم ؟ » .

كانت المركيزة ترد على رسائل صديقتها فى ابهام يثير التساؤل ، ولكن فى لباقة ودعابة ، وتصف لها بالتفصيل الرداء الذى لبسته فى تلك الحفلة أو تلك . غير أنها لم تكن تقول لها ان الحفلات كانت تنتهى فى منتصف الليل ، بعد أن تكون الدقائق قد مضت متثاقلة ، وأن كل ما تعرفه من باريس ، عاصمة النور والجمال ، لا يتجاوز تلك الزيارات التى تقضيها بالسيارة الى صانعى الملابس أو «الكوافير» وهى دائما بصحبة الأولاد ومربيتهم الانجليزية . أما عن حياتها كسيدة القصر ، فكان دائما فى استطاعتها أن تصف الغرف وعدد الزوار الكثيرين والطريق المزروع بالأشجار الباسقة والغابة التى تحيط بالقصر . ولكنها لم تكن تتحدث عن الأمطار التى تتساقط كل يوم ، حتى فى أيام الربيع ، ولا عن حرارة الجو الخانق عندما ياتى الصيف مبكرا ، فيلف بوحشته كل الضيعة بغلاف من الصمت القاتل .

ـ انى آسف يا سيدتى . كنت أظن أن سيدتى بالخارج !

واعتذر الخادم الذى دخل الغرفة دون أن يقرع بابها ، وانصرف والمقشة فى يده ولكن ليس قبل أن يلقى عليها نظرة فاحصة وهى عارية أمام المرآة . وكان لا يستطيع أن يجهل وجودها بالغرفة وهى التى كانت منذ لحظة فى الشرفة وقد رآها وهو فى الغرفة المجاورة . لقد لمحت فى نظرته شيئا من الأسف وقد امتزج بالاعجاب الصارخ ، كان نظرته تقول : « انها جميلة ورغم ذلك وحيدة ! » .

لقد بدأ الطقس ينقلب ، اذ انقطع النسيم تماما . وانسابت حبات من العرق على جسمها الناعم . وفى بطء وتكاسل ، ارتدت الفستان الابيض وخرجت الى الشرفة ، بعد أن خبأت عينيها وراء نظارات شمسية . وبينما كانت تتكىء بيديها على الحاجز الخشبى للشرفة لسعتها السخونة المتصاعدة منه ، ووصلت الى أنفها رائحة دخان سيجارة آتية من بعيد . وشاهدت أحد الجرسونات يأتى بأكواب فيها شراب ويضعها على مائدة فى الشرفة الكبيرة ودخلت الى مسامعها أصوات آتية من تصادم زجاجتين ، صاحبتها ضحكة رجل وحديث سيدة .

ومر فى هــذا الوقت كلب كبير من النــوع الالزاسى . كان يمشى وكأنه يبحث عن مكان ظليل يهرب اليه من قيظ الصيف وشمسه الحارقة . ومن بعيد رأت المركيزة مجموعة من الشباب وقد لفحت الشمس وجوههم وأجسادهم العارية . كانوا يخرجون توا من البحر وجروا الى الشاطىء وهم يصرخون فى طلب شراب «المارتينى» كان يبدو أنهم أمريكيون . وبينما رمى الجميع حقائبهم على الكراسى أطل واحد منهم ينادى الكلب ، فرمقته المركيزة بنظرة فيها حقد ممزوج بالغيرة . كان الجميع يمرح فى حرية. يذهبون ويأتون ولا رقيب عليهم ، يركبون سيارة اذا شاءوا أو يذهبون مشيا على الأقدام . كان مرحهم فى الحياة ينفى كل خفاء ، لأن تصرفاتهم لم تكن تخفى لحظة واحدة من الانفعال ، ولم يعرفوا قط الوقوف وراء باب أغلق نصفه . وظلت المركيزة تفكر فى الحب . ونزعت وردة ووضعتها فى فتحة صدرها . كان يخيل اليها أن الحب شىء صامت ، شىء لطيف بعيد كل البعد عن الصخب والجلبة ، والضحكات المتعالية. كان الحب عندها أقرب الى الفضول الذى يغلفه الخــوف ، حتى اذا ما ذهب الخوف حلت محله الثقة الجريئة ، انه لا يكون اتفاقا بين أصدقاء ، وانما عاطفة تنشأ بين مجهولين ..

وبدأ المصطافون يعودون واحدا بعد واحد الى الفندق ، وامتلأت الموائد جميعها . وأفرغت السيارات الكبيرة حمولتها من الناس الذين أتوا لتناول الغداء واختلطوا مع نزلاء الفندق . وتصاعد الصخب من الموائد . وضحكات امتزجت برنين الزجاجات الفارغة والأكواب والأطباق . ووصلت الطفلتان ومن خلفهما المربية الانجليزية وشق الثلاثة طريقهم فى هذا الزحام كانت البنتان مثل عروستين جميلتين من عرائس الألعاب وقد ارتديتا ملابس جميلة . ولما اقتربوا من الشرفة العالية حركوا أيديهم لتحية أمهم « **يا أماه . يا أماه** » . ومالت المركيزة الى الأمام . وكالمعتاد أثار هذا المشهد انتباه الجميع . ونظر أحد الأشخاص الى البنتين ، ثم الى الأم وابتسم . وابتسم رجل آخر وأشار الى أصدقائه اشارة جعلهم يضحكون مثله . وهكذا تصاعدت من كل جانب اشارات الاعجاب ، ذلك الاعجاب الذى يبلغ ذروته كل يوم عندما تنزل المركيزة ، المركيزة الفاتنة ومن حولها ملاكاها الطاهران . هذا ما كانت تتمتع به فى كل يوم ، عندما تنزل

الى غرفة الطعام : موجة تسبيح وطوفان من الاعجاب ، ثم بعد ذلك النسيان الكامل ، لأن كل فرد ينصرف بعد الأكل الى النوم أو الى البحر أو الى لعب التنس • أما هى فتبقى جميلة ووحيدة معها أطفالها والمس كلاى الانجليزية •

وصاحت احدى البنتين : انظرى يا أماه لقد وجدت نجمة البحـــر هذه وسوف آخذها معى عندما نعود •

ـ لا • لا • انها لى أنا التى رايتها اولا ••

وتشاجرت البنتان معا • وصاحت الأم بشدة : **سيلست ! هيلين ! كفوا عن هذه المشاجرة • انكما تجلبان لى الصداع ••** »

ـ هل سيدتى متعبة ؟ يجب ان تستريحى بعد الأكل ، فالحر قاس ••

تحدثت المس كلاى الى سيدتها فى أدب بالغ ، ثم غيرت لهجتها وهى تحدث البنتين : فى هـذا الحر المزعج ، سوف نرتاح جميعا عقب الأكل مباشرة •

وطافت فى ذهن المركيزة آراء غريبة عن الراحة • الراحة •• « أنا لا أفعل شيئا سوى الراحة ! ارتاحى يا عزيزتى ، فان وجهك يظهر عليه التعب • فى الشتاء كما فى الصيف ، لا تتغير الاسطوانة •• التى تسمعها من زوجها ، ومن المربية ، ومن أخوات زوجها • كانت حياتها تتلخص فى النهوض من النوم صباحا ، ثم الراحة فالراحة وأخيرا الراحة ! وبعد الظهر كانت أيضا ترتاح من الساعة الثـانية الى الرابعة !

وردت المركيزة على ملاحظة المس كلاى : « **أنا لست متعبة اليوم** » ثم غيرت لهجتها وهى التى تحدث المربية دائما برقة بالغة :

« **سوف أذهب بعد** الغداء الى البلد • **سوف أذهب هناك للنزهة** » •

ورفعت البنتان عيونهما فى دهشة واحتجت المس كلاى تقول :

ـ ان الحر شديد **اليوم** وسوف تتعبين نفسك بدون مبرر ، **خاصة** وان **المحلات العامة تغلق فيما بين الواحدة والثالثة • فلماذا** لا تنتظرين الى وقت غروب الشمس ، ويمكنك اذ ذاك **أن تصحبى الأولاد بينما اظل أنا هنا أشطب بعض** الاعمال المنزلية ! »

ولم تجب المركيزة ثم قامت توا الى غرفتها ، بينما ظل الباقون يتمون أكلهم ، لأن سيلست الصغيرة بطيئة فى تناول الأكل • وفى غرفتها وقفت المركيزة أمام المرآة وأخرجت علب الزينة ورسمت شفتيها بالاحمر وعطرت حلمتى أذنيها •

ومن الغرفة المجاورة وصلت الى مسامعها صوت الأطفال والمس كلاى تحاول تنويمهم • وأخذت المركيزة حقيبتها المصنوعة من الرافيا المجدول وتركت محفظتها تنزلق فيها ورمت فيها لفة من لفف الأقلام • ثم مضت على أطراف قدميها أمام غرفة الأطفال ووصلت أخيرا الى الطريق المترب •

ومضت فى مشيتها والحصى الصغير يدخل فى حذائها ذى الجـوانب المفتوحة فيؤلمها ، بينما كانت الشمس تلسع راسها • وتبين لها أن ما كانت تظنه عملا جديدا وأصيلا لا قيمة له ولا معنى له ، بل هو سخيف • كان الطريق خاليا ، والشاطىء مهجورا لأن المصطافين الذين كانوا يملأونه ضجة هرعـوا الى بيوتهم ليصيبوا قدرا من الراحة •

ولما وصلت الى المدينة تحققت نبوءة المس كلاى ، فقد كانت المحلات جميعها مغلقة ، لأن ساعات الراحة كانت مقدسة وتسود على سكان القرية الصغيرة • وظلت المركيزة تخطر وحدها فى الشارع الكبير وفى يدها حقيبتها التى تحركها على نغمة خطواتها المتكاسلة • ومن بعيد بدا المقهى خاليا الا من كلب صغير ارتمى على الارض مغمض العينين ، ومن حين لآخر يحرك ذيله ليطرد الذباب • كان الذباب كثـيرا فى كل مكان • رأته فى واجهة الصيدلية وهو يتزاحم حـول قنانى الدواء والزيوت الشمسـية وأدوات الزينة • ورأته أيضا يتراقص حول النظارات الشـمسية وعرائس الأطفال والأحـذية الصيفية المجدولة بالحبال • وأنه أيضا عند الجزار يسبح فى الدماء ويلطخ ما حوله باللون الأحمر •

وسمعت المركيزة صوت راديو يزعق فجأة ثم يصمت ، حتى مكتب البريد كان مغلقا • ظنت المركيزة أن فى امكانها أن تضيع بضع دقائق فى شراء طوابع • وعالجت أكرة الباب فلم تنفتح !

وبدأ العرق ينساب تحت ردائها .. وابتلت قدماها وهما فى الصندل الفاتن . كانت الشمس ساطعة والجو ساخنا .. وفجأة أحست برغبة شديدة تجذبها الى البحث عن مكان ظليل ، مكان يكون رطبا وبعيدا عن هذا اللهيب المشتعل .. كانت تحلم بمكان هادىء منعزل .. تكون فيه مثلا حنفية ماء يتساقط منها على صورة خيط رفيع فتبلل قدميها أو ترطب يديها .. ولكن أين ؟ وأصابها ما يشبه اليأس حتى كادت الدموع تطفر من عينيها .. واستدارت على عقبيها ورأت حارة مسدودة على كل ناحية منها دكان . ونزلت السلالم التى قادتها الى حوش صغير معتم . ووقفت برهة وقد أراحت رأسها على الجدار الرطب . وفجأة، فتح مصراع خشب وأطل منه رأس . وارتبكت المركيزة وقالت على سبيل الاعتذار وقد شعرت بأنها جاءت تتجسس على أناس يعيشون فى البدرومات :

ـ أنا آسفة ..

غير أنها صمتت ، لأن الوجه الذى ظهر كان جميلا وسمحا . كان يمكن أن يكون وجه قديس كرسوم القديسين على نوافذ الكنائس البديعة . شعر مجدول يحيط بوجه برىء له أنف دقيق وعينان كعينى الغزال. وسمعته يقول :

ـ هل سيدتى المركيزة تريد شيئا ؟

وسرها أن عرفها . وأسرها صوته الجميل الذى يكشف عن شخص مثقف ويتجاوب مع عيون صاحبه الشبيهة بعينى الغزال .

وردت عليه فى أدب :

« ان الطقس حار ، والمحلات جميعها مغلقة . لقد شعرت بتعب .. وأنا آسفة لأنى اقتحمت هذا الفناء الخاص .. »

واختفى الوجه من النافذة لأن صاحبه جرى يفتح بابا لم تتبين السيدة مكانه . وبعد قليل كانت جالسة على كرسى على مدخل غرفة مظلمة ورطبة . ورأت فى يديه وعاء كبيرا به ماء ، وقالت له : **« شكرا لك . شكرا لك » .**

ورفعت عينيها نحوه وشاهدت الخشوع الذى ينبثق من وجهه وهو ينظر اليها فى تعبد ويقول فى صوت يفيض رقة :

ـ هل أستطيع أن أفعل شيئا لسيدتى ؟

وهزت رأسها بالنفى ، بينما كان قلبها يركض سرورا ، لأن معجبا نظر اليها وعرفها منذ اللحظة الأولى التى التقت به وهو يفتح المصراع الخشبى لنافذته . وامتدت يدها الى الوشاح الذى يغطى كتفيها وضمته ، بينما سقطت عينا الغزال على الوردة التى أطلت من صدرها الرائع . وسألته المركيزة :

كيف عرفت شخصيتى ؟

ـ لقد حضرت الى دكانى منذ ثلاثة أيام . وكان أولادك معك واشتريتم أفلاما للتصوير . .

ونظرت اليه بدهشة . لقد تذكرت فعلا انها اشترت أفلاما منذ ثلاثة أيام من حانوت صغير زينه صاحبه بلافتات كبيرة تحمل اسم « كوداك » . وتذكرت أيضا أن بالمحل سيدة دميمة وعرجاء ولم ترد أن يرى أولادها عاهة السيدة فيسخروا منها ، وقد تفلت منها ضحكة ، فطلبت مشترياتها بسرعة وأمرت بأن ترسل الى الفندق .

ـ انها أختى التى باعت لك فقد كنت فى نهاية الحانوت لأنى أترك مهمة خدمة الزبائن لأختى . أنا مصور أقوم بتصوير الناس والمناظر فى الريف ، ثم نبيع المناظر للمصيفين .

ـ نعم .. لقد فهمت !

وشربت بعض الماء ، كما شربت أيضا الاعجاب الذى كان ينبثق من عينى الشاب .

وأخرجت لفة صغيرة من حقيبتها وقالت : « لقد أتيت بفيلم أريد تحميضه .. هلا طبعت لى منه صورا ؟

ـ بالتأكيد . سأفعل أى شىء تطلبه منى سيدتى المركيزة . منذ اليوم الذى جئت فيه الى المحل وأنا ... »

وجمد الكلام على لسانه بينما اشتعل وجهه احمرارا ، ثم أدار وجهه ارتباكا • وكتمت المركيزة ضحكة بدأت ترتسم على محياها الملائكى • كانت تظن أن هذا الاعجاب الزائد سخيف ، لكنها رغم ذلك شعرت بأنه يعطيها احساسا قويا بالسلطان والسيطرة • ثم قالت له :

« وماذا حدث لك منذ اليوم الذى جئت فيه الى محلك ؟ »

ونظر الفتى اليها ثانية وقال : « وأنا لا أفكر فى شئ سواك ، لا شئ غيرك أنت • » قال كلامه فى ايمان عنيف أفزعها • وابتسمت المرأة وناولته الاناء وهى تقول : « انى امرأة عادية جدا • واذا عرفتنى جيدا سوف يخيب ظنك • »

وظلت تفكر فيما حدث لها وفى قوة سيطرتها على الموقف • لم تشعر بأقل اهانة أو ضيق وهى الآن فى بدروم تتحدث مع مصور لا شأن له ويصارحها بشديد إعجابه • هذه أمور مضحكة فعلا • » مسكين هذا الرجل لأنه يتحدث بلهجة جادة ، وكأنه يعتقد فى صدق ما يقوله ! » ثم قالت تحدثه :

ـ « **هل ستأخذ الفيلم لتحميضه ؟** »

ولم يستطع الفتى أن يرفع نظره عنها ، وبدورها نظرت اليه فى جرأة حتى خفض عينيه عنها بعد أن صعد الدم فى رأسه • وقال لها : « **اذا عدت من نفس الطريق فتحت المحل من أجلك** » •

وكانت هى تنظر اليه الآن الى صدره العارى وشعره المجدول • وسألته : « **الا يمكننى أن أترك لك الفيلم هنا ؟** »

ـ لا • فسيكون قبولى له حسب الأصول المرعية • واستدارت على عقبيها وصعدت درجات السلم حتى وصلت الى الشارع الملتهب بحرارة الشمس ، وانتظرت على الطوار حتى سمعت صوت المفتاح يدور فى باب المحل • وعن قصد انتظرت فترة فى الطريق قبل أن تخطو داخل الدكان ، الذى بدأ هواؤه ثقيلا وحارا بالنسبة للبدروم الرطب • ورأت الشاب خلف حاجز البيع وقد لبس قميصا أزرق ، فاشمأزت من منظره اذ بدا لها كبائع حقير لا شأن له • وسألته :

ـ « **ومتى ستكون الصور جاهزة ؟** »

وتأملها طويلا من جديد وهو يرد على سؤالها : « **غدا** » وفى تلك اللحظة لم تره السيدة بقيمصه الأزرق ، وانما شاهدت فى حياتها بصدره العارى ، وقالت له : **مادمت مصورا ، أود أن أطلب اليك أن تحضر الى الفندق لتصورنى انا واولادى** •

ـ **حقا ؟**

ـ **نعم** •

وشعر الفتى بوميض خفى هز كيانه ، وحنى قامته تحت الحاجز الخشبى متظاهرا بأنه يفتش عن قطعة من الدوبارة • ورأت السيدة يديه ترتجفان وانه مضطرب كل الاضطراب وان قلبه يخفق بشدة • وسمعته يقول :

ـ **سوف آتى الفندق فى الموعد الذى تريدين** •

ـ **الأفضل ان يكون ذلك فى الصباح ، حول الساعة الحادية عشرة** • »

وخرجت فى تكاسل من الحانوت دون أن تودعه ، واجتازت الطريق ولما نظرت فى زجاج المحل المقابل لمحله ، رأت خياله قد اقترب من الباب بعد أن خلع قميصه •

وصار المحل مغلقا لأن فترة الراحة لم تنته بعد ، ولاحظت للمرة الاولى أنه يعرج مثل أخته ، كانت قدمه اليمنى فى حذاء له نعل سميك ، غير أن عاهته لم تزعجها ولم تعطها رغبة فى السخرية كما حدث لها مع أخته • بل بالعكس كانت هذه القدم القصيرة تؤثر على كيانها تأثيرا خلابا لم تعرفه من قبل •

وفى صباح الغد وفى تمام الساعة الحادية عشرة ، أخبر موظف الفندق خادمة الغرفة أن السيد «بول» المصور ينتظر أوامر المركيزة • ونزلت الخادمة تخبره بأن سيدتها تطلب من السيد بول أن يتكرم بالصعود الى جناحها الخاص • وبعد برهة ، سمعت طرقا مؤدبا على الباب •

ـ **أدخل** ••

كانت المركيزة واقفة بين ابنتيها وكان الثلاثة يكونون مشهدا رائعا • كانت السيدة ترتدى اليوم رداء من الصوف اللامع وقد عقصت شعرها بطريقة تختلف عن تسريحة الأمس التى كانت تظهرها كفتاة ذات



جديلتين مربوطتين بشريط • أما اليوم فقد رفعت شعرها الى أعلى بعد أن فرقته من النصف وشدته الى **الخلف** ، فظهرت أذناها الصغيرتان وقد تدلى من كل منهما قرط براق •

ووقف المصور لحظة على الباب دون أن يتحرك • أما الطفلتان ظلتا مؤدبتين ، تنظران فى صمت الى قدمه القصيرة بشىء من الاستغراب ولكنهما لم تتحدثا ، لأن الأم أنذرتهما قبل مجيئه •

وقدمت المركيزة ابنتيها وهى تقول : **والآن قل لنا اين يجب ان نجلس وكيف ؟**

ولم تنحنيا البنتان احتراما كما تعودتا أن تفعلا أمام الضيوف ، وذلك لأن الأم قالت لهما ان هذا الترحيب ليس ضروريا ، لأن المسيو بول مصور يعمل فى حانوت البلدة •

– يا سيدتى • كم احب ان اصوركن جميعا وانتن فى مكانكن • انه وضع طبيعى فيه انسجام •

– كما تريد • ياهيلين قفى ولا تتحركى •

– ارجوكن الانتظار حتى اجرى ضبط العدسات •

وذهب انفعاله لأنه كان منهمكا فى اعداد الآلات وضبط الآلات • ونظرت المركيزة اليه وهو مستغرق فى تركيب الحامل المثلث وشد الستارة السوداء ولاحظت أن يديه دقيقتان وناعمتان • لم تكونا يدى عامل يدوى ، ولا يدى بائع فى حانوت •• كانت يدا فنان أصيل • ووقعت عيناها على قدمه القصيرة ، ولكنها لم تشمئز منها ، فقد كانت عاهتها أقل شدة من عاهة أخته • كان يجر قدمه ببطء ، فاثار شفقتها عليه ، وقد تخيلت أنه يتألم منها خاصة فى الطقس الحار عندما يضطر دائما الى سحبها خلفه •

ـ والآن استعدى يا سيدتى •

ورفعت المركيزة نظرها من قدمه وقد خنقها شعور بالاثم ، ثم أخذت جلستها بطريقة طبيعية وضمت البنتين نحوها بساعديها بعد أن رسمت ابتسامة خلابة على شفتيها •

ونظر بعينيه البنيتين اليها • كان صوته منخفضا وحنونا • وكما حدث بالأمس ، غمرت السعادة قلبه وداس على مفتاح آلة التصوير • وطلب أن يصورها مرة ثانية • وأحست أنه عندما كان يتوقف قبل أن يدوس على مفتاح التصوير ، فليس لضبط العدسات كما يدعى ، وانما لأنه كان لا يستطيع أن يرفع نظره عنها •

ثم أخذ صورا فى الشرفة وفى الغرفة • وبعد نصف ساعة اشتد ضجيج الأطفال ، فاعتذرت وقالت : « ان الدنيا حر » ثم نادت هيلين وسيليست وقالت لهما : « خذا لعبكما وابتعدا فى نهاية الشرفة ! » وجرت البنتان الى داخل الشرفة • وتركت المركيزة المصور وحده بينما كان منهمكا فى ملء آلته بأفلام جديدة • ولما عادت اعتذرت قائلة : أنت تعرف •• ان الأطفال هكذا •• انهم لا يعرفون ماذا يريدون •• وانت يا مسيو بول كنت معهم صبورا جدا • »

ثم قامت وقطفت وردة من الشرفة وأحاطتهما بيديها فى رفق بالغ •

ولما رآها المصور ، سألها فى حرارة : « أود أن أسألك •• اذا سمحت لى ، أن أصورك صورة وانت وحدك بدون الأطفال ••

فسألته : **ماذا تريد على وجه التحديد ؟**

ـ أريد أن تسمحى لى بأن أصورك صورة أو اثنتين ، وانت وحدك •• بدون الاولاد ••

ـ نعم •• بلا شك •• فليس عندى ما أفعله الآن !

واستلقت على الكرسى الطويل واستندت على مخدات بينما ارتكزت برأسها على ساعدها •

وسألته : **أهكذا تريدنى ؟**

واختبأ وراء الستارة السوداء ثم مكث يضبط الآلة ، واقترب منها وهو يعرج : « **اذا سمحت ، ارفعى يدك قليلا ، واخفضى رأسك قليلا ••**

ثم أمسك يدها ووضعها فى الموضع المناسب ، ثم قرب أصابعه فى خجل من ذقنها ورفع رأسها فى رفق ، وأغمضت المركيزة عينيها ولكنه لم يرفع يده عنها • وبدون أن يدرى ، انزلقت أصابعه على بشرتها وجرت خفيفة على عنقها • مضت أصابعه كحفيف خفيف ، مثل لمسة العصفور الرقيق •

وقال لها : **نعم هكذا ••**

ورفعت المركيزة عينيها نحوه ، ورأته يعود الى آلته • ولم تتعب بسرعة كما فعل الأطفال • وسمحت لبول أن يصورها مرة ، ومرة ثانية ، ومرة ثالثة ، وعادت البنتان تصخبان ثانية ومكثتا تلعبان فى الشرفة فى ضجة خلقت ألفة بين الشخصين الآخرين • وكبرت الثقة فى نفسه وبدأ يقترح عليها أوضاعا قبلتها بارتياح تام ، وفى مرة أو مرتين لم يعجبه رسمها واقترب منها ليصححه ، **ليس هكذا • لا •• اقتربى ••**

وكان اذ ذاك يقترب منها ويركع أمامها ويبعد قدمها قليلا أو يلمس كتفها ، كانت كل لمسة منه أجرأ من سابقتها وأصبحت يده أكثر جراءة وأصابعه أكثر اقداما • ولكنها عندما كانت تريد أن تجبر نظره أن يقابل نظرها ، كان يخفض عينيه فى حياء وكأنه يخجل مما فعل ، هكذا بينما كانت عيناه مليئتين برقة بالغة لا تؤيد مطلقا جراءة يديه • كانت المركيزة تشعر بالصراع الذى يطحنه طحنا وتسر من جراء ذلك سرورا داخليا • ولما أصلحت من ردائها للمرة الثانية ، تبين لها أن وجهها أصفر وأن حبات العرق تملؤه • فقالت : **ان الحر لا يطاق • لقد اخذت لى صورا كثيرة اليوم !**

ـ كما تشائين يا سيدتى • ان الحر فعلا شديد ويحسن أن نتوقف ••

ثم قامت فى خفة . لم تكن تشعر بأى اضطراب أو تعب . كانت على العكس مليئة بقوة جديدة لم تعرفها من قبل . وفكرت فى الذهاب بعد الغذاء مباشرة الى البحر لتستحم . غير ان الأمر لم يكن هكذا بالنسبة للمصور ، فقد كان متعبا تخر حبات العرق من جبهته ويجر قدمه فى بطء شديد . كان يبدو أنه متعب . ثم تشاغلت المركيزة عنه بالنظر الى الصور التى طبعها لها من فيلم الأمس وقالت : هـذه الصور ليست متقنة . كان يجب أن أتعلم هذا الفن .. هل يمكنك أن تعطينى دروسا ؟

ـ أن ما ينقصك هو بعض التمرين . عندما بدأت الاحتراف ، كانت عندى آلة مثل التى عندك ، وحتى الآن أستعين بها لتصوير المناظر الخارجية . انى أنجح بها مثل نجاحى بآلة كبيرة .

ثم وضعت الصور جانبا لأن المصور كان مستعدا للذهاب فسألته :

« انك مشغول ونحن فى وسط الموسم الآن . فمتى تجد الوقت الكافى لكى تصـور المنـاظر الخارجية ؟

ـ انى أجده يا سيدتى ، بل أحب التصوير الخارجى أكثر من تصوير الاستديو ، وأحب تصـوير الطبيعة أكثر من تصوير الناس . وقلما تعرض لى فرصة بهيجة كاليوم مثلا ..

ونظرت اليه وقرأت فى عينيه معانى التواضع وحرارة الاخلاص . وأمعنت فى النظر اليه حتى خفض عينيه وهو مضطرب .

قال لها : **ان المنظر جميل من الشاطئ .. ولا شك انك شاهدته فى نزهاتك . انى فى كل يوم بعد الظهر آخذ آلتى الصغيرة وأذهب الى هناك فوق المرتفعات على يمين الشاطئ**

ومن الشرفة أشار بأصبعه نحو المكان ، وتابعت بنظرها اشارته . كان المرتفع هنـاك يبدو لامعا من بعيد ..

وأكمل الفتى حديثه : يوم جئت فى **البـدروم كنت مصـادفة هناك ، لأنه كان لزاما على أن أطبع صورا لسياح كانوا على** وشك السفر . **غير أن المعتاد ن أكون على الشاطئ فى تلك الساعة .**

ـ ولكن هناك الطقس حار ؟ اليس كذلك ؟

ـ ربما . ولكن الريح جميلة على المرتفع . وفيما بين الساعة الواحدة والرابعة ، يكون الناس فى راحة ، فلا أحد هناك وينتابنى شعور بأن تلك المناظر الجميلة ملكى أنا وحدى !

ـ نعم . انى أفهمك .

وظل الصمت بينهما برهة . كان شيئا بينهما لا يعرفان التعبير عنه . كانت المركيزة تعبث بمنديل من الدنتيلا فى يدها فعقدته حول معصمها فى تكاسل وبطء . وقطعت الصمت بقولها: **يجب أن أحاول الذهاب مرة فى هذا الحر القاسى .**

وفى هذه اللحظة حضرت **المس كلاى** الى الشرفة لتطلب من الطفلتين أن تغتسلا قبل الذهاب الى المائدة. وانسحب المصور وهو يستأذن للانصراف فى احترام . وألقت المركيزة نظرة الى ساعتها فوجدت أن الساعة جاوزت الظهر ، ولاحظت ان الموائد قد بدأت تمتلئ بالناس وجاءت الأصوات المعهودة من الشرفة السفلى بما فيها من دمدمة الناس وصـوت الاطباق مثل كل اليوم وكانت لم تلاحظ كل هذا الصخب منـذ دقائق .

وصرفت المصور ببرود وعدم مبالاة ، فقد انتهت الجلسة وجاءت مس كلاى تأخذ البنتين . وشكرته قائلة :

اشكرك . سوف أمر بعد أيام على المحل لأرى تجارب الصور قبل طباعتها . فوداعا الآن .

وانحنى وخرج كموظف أدى عمله على وجه تام . وعقبت المس كلاى : أرجو أن يكون قد نجح فى تصوير سيدتى . ان سيدى الماركيز سيكون مسرورا أن يتلقى بعضا منها .

ولم تجب المركيزة على ملاحظتها ، وانما تشاغلت فى خلع القرط الذى بدا فجأة لسبب غير معلـوم غير ملائم لمزاجها الحالى . سوف تذهب الى مائدة الطعام اليوم دون حلى . وحتى دون خاتم . فاليوم ، جمالها وحده يكفى .

ومضت ثلاثة أيام دون أن تذهب المركيزة الى البلدة الصغيرة . ففى اليوم الاول ذهبت الى الشاطئ .

وقضت بعد الظهر فى مشاهدة مباراة للتنس · وقضت اليوم الثانى مع ابنتيها لأن سمحت للمس كلاى باجازة قصيرة تزور فيها القلاع المحصنة المحيطة بالبلدة على طول الشاطىء · أما اليوم الثالث ، فقد طلبت من المس كلاى وبنتيها الذهاب الى محل التصوير لاحضار تجارب الصور · وجئن بها مربوطة فى لفة أنيقة· وفحصتها المركيزة ووجدت الصور رائعة ، خاصة تلك الصور التى ظهرت فيها منفردة · وتحققت بأن تلك الصور ليست رائعة فقط ، وانما هى فى الواقع أجمل الصور الشخصية التى تملكها على الاطلاق ·

وكانت المس كلاى فى غاية السعادة وقد طلبت من سيدتها أن تعطيها صــورة ترسلها الى اهلها بانجلترا · وكانت لا تفتأ تقول لها : من كان يصدق أن مصورا حقيرا مثله يصور تلك الصور الرائعة ؟ اذا كانت هذه الصور أخذت فى باريس لكلفتك مبلغا ضخما ·

وردت عليها المركيزة وهى تتثاءب : ليست الصور سيئة ! ان التى أنا فيها منفردة أحسن من الصور الاخرى !

ثم لفت الصور فى ربطتها الأصلية وخبأتها فى الدرج · وسألت المربية : هل كان المســيو بول سعيدا ؟

وردت المس كلاى : « انه لم يذكر شيئا · ولكنه كان يبدو حزينا لأنك لم تحضرى بنفسك · وقال ان الصور جاهزة منذ الأمس · وسأل اذا كنت فى صحة جيدة ، ورد الاطفال عليه بانك ذهبت الى الشاطىء للاستحمام ·

وردت المركيزة : ان الطقس حار فى البلدة ، هذا فضلا عن التراب الذى أضيق به ·

وفى اليوم التالى ، بينما كانت البنتان والمس كلاى يسترحن ، تسللت المركيزة على أطراف أصابعها بعد أن لبست رداء قصيرا ·· ثم تركت غرفتها وقد علقت آلة التصوير على كتفها واتجهت نحو الشاطىء · كانت الشمس لاسعة ولكنها لم تعبأ كثيرا بلهيبها ، وسرعان ما وصلت الى الطريق الضيق الذى يقود الى المرتفع · كانت النباتات السرخسية الرطبة تصل الى ساقيها العاريتين ، فتشعر بلذة مبهمة · كانت المركيزة تمشى فى بطء بطريقتها المعهودة ولا تشعر مطلقا بأنها متعبة أو قلقة · وسرعان ما أشرفت على الطريق الذى يطل على الصخور · كانت وحيدة فى المكان ، وعلى بعد بدت لها صفوف الكباين الخشبية ، كمكعبات الاطفال التى يلعبون بها ، وكان البحر هادئا حوله · وحتى هنا حيث الماء يداعب الصخور فى رفق لم يكن ثمة موج اطلاقا ·

وفجأة شعرت المركيزة بوميض خاطف · ولكنها لم تهتم كثيرا بالأمر · ثم دارت على عقبيها واهتمت بآلتها الفوتوغرافية وجهزتها للتصوير ، وصورت المنظر الذى أمامها ، ثم منظرا آخر ·

وسمعت من خلفها حفيف أشجار · والتفتت الى الصوت ثم صاحت فى دهشة :

ـ أهذا أنت يا بول !

لم يكن يلبس قميصه الأزرق ، كان يرتدى قميصا مفتوحا ·· اذ كان الوقت ما زال فى فترة الراحة· كانت خصلات ترسم هالة حول قسمات وجهه الرفيعة · أما عيناه فقد كان لهما بريق ساحر جعلها لا تستطيع أن تتجاهلهما · وقالت له وهى تبتسم : انظر لقد اتبعت نصيحتك وجئت الى هنا لأمتع نظرى بالمناظر الخلابة · ولكن لا أدرى اذا كنت أستخدمها جيدا · فهل أرشدتنى ؟

واقترب منها وأمسك بالآلة ويديها ليضعهما فى الوضع السليم ·

وشكرته المركيزة ، غير انها ابتعدت لأنها شعرت بقلبها يدق فى عنف ، وكانت لا تستطيع أن تتحكم فى عواطفها المشبوبة ·

وسألته : هل معك آلتك ؟

ـ نعم · يا سيدتى · لقد تركتها فى مخبأ هناك · انه مكانى المفضل ·· ويقع على حافة المنحدر · فى الربيع آتى الى هناك لمشاهدة العصافير وتصويرها ·

وسألته : ألا ترينى هذا المكان ؟

وسبقها وقد شق طريقه بين الحشائش الوحشية حتى وصل الى رأس المنحدر · كان هناك مخبأ أشبه شىء بعش موجود فى حضن الأحراش · كانت الفتحة الوحيدة فى هذا المخبأ تطل على المنحدر الوعر الذى يصل الى صخور البحر · وأبعدت بيديها الحشائش العالية لتدخل المخبأ السرى والتفتت حولها وهى تضحك

فى سرور بالغ • ثم جلست الى الارض بكل بساطة كما يفعل الاطفال فى الرحلات • وأمسكت بالكتاب المهمل فوق آلة التصوير بالقرب من سترته •• وسألته :

– هل تقرأ كثيرا ؟

– نعم يا سيدتى •• انى أحب القراءة •

وألقت نظرة على غلاف الكتاب • كان رواية رخيصة من النوع الذى تجده بكثرة عند صديقاتها ويقرأنها فى الخفاء عندما كن فى المدرسة الثانوية • وألقت الكتاب جانبا وهى تسأل : **هل القصة مسلية ؟**

ونظر اليها بعينيه اللتين تشبهان عينى الغزال ورد على استفهامها : **انها قصة عاطفية يا سيدتى ؟**

عاطفية ! يا لها من تسمية غريبة ! وظلت تحدثه عن التصوير وعن الصور التى صنعها لها •• وسألته عن الصورة التى أعجبته أكثر من غيرها فى المجموعة كلها • كانت طول الوقت تشعر بشعور جارف بأنها تسيطر تماما على الموقف • كانت تعرف تمـــاما ماذا يجب أن تفعل ، وفى أى وقت عليها أن تبتسم ، وفى أى وقت تصمت • كانت تعلم متى يجب أن تتساهل ومتى تتمنع • كانت هذه اللعبة تذكرها بأخرى كانت تجيدها وهى صغيرة عندما كانت تلبس قبعة والدتها وتقول لصديقاتها الصغيرات : تعالين نلعب لعبة السيدات ! »

كانت الآن تلعب لعبة جديدة •• ليست لعبة السيدات •• ولكن لعبة أخرى • لعبة ماذا ؟ لم تكن تعرف ! ولكنها على أى حال ليست السيدة التى عاشت طويلا فى صالونات الشاى محاطة بأشياء قديمة وبنساء عجائز •

كان المصور لا يتكلم كثيرا وانما أصبح يستمع جيدا للمركيزة ويومىء برأسه علامة الموافقة • كانت تستمع الى كلامها المنطلق فى شىء من الدهشة وهى تتحدث بذكاء وألمعية • أما هو فلم يكن سوى الشاهد الصامت لتلك السيدة التى تحولت الى مخلوقة ذكية ومرحة • ثم كان بينهما صمت • مجرد توقف لهذا الحديث ذى الاتجاه الواحد ، قطعه الفتى المتعبد وهو يسألها فى رجاء حار :

– هل تسمحين لى بان أطلب منك شيئا •؟

– بالتأكيد ••

– أريد أن أصورك هنا وحدك أمام هذا المنظر الخلاب ؟

وفكرت فى ذهنها : أهذه هى كل طلباته • يا له من فتى غر خجول !

وردت على رجائه : **نعم كما تشاء • خذ لى من الصور ما ترغب • كم هو جميل أن أجلس هنا •• وربما تمددت أيضا ••**

ورد عليها فى ذكاء وسرعة : **الأميرة الجميلة النائمة فى الأحراش !**

ولكنه شعر بأنه تجاوز حدود اللياقة ، فقال فى صوت خفيض : « كم أنا آسف » • ثم أخذ آلته • وفى هذه المرة لم يسألها أن تتخذ جلسة معينة ، وانما صورها كما هى ، دون أن تغير موقفها • والتقط لها صورة وهى جالسة على الارض وفى فمها فرع قصير من النبات الاخضر • وكان هو الذى ينتقل من هنا الى هناك بحثا عن زوايا الضوء لكى يصورها تارة صورة كاملة ، وتارة صورة جانبية • وبدأ النوم يداعب جفنيها • كانت الشمس قد تسللت اليها بينما كانت الفراشات تتراقص أمامها فتثاءبت وتمددت على الحشائش • وجرى اليها الفتى وقد قدم لها سترته : « أتقبلين سترتى كمخدة ؟

وقبل أن تجيب عن سؤاله ، كان الشاب قد طوى سترته ووضعها تحت رأسها وارتاحت على السترة التى سبق أن احتقرتها • وركع الى جانبها وقد انشغل فى اعداد آلته ونظـرت اليه السيدة الراقدة وهى نصف مغمضة • ورأته يركع على ركبة قدمه السوية بينما مد قدمه القصيرة •• وتســاءلت فى نفسها اذا كانت قدمه تؤلمه •ونظرت الى حذائه ووجدت فردة القدم القصيرة تلمع ببريق أخذ أكثر من الفردة الاخرى• وتخيلته فجأة فى الصباح وهو يلبس حذاءه وقد انحنى عليه لتلميعه طويلا • وحطت فراشة على يدها ، كما لو كانت فى حالة انتظار ، وقد لمعت اجنحتها • ماذا تريد تلك الحشرة ونفختها فطارت ••غير انها عادت ثانية فى تردد ولكن فى عناد كان **بول** قد ترك آلته جانبا ،وظلت هى تشعر بنظراته تحيط بها • وقالت فى نفسها اذا تحركت الآن ، سيقوم وينتهى كل شىء وظلت تفحص الحشرة اللامعة كانت تعلم انه

بعد فترة زمنية ، سوف يرفع الفتى نظره عنها وان الفراشة سوف تطير أو أن الصمت سيكون رهيبا وتضطر اذ ذاك ن تقطعه بضحكة بلهاء سوف تهدم كل شيء . وفى أسف التفتت الى الفتى الذى كان يحدق فيها بعينين امتلأتا بالاعجاب والرهبة وبكل تبعية العبد الأمين .وسألته :

ـ لماذا لاتقبلنى ؟

وذهبت لحظة لصدى كلماتها ، فقد أتتها بشعور من الرعب . ولكنه لم يجبها ولم يتحرك . واستمر فى النظر اليها . وأغلقت عينيها وطارت الفراشة .

وعندما اقترب المصور منها لم تشعر بكل ما كانت تنتظر حدوثه . ولم تكن بينهما ضمة مفاجأة وعنيفة . جاءها شعور بأن الفراشة عادت اليها وانها تداعبها بجناحيها والملمس الحريرى ، وانها قد حطت على بشرتها فى نعومة ورفق وعندما ابتعد عنها كان انسحابه فى ذوق وكياسة . وتركها وحدها حتىلا يكون بينهما صمت ثقيل يضطر أن يملأه بحوار مصطنع .

وظلت المركيزة مستلقية على الحشائش وتفكيرها معلق فيما يمكن أن يحدث بعد هذه الألفة . لم تكن تشعر بأى احساس بالعار أو الذنب . كنت على العكس هادئة وصافية النفس . كانت تفكر فى عودتها الى الفندق ودبرت كل شيء . سوف تتركه يتقدمها بحيث لا يربط الناس بأية فكرة بينها وبينه . وقامت واصلحت هندامها وأخرجت علبة الزينة وأصبع الأحمر . كانت الشمس أقل حرارة من ذى قبل وهبت من البحر ريح خفيفة منعشة ، كانت لا زالت تفكر فى الأيام المقبلة . اذا ظل الطقس جميلا استطاعت أن تجيء هنا كل يوم وفى مثل هذه الساعة . ولن يدرى أحد ان المس كلاى والطفلتين يرتحن وقت القيلولة . وعليها أن تمشى وحدها عند الحضور والانصراف مثل اليوم .. وهناك عند قمة المرتفع يمكنها أن تلقى به فى الخفاء ، فما زال أمامها ثلاثة أسابيع .. ان أهم شيء الآن الا يسوء الجو أو يمطر. وفى أثناء عودتها الى الفندق فكرت فى احتمال أن الجو يسوء . عندئذ سيكون عندها ملاذ فى البدروم المدينة حقيرة وقد يكون من التهور أن تلتقى به هناك . وسيكون من الفاضح أن تلبس رداء يقيها من المطر وتخرج به تحت وابل المطر أو الريح .. أن تصرفا كهذا لافت للنظر ..

وفى مساء ذلك اليوم كتب الى صديقتها « اليز »

« انى أمرح هنا بعيدة عن زوجى ..ان المخبأ رائع ..»

غير أنها لم تعط اية تفاصيل عن مغامراتها ، رغم انها تحدثت عن الحشائش وعن الطقس الحار . كانت تعرف أن اليز ، طالما لم تمدها بتفاصيل ، سوف تتخيل انصـــديقها رجل أمريكى فى أجازة قصيرة . وفى اليوم التالى ارتدت ملابسها فى أناقة زائدة ، وظلت فترة طويلة أمام المرآة لتختار الرداء المناسب ...

ثمذهبت الى المدينة بصحبة المس كلاى وابنتيها . كانت مشيتها الكسول وهى تلف قبعتها بأصابعها يوحى بمنظر جميل وهى بين ابنتيها الفاتنتين . كان الناس يلتفتون نحوها أو حتى يفسحون الطريق لهذا الموكب الرائع . ولما كان هذا اليوم هو يوم السوق الأسبوعية فقد ازدحمت الطرق والممرات بالذين أتوا من القرى القريبة وبالسياح الأجانب الذين أتوا الى المدينة للبحث عن هدايا تذكارية . واشترت المركيزة بعض الاشـياء الصغيرة واعطتهـا للمس كلاى ، ثم توجهت الى محل التصوير الذى يعلق لافتات عن منتجات كوداك كان المحل مزدحما بالمشترين وقد جاءوا اليه لشراء الهدايا . وتشاغلت المركيزة فى النظر الى بعض المناظر الطبيعية دون أن يجعلها انشاغلها تفقد صلتها بما يدور حولها . كان الاخوان بالمحل **المسيو بول واخته** . بول يرتدى قميصا ورديا فى هذه المرة ،رأته المركيزة أبشع من قميصه الأزرق . أما الأخت فكانت مثل بقية البائعات تلتفع بشال يسقط على كتفيها . كان قد لمحها وهى تدخل المحل ، فخرج بسرعة من وراء الحاجز تاركا لأخته مهمة مناقشة الزبائن . ووقف أمامها فى أدب وانكسار وهو يطلب أن يؤدى لها أية خدمة لم يكن فى حديثه أى أثر للالفة ولا فى عينيه أى دليل على التواطؤ . وتأكدت من هذا الشعور وهى تنظر فى عينيه نظرة مباشرة ثم أشركت المس كلاى والطفلتين فى الحديث عمدا بأن طلبت من المربية أن تختـار بعض المناظر لترسـلها الى أهلها بانجلترا . ثم انتقدت صور الاطفال وقالت انه لايمكنها أن ترسلها الى زوجها . كان المصور يجد تصرفاتها طبيعية وهى تكلمها بلهجة قاسية . واعتذر وهو يقول ان الصور لا تعبر فعلا عن جمال الأطفال ، لأنها تظلمهم ، وانه فى

سبيل اداء واجبه سوف يأتى مرة ثانية الى الفندق للتصوير ، وبدون اتعاب بطبيعة الحال • واستدار الناس ليروا المركيزة ، كانت تشعر بوجودهم وهم يسبحون لجمالها • وفى برود وعدم مبالاة طلبت من المصور أن يريها بعض الاشياء الصغيرة • وجرى الشاب بسرعة ليأتى بها وهو حريص على ارضائها • كان العملاء الآخرون يتململون وهم فى انتظار الاخت التى ظلت تتنقل بقدمها القصيرة من أول الحاجز الى آخره دون أن تستطيع ارضاء جميع المشترين ، ومن وقت لآخر ترمق بنظرة شزراء أخاها كأنه تسأله متى ينتهى ويأتى لمساعدتها • ورقت مشاعر المركيزة بعد أن تذوقت فى لذة ذلك الشعور بالانتصار الكامل الذى جعل مجيئها الى المحل يثير كل هذا الاضطراب فيه • وملأ قلبها الآن احساس بالراحة • وقالت للمصور : ـ « **سوف أدعوك ذات صباح لتصوير الاطفال ، والآن أريد أن أسدد حسابى ان المس كلاى ستقوم بهذه المهمة ••** »

ثم خرجت فى عدم اكتراث دون أن تحييه • ولم تغير ملابسها قبل الغداء فاحتفظت بنفس رداء الصباح كانت الشرفة اليوم مزدحمة وكانت تصل الى مسامعها همسات تؤكد لها أن الاحاديث تدور حول جمالها وحول فتنتها وهى محاطة بالأولاد كان يخيل اليها ان مدير الفندق والخدم مدفوعون الى خدمتها وقد سرهم فعلا أن تكون نزيلتهم بهذا الاغراء ، واصبحوا يخدمونها فى كثير من المراعاة التى تقارب التزلف • كان كل شىء حولها يساهم فى ابراز فتنتها ازدحام المكان ، رائحة الأطعمة التى تفتح الشهية ، عطور الأزهار ، كسل الناس ، وهدير الامواج القريبة • وعندما تركت المائدة هى وأولادها وصعدت الى غرفتها ، غزا قلبها شعور بالسعادة المطلقة • انه شعور بالامتلاء والسرور الجامح كالذى يملأ الممثلة الاولى وهى خارجة من خشبة المسرح بين طلبات الاعادة والتصفيق •

واتجهت المربية والأولاد الى غرفتهن ، بينما دلفت المركيزة الى غرفتها فغيرت رداءها وحـــذاءها ثم مشت على أطراف قدميها متجهة الى الطريق الضيق الصاعد نحو المرتفع • وكما توقعت وجدته هناك ينتظرها ولم يشر واحد منهما الى زيارة الصباح فى المحل ولا الى سبب اللقاء الآن بعد الظهر • وكما لو كان اتفاقا صريحا ربط بينهما ، اتجها توا الى المخبأ وجلسا • وظلت المركيزة تصف له الضجيج الذى عانت منه فى اثناء وجبة الطعام وازدحام الناس فى الشرفة وهمساتهم وأظهرت له سرورها بأن تستطيع أن تأتى هنا الى المخبأ حيث الراحة والهدوء واعتدال الجو فى هذا المرتفع ••• كان يهز رأسه علامة الموافقة على مايسمع منها ويلتهمها بعينيه ، كأن روح العالم ينبثق من كلماتها • وكما حدث فى اليوم السابق طلب منها فى خشوع أن تسمح له بأن يصورها وقبلت بارتياح واستلقت على ظهرها وأغمضت عينيها •

وانمحت فكرة الزمن فى ساعات بعض الظهر التى تبدو فى الأيام الآخرى طويلة ومملة • وكما حدث فى اليوم السابق ، أتت الحشرة الصغيرة تداعب جسدها ، بينما أطلت عليها أشعة الشمس • كانت تشعر مرة ثانية بلذة المغامرة وقد ملأ قلبها شعور بالغبطة لأن هذه اللذة العابرة لم ترتبط فيها بأية عاطفة جارفة • كان عقلها وقلبها بعيدين عن المخاطرة ، كان شعورها مثل احساسها عندما تذهب الى معهد التجميل فى باريس وتطلب تدليك وجهها •

وفى هذه المرة انسحب الفتى من المخبأ فى أدب وصمت ، ولما ابتعد بمسافة كافية من المخبأ ، خرجت هى منه لتعود الى الفندق • كان حظها عظيما لأن الطقس استمر فى تحسن • وكانت تقوم عقب وجبة الغداء للنزهة اليومية بعد أن ترسل المربية الاولاد الى الراحة ، ولا تعود الا الساعة الرابعة والنصف لتناول الشاى • وفى بادىء الأمر عبرت المس كلاى عن اعجابها بسيدتها الشجاعة التى تتنزه فى الشمس ، ثم رأت فى نهاية الأمر ان الموضوع لا يعدو أن أصبح تعودا جديدا • واذا كانت المركيزة يحلو لها أن تتنزه فى الحر القاسى ، فهذا شأنها وحدها ، ولكنها أحست بأن هذه الرحلات أصبحت تأتى بنعمة جديدة ، لأن سيدتها أصبحت أقل غطرسة نحوها وأقل تعسفا نحو أولادها • هذا فضلا عن نسيانها للصداع الأليم الذى كان يلازمها فى الأيام الأولى •

وانقضت خمسة عشر يوما ، شعرت بعدها المركيزة بأن اللذة الأولى لمغامرتها ظلت تتناقص ، لابسبب بول لأنه لم يتغير ، وانما لأنها اعتادت على هذه المقابلة الرتيبة فى كل يوم ، تماما مثل الدواء الجديد عندما يكون مفعوله فى أول الامر سحريا ، وتتلاشى قوته بعد الاعتياد عليه وتكرار تناوله • وأدركت

المركيزة بغريزتها ، انها يجب ـ لكى تستعيد لذة الأيام الأولى ـ أن تعامل هذا المصور ليس كشاهد صامت لعواطفها المشبوبة ، أو كحلاق مثلا ، وانما أن تعامله ككائن بشرى له جسد ودم يمكن جرح مشاعره • وبدأت فى انتقاد ملابسه واشتكت من أن شعره طويل ، وملابسه غير مضبوطة ، ومحله لا يدار بطريقة صحيحة ، وان الورق الذى يطبع عليه الصور ليس من النوع الجيد •

وأصبحت تجد لذة قصوى فى تتبع آثار هذا العتاب على نفسيته ، ويحلو لها أن تلمس القلق مرتسما فى عينيه وفى وجهه حين يصبح باهت اللون وفى التراخى الذى يحل عليه نتيجة القنوط وفتور الهمة ، كما لو أنه يدرك الى أى حد هو غير جدير بها ، بل هو أقل كفاءة منها فى كل شىء على الاطلاق • حينئذ كانت تشعر باللذة القديمة تملأ جوانحها •

وبدأت بعد ذلك فى خفض ساعات اللقاء ، بأن تتعمد الحضور متأخرة لتجده فى انتظارها وقد نهش القلق تفكيره • واذا لم يكن مزاجها قابلا للحب ، كانت تعامله فى جفاء ولا تستجيب الى عناقه فى يسر ، أو تصرفه بسرعة ، وتراه عندئذ بعين خيالها وقد جر ساقه العرجاء خلفه وهو ذليل كئيب • وسمحت له أن يصورها وحدها • وكان هذا التصوير جزءا من لعبتها ، لأنها كانت تعلم مدى عذابه عندما يراها ساكنة لا تتحرك فى فتنتها الطاغية وجمالها الأخاذ الذى يقارب الكمال • وأحيانا كانت تطلب اليه أن يحضر الى الفندق لتصويرها مع أولادها فى الحديقة ، وتلتذ عندما ترى عيون المعجبين ترمقها من الشرفة ومن كل مكان •

ثم جاء يوم اشتد فيه الهواء فلم تذهب الى موعد اللقاء ، وآثرت أن تقضى وقتها فى قراءة رواية ، فشعرت بأن هذا التغيير قد جلب لها راحة وسعادة •

وفى اليوم التالى اعتدل الجو فقررت أن تذهب الى المخبأ • ولاول مرة منذ أن تعرف اليها ، بدأ يعاتبها وقد اشتد صوته بسبب القلق : « لقد انتظرتك أمس •• ماذا حدث لك ؟

واستدارت نحوه فى دهشة : « لم يكن الطقس جميلا ، فآثرت عدم الخروج •

ـ لقد خشيت أن يكون قد لحقك سوء ، أو تكونى مريضة • وجاءتنى فكرة ألحت على ولم أنفذها •• فكرت أن أتصل بالفندق للسؤال عنك •• لم أنم طول ليلتى •• اذ كنت مضطربا غاية الاضطراب !
وتبعته الى مكانهما المعهود وأثار كلامه بعض السرور فى دخيلة نفسها ، ولكنها فى ذات الوقت لم تنس كيف سمح لنفسه أن يوجه اليها اللوم • كان موقفها منه أشبه بتصرفها نحو حلاقها فى باريس أو عامل معهد التجميل عندما يلومها لأنها تأخرت عن الموعد الذى ضربته لها • وقالت له : « أنت تخطىء كثيرا اذا خيل اليك فى يوم ما ان هناك التزاما على بأن آتى الى هنا فى كل يوم • ان لدى أشياء أخرى كثيرة أقوم بها •• »

عندئذ اعتذر لها فى تواضع ورجا منها أن تسامحه • وقال لها :

ـ لا يمكن أن تعلمى مدى ما تمثلينه بالنسبة لى • منذ اللحظة التى عرفتك فيها وحياتى تغيرت • أنا لا أعيش الا لتلك الدقائق التى أراك فيها •• »

وأعجبها خضوعه لها ، لأنه أعاد اهتمامه به • وأعجبها منه تعلقه بها كطفل صغير يتمسك بأمه • وعبثت بشعر رأسه وقد دفعتها الى ذلك عاطفة الأمومة نحوه ، ياله من طفل مسكين ، ذلك الذى قطع كل هذا الطريق الصاعد يجر قدمه خلفه لينتظرها فى هذا اليوم العاصف ويظل وحده ساعات بأكملها فى قلق تحت هواء قارس • وفكرت لحظة فى الخطاب الذى سوف ترسله الى صديقتها اليز : كم أخشى أن أكون حطمت قلب بول • انه أخذ مغامرتى مأخذ الجد • ولكن ماذا أفعل يا صديقتى ؟ كل شىء لا بد له من آخر • لا يمكننى بطبيعة الحال أن أقلب حياتى رأسا على عقب من أجله • وأخيرا انه رجل •• وسوف ينسى ! » •

وسوف تتخيل اليز هذا الرجل أمريكيا أشقر الشعر وله جسم رياضى •• وسوف تراه يودعها بمرارة ثم يركب سيارته من طراز باكار وفى يأسه يتجه بها فى سرعة مخيفة نحو المجهول !

وبعد أن ضمها الى صدره فى ذلك اليوم لم ينصرف ، وانما ظل جالسا على الحشائش وقد ثبت نظره على الصخور العاتية التى تطل على البحر • وسمعته يقول فى هدوء :

ـ « لقد اتخذت قرارا بالنسبة للمستقبل » •

وشعرت المركيزة بمولد مأساة بدأت تتكون أمامها ٠ هل كان يريد انه ينوى الانتحار ؟ ولكن هذا شيء رهيب حقا ! بطبيعة الحال ، عليه مراعاة لشعورها أن ينتظر حتى تنتهى اقامتها فى الفندق وتكون قد عادت الى قصرها !

وسألته فى صوت يفيض حنانا : « وماذا قررت ؟ » ٠

ـ قررت أن أترك المحل باسم أختى ٠ انها نشطة ٠ أما أنا فسوف أتبعك أينما ذهبت ٠ سواء عدت الى باريس أو الى الريف ٠ سأكون دائما بالقرب منك وآتى اليك كلما رغبت فى رؤيتى ٠ »

وبلعت المركيزة ريقها بينما أحست بأن قلبها على وشك التوقف ٠ وبعد لحظة رهيبة قالت : « ولكن هذا مستحيل ٠ ومن أين ستعيش ؟ »

وقال لها : أنا لست أنوفا ولا متناهيا ٠٠ ان القليل من عطائك يكفينى ٠٠ وحاجاتى قليلة فى الحياة ٠ انى لا أستطيع أن أعيش بدونك ٠ والحل الوحيد الذى ارتأيته هو أن اتبعك حيث تذهبين والى الأبد ٠ سوف أستأجر غرفة فى باريس بالقرب من قصرك ٠ أو فى الأرياف أيضا حتى أكون على مقربة منك ٠ ولن نعدم وسيلة لنلتقى ٠٠ عندما يكون الحب قويا كالذى يربطنا ببعض ، فانه لا يعرف العقبات ! » ٠

كان يعبر عن نفسه بطريقته الخاشعة ، غير أن حماسه فى هذه الكلمات كان رائعا لم تتوقعه ٠ وشعرت بأنها فعلا أمام مأساة جاء وقتها غير مناسب ٠ فأمامها الآن شخص مستعد لان يترك كل شيء خلفه لكى يتبعها الى باريس وحتى الى الريف حيث تعيش بضعة شهور فى السنة ٠

وقالت فى عنف وهى تقوم : ولكنك مجنون ! بمجرد أن أترك هذا المصيف ، لن يمكنى أن أراك ثانية ، لأنى لن أكون حرة ٠ ألا تعلم حتى الآن مركزى فى المجتمع ، ألا تدرك معنى هذا الحب بالنسبة لى ؟

وهز رأسه ٠ كان الحزن مرتسما على وجهه وقال فى اصرار بالغ : لقد فكرت فى كل التفاصيل ٠ وأنا بطبيعتى خجول وحذر ، فلن تخافى شيئا ٠ فكرت فى أن تستخدمينى عندك كخادم ٠ فلا يهمنى مطلقا أن أعمل خادما ، لأنى لست متباهيا كما سبق أن أخبرتك ٠ وهناك يمكننا أن نستمر فى حبنا ، ان زوجك رجل كثير الشواغل وهو يتغيب معظم ساعات النهار ، والبنتان تخرجان كل يوم بعد الظهر مع المربية ٠٠ » ٠

وصدمت المركيزة صدمة عاتية الى درجة انها لم تتمكن من الرد على كلامه ٠ لم تكن تستطيع أن تتخيل شيئا رهيبا مثل وجود هذا الشخص الأعرج عندها ٠ وتصورته وهو يذهب ويجيء، جارا ساقه خلفه فى بطء مزعج ٠٠ ثم تخيلته وقد أتاها فى وقت الراحة يقرع على بابها فى خشوع فى كل يوم بعد الظهر ٠٠

ألهذا الدرك سوف تنحط ؟ يا له من مخلوق تعس ٠٠ أن تراه فى منزلها يراقبها ويتابعها بعينيه اللتين تفيضان بالضراعة والاشتياق »

وفى لهجة حاسمة قالت له : انى أخشى أن أقول لك بأن ما تقترحه على لا يمكننى قبوله ٠ كما أنى لن أراك بعد انصرافى من المصيف ٠ كان يجب أن تعرف ذلك بحصافتك ٠ كانت تلك الساعات التى قضيتها معك لذيذة ٠٠ لكنها انصرمت لأن أجازتى قاربت الانتهاء ٠ وبعد أيام سوف يأتى زوجى ليأخذنى أنا والاولاد ونعود ٠ هذا كل ما عندى لأقوله لك !

وتأكيدا لرغبتها فى انهاء الحديث قامت وأصلحت ملابسها ومرت بالمشط فى شعرها ، ثم أخرجت حافظة نقودها وفتحتها ، وأخرجت منها عدة ورقات من فئة العشرة آلاف فرنك وقدمتها اليه قائلة : « خذ هذه الورقات وأصلح بها محلك ، واشتر هدية لأختك ٠ وتذكر أنى سوف أتذكرك دائما بحنان ٠ »

ولدهشتها البالغة ، رأت وجهه يبهت تماما وشفتيه ترتجفان ٠ وسمعته يقول لها : « لا ٠ لن آخذ هذه النقود ٠ انها قسوة منك أن تعرضى على نقودا ٠ »

وفجأة انفجر يبكى بحرارة وقد دفن وجهه بين يديه ٠ ونظرت المركيزة اليه فى اضطراب ظاهر ٠ كانت لا تدرى هل تتركه أو تظل معه ٠ كانت تخشى أن تعتريه أزمة نفسية فيحطم ما أمامه ٠ وداخلها شعور بالأسف من أجله ، وخاصة من أجلها هى ، لأنه فعل فعلا سخيفا أمامها قرب فراقهما ٠ ان رجلا

غيره لم يكن ليسمح لنفسه بأن يتصرف هذا التصرف الصبيانى • والمخبأ الذى بدا لها قبل ذلك رائعا أصبح مقيتا الآن • وحتى قميصه المعلق على غصن أصبح حقيرا • وصاحت به وقد اهتاجت أعصابها :

ـ بالله اضبط أعصابك !

وكف عن البكاء ورفع يديه فكشفتا وجهه الذى بللته الدموع • ثم نظر اليها وهو يرتجف وقد عبرت عيناه البنيتان عن قمة اليأس : « لقد انخدعت فيك • والآن اعلم تماما من أنت • انت امرأة سيئة •• انك تتسلين بتحطيم حياة رجال أبرياء مثلى •• لسوف أروى كل الحقيقة لزوجك ••

ولم تجب المركيزة • كانت تظن انه يهذى ويقول مالا يفهم ••

وقال لها المصور : « هذا ما سوف أفعله • عندما يحضر زوجك الى الفندق سوف أقابله وأحكى له كل شىء •• وسوف أريه الصور التى صورتها لك هنا •• وأثبت له انك كنت تخدعينه •• وسوف يتأكد انك امرأة سيئة • وسوف يصدقنى •• أما أنا فلم أعد أخشى شيئا ، لأنى لن أتعذب بعد الآن قدر عذاب اللحظة التى أنا فيها • ولكن أؤكد لك ان حياتك أيضا سوف تتحطم •• وجميع الناس سوف يعرفون الحقيقة •• سوف أقول كل شىء للمربية الانجليزية ولمدير الفندق وسوف يعلم الجميع كيف كنت تقضين ساعات الراحة بعد الظهر •• »

وتناول سترته وعلق آلته على كتفه •• واستولى الفزع على المركيزة • وتساءلت اذا كان سوف ينفذ تهديده لها ، وهل ينوى حقا انتظار ادوار فى بهو الفندق •

وقالت له : اسمع • اننا سوف نعقد اتفاقا ••

ولكنه تجاهل ضراعتها • كان وجهه أصفر اللون وبه عزيمة جبارة • ووقف على حافة المنحدر ليأخذ عصاه • وفى تلك اللحظة الحاسمة استولى على المركيزة شعور جارف لم تستطع الافلات منه ، فاقتربت منه وقد مدت يديها نحوه ، ثم دفعته بقوة هائلة • لم يصرخ الفتى وهو يهوى فى الفضاء • وركعت المركيزة على ركبتيها ، ولم تستطع الحركة لفترة من الوقت ، ثم شعرت بالعرق يتساقط من جبينها ، وماتت حركة يديها • ونظرت من خلال الحشائش وتأكدت أن أحدا لم يرها • كانت وحدها فى المرتفع كالمعتاد • وانقضت خمس دقائق طويلة وقامت تنظر الى البحر • كان البحر هائجا والأمواج تتعالى وتضرب الصخور فى عنف بالغ • ولم تشاهد جثة الفتى على البر لأن حافة السفح لا انحدار فيها ، فهى تسقط عمودية تقريبا على البحر • ولمت المركيزة أشياءها وانصرفت • كانت ركبتاها عاجزتين عن حملها لأنهما كانتا ترتجفان واضطرت الى الانتظار • ثم نظرت الى ساعتها تحت ايحاء الجريمة ورأت العقارب تدلان على النصف بعد الثالثة • واذا سألها أحد عن استخدام وقتها ستقول : لقد كنت هناك فعلا فى نحو الثالثة والنصف ولكنى لم أسمع شيئا • هذه هى الحقيقة ، لأنها فى الحقيقة لم تسمع شيئا على الاطلاق • وأخرجت مرآة صغيرة من حقيبتها ودهشت لشحوبها البادى وأرادت أن تتزين فى اتقان خشية أن تكشف المس كلاى سرها • فمسحت وجهها بطبقة من البودرة ثم مرت على شفتيها بالاحمر • ولكن هذا اللون الاخير جعلها تبدو كمسخ السيرك لقلة انسجامه عليها من فرط شحوبها • وفكرت مليا فى الامر وقالت : ليس أحسن الآن من الذهاب الى الشاطىء وأخلع ملابسى هناك فى الكابين ثم استحم • وبعد ذلك أعود الى الفندق ورأسى ووجهى مبتلان •واذا سألنى أحد قلت انى كنت فى البحر ، وهذا أيضا صدق ! »

واستمرت فى المشى حتى اذا ما بلغت الشاطىء شعرت بالتعب الشديد كأنها مريضة قامت فى نقاهتها • كانت على وشك الانهيار ولكنها تمالكت نفسها • كل ما كانت تفكر فيه الآن هو أن تعود الى الفندق وتلجأ الى غرفتها وتغلق مصراعى نافذتها وتظل فى الظلام فترة طويلة بعد أن تغمض عينيها • ولكنها لم تجد مفرا من الاستمرار فى الدور الذى رسمته • ودخلت الكابينة وخلعت ملابسها بسرعة ثم ذهبت الى الماء بعد أن تخلصت من حذائها الخفيف المصنوع من ألياف الحبال • وبينما كانت تسبح نظرت الى الناس حولها واهتمت بأشكالهم • ربما شهد بعضهم وقال : « نعم لقد رأيت سيدة تأتى من المرتفع ! »

وبدأ الماء يبرد ولكنها استمرت فى السباحة الى أن صاح طفل كان يلعب مع كلبه فى الماء بأنه شاهد شيئا لونه أسود فى الماء ، فاستولى عليها فزع قاتل حتى كادت تهوى الى القاع • كان يخيل اليها انها لو استمرت فى السباحة لاصطدمت بجثة الغريق • وجلست بالقرب من كابينها وقد خبأت رأسها بين يديها •

كان زوجها ينوى الحضور بعد خمسة أيام ، ولكنها اتصلت به بالتليفون ورجته أن يحضر قبل موعده • « ان الطقس حقا جميل ، ولكنى مللت المكان ، لأن الازدحام زاد والضجيج كثير ، والخدمة أصبحت غير ممتازة » • وأفهمت زوجها أنها حريصة على العودة بسرعة الى منزلها لأن الحديقة لا بد قد ازدهرت الآن وأصبحت رائعة !

وأسف زوجها لقرارها المفاجيء ، وطلب اليها أن تمكث ثلاثة أيام لأنه مرتبط بمشاغل كثيرة ، خاصة وانه يجب عليه أن يزور باريس لانهاء مسألة فى غاية الأهمية ثم وعدها بالحضور يوم الخميس القادم ويسافران فى نفس اليوم عقب تناول طعام الغداء • وسألها زوجها « كنت آمل أن أقضى معكم حتى نهاية الاسبوع حتى أتمكن من الاستفادة بحمامات البحر ثم نعود يوم الاثنين •• ألا يمكن حجز الغرف حتى هذا اليوم ؟ » •

لم يكن فى الامكان حجز الغرف لأنها أخبرت مدير الفندق بقرارها وقد أجر الغرف لنزلاء جدد • كان الفندق مليئا وأكدت المركيزة لزوجها بأن الاقامة لن تعجبه ، خاصة فى فترة نهاية الاسبوع ، وتشددت فى التأكيد عليه كى يحضر يوم الخميس للعودة بعد الظهر •

ووضعت المركيزة سماعة التليفون ثم ذهبت لتتمدد على الكرسى الطويل فى الشرفة • وأمسكت كتابا وحاولت القراءة ، ولكن ذهنها كان منصرفا عن موضوع الكتاب • وكانت آذانها تنصت لكل الاصوات الخارجية • كانت تتوقع أن يدق التليفون فى غرفتها ويتأسف لها مدير الفندق وهو يدعوها أن تحضر الى مكتبه على وجه السرعة لأن رئيس الشرطة موجود • كان يبدو على رجال الشرطة انهم ينتظرون مساعدتها فى حل لغز غامض ! ولكن التليفون لم يدق وجرت الحياة فى طريقها المعتاد • وذهبت لتناول العشاء كالمعتاد وشقت طريقها كالمعتاد بين زحام المعجبين • كانت تجهد نفسها لتناول الأكل • كانت المأكولات لها مذاق الرماد • وادعت أنها مصابة ببرد خفيف • وفى المساء عندما أغلقت عينيها ، كان النوم يبتعد عنها• كانت تحس بأيد تضغط على ظهرها فى عنف وتحاول أن تلقى بها فى المجهول • وبنفس السهولة التى دفعت بها المصور ، كانت تهوى هى أيضا فى فضاء مفزع يشدها اليه •

وفى اليوم الثانى ، وهى جالسة فى شرفتها ، كانت عيناها تمتدان دائما نحو المرتفع البعيد كأنها تنتظر أن يأتيها من هناك مفاجأة • وحدث أن طلبت منها المس كلاى مرتين أن تذهب الى البلدة لشراء بعض الأشياء الصغيرة ، ولكن المركيزة كانت تجد سببا تثنيها عن عزمها • اما هى فلم تترك الفندق ، لأن أقل تفكير فى الشاطىء كان يعطيها شعورا بالألم والتمزق •

وقالت للمس كلاى : انى سأكون على ما يرام عندما يزايلنى هذا البرد الخفيف •

واستمرت مستلقية فى الشرفة تقلب المجلات ذاتها لأكثر من عشر مرات •

وفى صباح اليوم الثالث جاءت البنتان ومعهما أعلام ملونة تلعبان بها : انظرى يا أماه • اننا سنغرس هذه الأعلام الجميلة على قصور الرمال عصر اليوم •

ـ ومن أين أتيتما بها ؟

ـ اشترتها لنا المس كلاى من السوق اليوم • لقد ذهبنا الى هناك بدلا من قضاء وقتنا فى الحديقة لتحضر الصور الأخيرة •

وشعرت المركيزة بصدمة قاسية مفاجئة ، غير انها ظلت فى مكانها جامدة • وسمعت الأولاد يتحدثون مع المس كلاى فى غرفة الحمام • وبعد دقائق حضرت المربية وأغلقت الباب وراءها • وحاولت المركيزة أن ترفع رأسها نحوها •• كانت قسمات المس كلاى تفيض بالأسى وهى تقول :

ـ يا سيدتى لقد حدث شيء مؤلم جدا • لم أشأ أن أحدثك به أمام الأولاد •• انه عن المسيو بول ••

ـ المسيو بول ؟

كان صوتها ينم عن هدوء عجيب ، وقد أرادت أن تكون دهشتها معبرة عن الاهتمام اللائق بأحد من أمثاله •

ـ ذهبت اليوم لاحضار الصور ولكنى وجدت المحل مغلقا •• وتوجهت الى الصيدلية التى تقع جانبه أسأل اذا كانوا يعلمون عن سبب اغلاقه ، فقيل لى ان الآنسة بول ما زالت مضطربة كل الاضطراب لمـ

حدث • ولما استفهمت علمت أن حادثا فظيعا لحق بالمسيو بول ، وان الصيادين وجدوا جثته على بعد ثلاثة كيلومترات من الشاطىء • »

وشحب وجه **المس كلاى** وهى تروى القصة • كانت مضطربة كل الاضطراب بعكس المركيزة التى اكتسبت اتزانا تحسد عليه ، وقالت تعلق على ما حدث :

ـ كم هو رهيب هذا الحادث ؟ هل يعلم أحد كيف وقع الحادث ؟ »

ـ لا • لم أشأ أن أسأل فى الصيدلية لأن الأولاد كانوا معى • غير أنى أظن أنهم وجدوا الجثة فى حالة تعفن ، لأنه اصطدم فى الصخور • ترى ماذا سوف تفعل الأخت بدونه ؟ »

ورفعت المركيزة أصبعها لتطلب الصمت لان الاولاد اقتحموا الغرفة •

وذهب الجميع لتناول الغداء • أكلت المركيزة بشهية لم تعرفها فى الايام الثلاثة المنصرمة • وتساءلت فى نفسها عن السبب الذى أعاد لها شهيتها • ألأنهم وجـدوا الجثة ؟ وبعد الغداء طلبت من المس كلاى أن تذهب الى مدير الفندق لتسأله عن تفاصيل الحادث الأليم ولتخبره بأن سيدتها المركيزة تألمت جد الألم لما حدث • وبينما كانت المس كلاى فى طريقها الى الادارة ، سحبت المركيزة الطفلتين وصعدن جميعا الى غرفهن •

وبعد لحظات قصار دق التليفون فى غرفتها • انه الرنين الذى ترقبه بدون جدوى منذ ثلاثة أيام • ودق قلبها بسرعة •• ثم رفعت السماعة • كان المدير هو المتحدث وأفادها بأن المس كلاى حضرت عنده لتقدم أسفها على ما حدث • وأفادها بأنه كان يعلم بالحادث منذ الأمس غير انه لم يشأ أن يزعجها ، اذ ان من قلة اللباقة أن يتحدث المرء عن الغرق أمام المصطافين ، والظاهر من هذا الحادث الغامض أن الفقيد انزلق من المرتفع ، فقد عرف عنه انه يحب جدا التصوير فى هذه المنطقة • وبطبيعة الحال ، انزلق بسرعة نظرا لعاهة قدمه • وكم حذرته أخته أن يكون يقظا •• انه لأمر مؤسف حقا ، لانه ظريف ومحبوب من جميع الناس ولم يكن له أعداء •• وهو فنان أصيل على طريقته • وسألها اذا كانت مسرورة من الصور التى أخذها لها ولطفلتيها • ان المدير سوف يبلغ أخت الفقيد عن الشعور الأسيف الذى أحست به المركيزة نحوه • وأشار عليها بارسال باقة من الزهور لتخفيف الصدمة على الأخت المسكينة •• غير أن أحدا لايعرف حتى الآن متى سيكون الدفن ••

وبعد انتهاء المحادثة ، استدعت المركيزة المس كلاى وأمرتها بأن تستأجر سيارة أجرة وتذهب توا الى محل بائع زهور وتطلب هنـاك أزهارا بيضاء ، من نوع الزنابق اذا وجـدت ، دون أن تتردد لحظة أمام المصاريف • وكانت المركيزة بعد ذلك تنوى أن تكتب كلمة عزاء على بطاقة ترفقها بالازهار •

وبعد دقائق اصطحبت المركيزة ابنتيها للذهاب الى الشاطىء • وسألت « سيلست » والدتها : ألست مزكومة الآن ؟

ـ لا يا حبيبتى • لقد ذهب البرد وأستطيع الآن أن أستحم ••

كانت المركيزة تفكر فى زوجها الذى تنتظر حضوره فى الغد •• وتشعر من جراء ذلك بسعادة جديدة لأنها سوف تغادر هذا المكان الى الأبد •• سوف تترك الفندق •• وسوف لا ترى بعد ذلك منظر المرتفع ولا البلدة •• وسوف تنسى تلك الاجازة وتمحيها من ذاكرتها تماما وكأن شيئا لم يكن • وقالت تحدث نفسها : عندما أموت سوف يعاقبنى الله • ولا مفر من تجاهل الحقيقة • أنا قاتلة ما فى ذلك أدنى شك• ولكنى من الآن فصاعدا أعاهد الله أن أكون زوجة مخلصة لادوار ، وأما رءوفة بأولادى • وسأحاول جاهدة تكفيرا لذنبى أن أكون طيبة مع جميع أقربائى وخدمى وجميع الناس » •

ولأول مرة منذ أربعة أيام استغرقت المركيزة فى النوم العميق • وفى صباح اليوم التالى ، حضر زوجها مبكرا وكانت مسرورة كل السرور لحضوره الى درجة أنها هبت من سريرها تحتضنه بعنف • وتأثر زوجها بهذا الاستقبال الحار وقال لها مستفهما :

ـ يبدو أنى غبت كثيرا على زوجتى الصغيرة !

ـ كم شعرت ببعدك ! ولهذا السبب تحدثت اليك بالتليفون لأدعوك •

ـ هل تريدين فعلا السفر بعد وجبة الظهر ••

— نعم • وبسرعة •• فلم أعد أطيق هذا المكان اطلاقا • ان كل الحقائب جاهزة ولم يبق سوى ان أضع فيها أدوات زينتى •

كانت تحدث زوجها وهى تمر فى الغرفة لترفع منها كل الاشياء التى تخصها ، ذلك لان الخادم سوف يأتى بعد قليل لوضع الملايات الجديدة تمهيدا لاستقبال نزلاء جدد •

وفجأة سألت زوجها : ألا يمكن أن نرحل قبل الظهر ؟ ونتغذى فى محل آخر •• فى أى مكان على الطريق ؟ فليس أسخف من أن يتناول المرء وجبة فى فندق بعد أن يكون قد سدد حسابه •

ورد زوجها : بالتأكيد يا عزيزتى !

كان الزوج مسرورا من حسن استقباله الى درجة أنه كان يتلهف لأن يلبى كل طلباتها •• أيتهـا المسكينة ، لقد عانيت كثيرا فى غيبتى ! انها لتستحق تعويضا لهذا الاهمال !

كانت المركيزة ترسم شفتيها بالأحمر حين دق جرس التليفون ، فطلبت من زوجها أن يرد عليه ، اذ كانت تظن أن أحد الخدم يسأل عن الحقائب •

وتقدم المركيز من التليفون وبعد لحظات قال لزوجته :

— « ان المحادثة لك يا عزيزتى • ان سيدة تنتظرك فى البهو ، اسمها الآنسة بول •• جاءت لتشكرك على الزهور المرسلة منك » ••

ولم تجب المركيزة بسرعة • وعندما رآها زوجها ، خيل اليه أن أحمر الشفايف الذى وضعته لايناسبها مطلقا • كان يعطيها شكل امرأة عجوز لها نظرة وحشية ! كان يظن انها غيرت اللون المعتاد • وفكر فى أن يقول لها انه ليس ملائما لها على الاطلاق •• وسألها : بماذا يجب أن أرد عليها ؟ أراك غير راغبة فى محادثتها •• فهل أنزل أنا بدلا منك وأصرفها ؟

ولكن المركيزة ترددت فى اضطراب ، ثم قالت :

— لا • لا •• أفضل أن أنزل اليها • لقد حدث لها شئ رهيب • انها تشارك أخاها فى محل صغير للتصوير ، وقد تصورنا هناك صورا لى وللأولاد • ثم حدث أن مات أخوها غريقا • فارسلت لها زهورا •

— كم هو جميل منك •• انها للفتة رقيقة منك •• ولكن هل من الضرورى ان تضيعى وقتك •• خاصة وقد انتهينا تقريبا •

— اذن قل هذا لعامل التليفون ••

واستدار المركيز نحو التليفون وتبادل مع المتحدث كلمات قليلة ، ثم عاد يقول لزوجته : **انها تصر•• انها تقول ان معها صورا تريد أن تسلمها اليك شخصيا » •**

واجتاح المركيزة شعور بالرعب القاتل شل حركتها •• وبعد برهة قالت : **صورا •• أية صـــور ؟ لقد سددت كل ما على من نقود •• وانى أجهل ماذا تريد تلك السيدة » •**

وهز المركيز كتفيه وهو يسأل : **بم أرد عليها •• يخيل الى أنها تبكى بحرارة ••**

وأتمت المركيزة زينتها ، ثم قالت : **اذن قل لها أن تحضر الى هنا •• ولكن اذكر لها اننا سوف نترك الفندق بعد خمس دقائق على الأكثر •• وفى هذه الفترة أرجوك أن تأخذ الأولاد وتسبقنى الى السيارة • خذ أيضا المس كلاى معك •• بينما أنا أقابل تلك السيدة وحدى • »**

وعندما ترك الزوج الغرفة ، نظرت حولها ولم تر سوى حقيبة يدها وزوجا من القفاز • وسمعت قرعا على الباب ، فأمرت الضيف بالدخول •

ودخلت الآنسة بول • كان وجهها منتفخا من البكاء وعيناها تدمعان بغزارة • ترددت فى الدخول •• ثم خطت الى الأمام بقدمها العرجاء • كانت تتلوى فى مشيتها ، كما لو أن كل خطوة هى محاولة أليمة •

— سيدتى المركيزة •• سيدتى ••

ولكنها لم تكمل كلامها ، لأن دموعها انهمرت مدرارا •

وردت عليها برفق : **« أرجوك •• كم أنا آسفة لما حدث لك » ••**

وأخرجت الآنسة بول منديلها وقربته من أنفها ، وقالت :

— انه كان عندى كل شئ • كم كان طيبا بالنسبة الى •• والآن كيف سأعيش ؟ وماذا سأصبح فى المستقبل ؟

ـ هل لك أهل ؟

ـ انهم فقراء لا يملكون شروى نقير · انهم أناس محطمون ·· لا يمكن أن أسألهم المعونة · والآن وأنا وحدى ، بدون أخى ، لن أتمكن مطلقا من ادارة المحل ، فليست صحتى على ما يرام ، لأنى كنت مريضة على الدوام ، وصحتى متهافتة » ·

وفتشت المركيزة فى حقيبتها وأخرجت ورقتين من فئة العشرة آلاف فرنك ·· وقدمتهما اليها وهى تقول :

ـ « انى اعرف أن هذا المبلغ ليس كبيرا · ولكنه سوف يساعدك لفترة من الزمن · أخشى ألا تكون لزوجى صلات كثيرة فى هذه المنطقة ·· ولكنى على كل حال سوف أسأله ، فربما استطاع أن يمد اليك يد المساعدة · »

ودست الآنسة بول أوراق النقد فى حقيبتها دون أن تشكر المركيزة ! وقالت : « هذا المبلغ سوف يكفينى حتى نهاية الشهر وسيساعدنى الآن لتغطية مصاريف الجنازة » ·

ثم فتحت حقيبتها وأخرجت منها ثلاث صور وقالت :

ـ « عندى أخرى مثلها فى المحل ·· لقد ظننت انك نسيتها وانت فى عجلة سفرك ·· لقد وجدتها ضمن حاجيات أخى فى البدروم حيث كان يطبعها » ·

ومدت الصور الى المركيزة · واقشعر بدنها · نعم لقد نسيتها بغير شك أو نسيت بالتأكيد أنها موجودة · كانت الصور تمثلها وهى مستلقية على ظهرها وقد أراحت رأسها على سترة الفتى ·· انه بلا شك داس على زر الآلة دون أن تعلم ، فظهرت صورها طبيعية ، الأمر الذى زاد من فتنتها وهى فى نشوة السعادة اللذيذة · كان قد أعطاها بعض الصور ، ولكن هذه الثلاث ، لم ترها على الاطلاق !

وأخذت الصور ودستها فى حقيبتها · ثم سألتها فى صوت جاف : أتقولين ان عندك غيرها ؟

ـ نعم يا سيدتى المركيزة ·

وحاولت المركيزة أن تنظر الى عينى السيدة · كانتا مليئتين بالدموع ·· ولكن ليس من شك أن لهما بريقا فهمت مغزاه · وسألتها المركيزة : « والآن ماذا تريدين منى ؟

وألقت الآنسة بول نظرة دائرية على الغرفة الفارغة الآن من متاع المركيزة ·· ورأت المناشف ملقاة على الارض ، والملايات قد رفعت ·· ثم قالت :

ـ « لقد فقدت أخى ·· فضاع معنى حياتى · ان سيدتى المركيزة قد أمضت أجازة سعيدة وهى الآن على وشك العودة الى منزلها · انى متأكدة أن سيدتى لا ترغب مطلقا أن يرى زوجها أو أى فرد من عائلتها تلك الصور · أليس كذلك ؟

ـ بالتأكيد لا أرغب · حتى أنا ·· فانى لا أرغب مطلقا أن أراها ·

ـ على أية حال ، ان مبلغ عشرين ألف فرنك ليس شيئا بالمرة الى جانب الاجازة التى استمتعت بها هنا ياسيدتى المركيزة !

وفتحت المركيزة حقيبتها مرة ثانية ، كان بها ورقتان من فئة الألف فرنك وبضع ورقات من فئة المائة ··

ـ « هذا كل ما تبقى معى ·· ويمكنك أن تاخذيه · »

وتمخطت السيدة ، ثم قالت : « الأفضل أن نبرم اتفاقا لأطول مدة · والآن وقد ذهب أخى ، فان المستقبل بالنسبة الى فى غاية التعاسة · ولماذا أظل هنا فى هذا المكان الذى يعيد الى ذكريات أليمة · قبل وفاته بيوم واحد ، ذهب الى المرتفع ، وعاد ليلتها وهو متألم · كنت أعلم أن شيئا ما قد آلمه أشد الألم ولكنى لم أسأله · ربما أخلفت صديقة له وعدها ولم تحضر لمقابلته مثلا · وفى اليوم التالى ، ذهب الى هناك ولم يعد · وأبلغت الشرطة ، وبعد ثلاثة أيام وجـدوا جيته · ولم أتكلم ، تاركة للشرطة أن تتحدث عن احتمال فكرة الانتحار · ولكنى أعلم طباع أخى جيد المعرفة · وأعرف أن قلبه رقيق غاية الرقة · واذا كان مقدر على أن أتعذب ، فلن يبقى أمامى الا أن أذهب الى رجال الشرطة وأوحى اليهم بأن أخى كان ضحية حب يائس وأترك حاجياته الخاصة ليفتشوا فيها عن الدليل · »

وجمد لسان المركيزة من الفزع ، خاصة وقد سمعت خطى زوجها تقترب من الباب • وصاح بها زوجها :

ـ ألا تحضرين يا عزيزتى ؟ ان السيارة على وشك القيام ، والأطفال قلقون ••

وانحنى يحيى الآنسة بول • وقالت الزوجة : « **سوف أكتب اليك لأعطيك عنوانى فى باريس وفى الريف ••** »

ثم فتحت حقيبتها لتبحث عن بطاقة •

ـ أرجو أن تتسلمى أخبارا منى قبل أسبوعين •

ـ ربما قبل ذلك يا سيدتى المركيزة • واذا تركت البلدة هنا ، فسوف أسمح لنفسى أن أزورك لأسأل عنك وأرى الأولاد والمربية الانجليزية ، فان عندى أصدقاء يسكنون بالقرب منك • نعم لى أصدقاء فى باريس • كم أحلم بزيارة العاصمة •

والتفتت المركيزة نحو زوجها وقد ارتسمت ابتسامة بلهاء على شفتيها : **لقد قلت للآنسة بول انه يمكنها أن يطلب معاونتها اذا أرادت ••**

ـ بالتأكيد ! •• كم تألمت عندما علمت بالمصيبة التى حلت بها ، ان مدير الفندق روى لى تفاصيل الحادث المروع •

وانحنت الآنسة بول علامة الاحترام ، ثم قالت : **يا سيدى المركيز ، انه كان كل شىء بالنسبة الى • ان سيدتى المركيزة تعلم ما كان يمثله بالنسبة لى • وكم هو معز لى أن أعلم ، انه مهما حدث لى ، فانه يمكننى أن أكتب اليها ،** وانها سوف تجيب على رسائلى • وهكذا سوف تخف عزلتى • ان الحياة قاسية جدا لمن كانوا وحدهم فى العالم • هل تسمح لى سيدتى المركيزة أن أتمنى لها سفرا سعيدا ؟ وانى آمل أن تكون قد احتفظت من المصيف بتذكار جميل ، غير مشوب بأقل ندم •

ثم انحنت وانسحبت من الغرفة وهى تعرج ••

وقال المركيز فى تأثر : يا لها من سيدة مسكينة ، خاصة عاهتها هذه • ان مدير الفندق أخبرنى بأن أخاها كان يعرج أيضا •

ـ نعم ••

وأغلقت حقيبتها ثم ذهبت لتأخذ قفازها ونظارتها من فوق المدفأة • وقال الزوج :

ـ يا له من أمر غريب •• ان هذا العرج وراثى ••

ثم توقف لانتظار المصعد وقال : **هل تعرفين ريشار دى بولاى ؟** انه صديق قديم لى •• لقد كان يشكو من نفس تلك العاهة • ورغم ذلك لم تمنع تلك العاهة فتاة جميلة أن تقع فى غرامه • وتزوجها ثم أنجبا طفلا •• صار أعرج مثل أبيه •• انها نقائص تسرى فى الدم ••

ودخلا فى المصعد وأغلقت الأبواب خلفهما • وقال الزوج : هل أنت متأكدة من أن فى استطاعتك السفر الآن ؟ •• انك تبدين شاحبة جدا ، وأمامنا طريق طويل •

ـ ولكنى أفضل الذهاب ••

كان طاقم الفندق جميعه ينتظر فى البهو : المدير وموظف الاستقبال ، والبواب ، والمتردوتيل • وقال لها المدير :

ـ آمل أن سيدتى المركيزة تكون قد سرت من الاقامة هنا •• وتأكدى انك سوف تستقبلين دائما بترحاب •• لقد كانت متعتنا أن نقوم بخدمتك •• فوداعا ووداعا ••

وصعدت المركيزة الى السيارة بجانب زوجها • وجرت السيارة على الطريق المرصوف الى أن وصلت الى الطريق الرئيسى • ووراءها ابتدأت مساحات الرمل تختفى ، ومن بعده البحر ، ومن بعده التل المرتفع • ولم يبق أمامها سوى طريق مستقيم يقودها الى المنزل والى الأمان •

الى الأمان حقا ؟ ••



تعقيب على تشلش

« دفاع عن القصة »

في السنوات الأخيرة زاد انتاج العالم من القصص زيادة مسرفة . وأصبحت القصة تروى على الشاشة وخشبة المسرح ، وفى الكتب والمجلات والصحف ، ويعلن عنها كما يعلن عن الصابون .. ويندر أن تجد فى انجلترا أو أمريكا سيدة لا تتأبط مخطوطة لقصة أو رواية . ولعله ليس من الضرورى أن تتوافر للقصة صلاحيات معينة فى كاتبها ، فكل من يملك محبرة ويعانى ضنكا أو ظلما صالح لأن يكتب ، على عكس كتابة المسرحية التى تحتاج الى قليل من الصبر وكثير من الجهد والمال لانتاجها على المسرح . بل ان السيرة الذاتية تعامل اليوم كفرع من فروع كتابة الرواية .. ولهذا تجد كل امرأة تحس فى أعماقها بأنها جان جاك روسو . وليس أكثر اثارة للأسى من أن يكون لديك الدوافع التى حركت روسو دون عبقريته ... وبالتالى لم تعد لعملية التأليف الخيالى فى رأى البعض سمعة طيبة .

وأحسب أن القصة نشاط ممتاز من أنشطة العقل البشرى ، وهو نشاط يقف على قدم المساواة مع غيره مما كرس له أعظم رجال العلم حياتهم ، وأحسب كذلك أن الحقيقة تعرف عن طريق القصة ، وأنها ــ أى الأخيرة ــ مفيدة للبشرية . ورغم أن صفحات التاريخ حافلة بعدم الثقة فى القصة ، الا أنها لم تتوقف عن أن تجد لنفسها محبين وعاطفيين . غير أن قادة الفكر المعاصر يتحدثون عنها دائما بسوء قصد ، حتى وهم يبدون تعاطفهم معها ، كما لو كانت اغراء يجب أن يقاومه الصالحون من البشر .

منذ ألف عام تقريبا قال نيقولا مستشار جامعة باريس : « نحن فى خطر ، نحن الذين نقرأ كتابات الشعراء الملحدين » . ولم يكن هذا الخطر ناتجا

عن الالحاد ، وانما جاءت الصرخة لكون هذا الأدب جميلا للغاية .. ومن الضرورى أن نتتبع هذا الموقف الذهنى خلال القرون الماضية . فنحن نجد أن الكنيسة الكاثوليكية تكون أحيانا هى المخدرة للبشرية ضد رواة القصص ، وفى أحيان أخرى نجد أن المذهب البيوريتانى هو الذى يمنع المسارح، وبالمثل نجد التجارة تلعب دورا هنا فتترك قراءة الروايات لجمهور النساء باعتبارهن يقبلن عليها دون الرجال كما يقبلن على الثرثرة أو صندوق الشيكولاتة أو لعب الورق .

ولا شك أن كتاب القصة والرواية فى الماضى لم يكونوا يحظون بمكانة طيبة فى المجتمع . وباستثناء فولتير كان ديكنز أكثر احتراما فى حياته من أى كاتب آخر ، لكن أى الوظيفتين كانت تعتبر أكثر جدية : وظيفته أم وظيفة رئيس الوزراء جلاد ستون ؟!

وهناك لون من القصص يجد حظا كبيرا من الانتشار ، وهو ما نسميه بالرواية البوليسية . لكنها ليست - ولا تدعى أن تكون - عملا فنيا ، قدر ما هى تدريب على البراعة والذكاء ، ومطالعتها تعادل حل مسألة من مسائل الكلمات المتقاطعة التى تنشرها الصحف ... وليس ثمة ضرر بلا شك فى قراءة هذا اللون ، الا حين تكون مدعاة للفخر فى أوساط المتعلمين الذين يعرفون عن قراءة الأدب الخيالى الجاد ، بدعوى أنهم ليسوا من الحماقة بحيث يتناولونه تناولا جادا ..

غير أن هناك جانبا آخر من جوانب المشكلة .. مشكلة وضع القصة فى خريطة الأنواع الأدبية ومكانتها ودورها الاجتماعى .. وهو جانب يمثله كثيرون، خاصة من الشباب ، ممن ينتمون للتيار السياسى . وهؤلاء ينعتون بالتمييز بين القصة الخالصة والقصة ذات المحتوى الاجتماعى . فمن رأيهم أن أول واجبات الرواية هو أن تعكس بأية درجة روح عصرها ، وأن الفردية الرومانتيكية قد ماتت نظرا لأن العالم يميل الى الشكل الجماعى للدولة، وأن المشكلتين السائدتين فى عصرنا هما عدم المساواة الاقتصادية ومنع الحرب ، وأن الروايات التى لا تناقش هاتين المشكلتين تعتبر تافهة ومعادية للمجتمع بلا شك . وهكذا تكون كلمة السر هى « الوعى الاجتماعى » ، وهو أمر وظف توظيفا ليكون قيمة جمالية . أما الحقيقة والجمال فيعتبران اختبارين باليين فى تقدير العمل الفنى الذى يجب أن ينظر اليه نظرة جادة وأن تكون له نواة ثورية اجتماعية . وقد يكون من السهل فهم هذا الرأى ، لكن القصص الخالصة - قصص الحب مثلا - تعتبر مخدرا فى عرفهم ، فهى تقدم لقارئها لذة لكنها تبرد حدة السخط المرغوب ، وتقود الناس الى النظر من الداخل بدلا من التماس الواقع الخارجى المشحون . وهو أمر ينافى حقيقة الطبيعة الانسانية .. فسعادة الانسان أو شقاؤه، قيمته أو تفاهته ، تتوقف على فلسفته الخاصة ، على قوته فى الحب واستجابته له ، على مقدرته فى الاستمتاع بأشياء صغيرة ، على ايمانه وعدم ايمانه بالسماء والجحيم ، وباختصار على طبيعة خياله وقوته . ان القصة والشعر يعلمانه هذا بطريقة لا توقف فيها ، انهما لا يجعلان من النظرية الاقتصادية عقيدة محترقة وانما يجعلانها بالتعبير الفلسفى مسألة سواء . انهما يقودان الناس الى تفضيل

كتابة مرثية الشاعر جراى على الاستيلاء على ميناء كويبك ، والى تفضيل الفوز بالحبيبة على الفوز بالباستيل نظرا لأن الخلود طويل وعمر الشباب قصير . ان رواة القصص العظـــام يقولون بأن السجون تبنى وتقام دائما ، أما النساء فلا يقمن أو يشيدن للأسف . وهم يقولون مرة أخرى بأن السجون لاتصنعها بيئة الانسان ولكن يصنعها الانسان نفسه ، بمخاوفه ، بأحقاده ، بحسده ، بضعفه ، ولا مفر منها الا بحكمته التأملية ، أو بأعمال التسامى الثلاثة العظيمة ـ وهى الحب والشعر والموت

وهكذا تتلخص الاعتراضات على القصة فى ثلاثة :

● أولا : وجود احساس الناس العادين بأن القصة ترف ومتعة ووسيلة من وسائل تزجية الفراغ بشكل سار تقريبا .

● ثانيا : وجود الاعتراض العام لرجال العلم وقادة الفكر المعاصر بأن القصة عمل غير دقيق وأن الانغماس فيه ينتج انفعالات مضطربة وغير مقبولة ، وأنها لاتستطيع أن تدفع الحقيقة الى الأمام ، وبالتالى ينبغى ألا تؤخذ بمأخذ الجد .

● ثالثا : وجود اعتراض أولئك الذين يعتقدون مخلصين بأن حالة العالم الراهنة لا تتطلب القصة الخالصة لأنها لا تفعل شيئا فى سبيل دفع تحسين الظروف الانسانية الى الأما قدر ماتؤخر عجلة التقدم وتعطلها .

والرد على هذه الاعتراضات بفحص روايات الماضى العظيمة وأثرها فى المصير الانسانى قد يؤدى الى الوقوع فى الخلط، وقد يثير حجة انتمائها للماضى وعدم صلاحيتها للتطبيق فى الحاضر . لكن مما يطمئن أن الانسان يختلف سلوكه باختلاف طريقة تفكيره ، فهو يسلك سلوكا مختلفا فى كل لحظة لأنه فى كل لحظة يفكر بطريقة مختلفة ، وعن طريق نظرية الواقع هذه يتأثر نظامه الكلى للقيم ... أما الفنان فهو ذلك الانسان الذى طور ـ بدرجة عالية ـ المقدرة الخيالية على النفاذ فى ظواهر الأشياء واكتشاف جوهرها الأساسى . والذى يفرق الفنان عن الانسان العادى هنا هو درجة كثافة النفاذ الى ما وراء ظواهر الأشياء ، تلك الدرجة التى ترتبط أوثق الارتباط بالخيال . وكلما توقف الخيال عن الكسل ، وكلما أصبح سريعا ، ناريا ، قويا ، نفاذا ، اشتدت فاعليته وازداد تأثيره . وهذه كلها صفات مطلوبة لخيال الفنان ، على عكس رجل العلم الذى يضع لخياله حدودا ثابتة لا تتزحزح بسهولة ...

ان وظيفة القصة هى أن تحطم هذه الحدود التى يضعها رجل العلم للخيال ، وأن تذيب مجرى الخيال ، وأن تمكنه من الجريان مرة أخرى ....لكن ما الذى يثير مشاهد تمثال أفروديت اليونانى مثلا ؟ لا يثيره بالطبع انفعال يتصل بموضوع التمثال أو بشبهه الدقيق ، لأنه لايماثل امرأة معينة فى اللون أو فى الشكل مماثلة دقيقة ، كما لايثيره استيعاب التمكن الفنى للفنان من وسيلته ، لأن معظمنا جاهل بدقائق فن النحت ، ولكن الذى يثيره حقا هو أن التمثال وسيلة اتصال بينه وبين العالم ، وهكذا الحال فى الفنون الأخرى . فهى تجعل الانسان

يدرك الأشياء العالمية العامة ، وتأذن لخياله بالتدفق ، وتزيح الستار عن نافذة تلك الحجرة الضيقة التى هى حياته المحدودة بالموت ٠٠٠ غير أن القصة أيضا ليست عميلا للأخلاق ، وليست عميلا للتربية ، بل ليس الفنى كله كما قال تولسوى عميلا للمنفعة ٠ فالقصة العظيمة تمثل تدفقا فى الخيال وجريانا فى نهره ٠

وثمة فارق بين ما يؤديه العمل الخيالى للقارىء وبين تمكين خيال هذا القارىء من التدفق ٠٠ لكن اذا أنا حررت خيال القارىء بقصة الحب التى أرويها ، بخداع أو بغير خداع ، حتى تكتمل لديه بعد قراءتها بصيرة أكثر حيوية بالحب نفسه تفوق ما كان لديه ، واذا أنا استطعت للحظة أن أجعل روحه تتحرك عبر صفحاتى وتسكن منطقة من الواقع كانت لديه عنها فيما مضى نظرات خاطفة ومشكوك فيها ، اذا أنا فعلت هذا فلا شك أننى فنان عظيم ٠ وأنا بالطبع أعمل فى الظلام بالنسبة للقارىء الخاص الذى يعنينى ٠ فلست أعرف من يكون هذا القارىء ٠ ولست أعرف طبيعة خياله ، ولست استطيع ، اذا اردت ، أن أعمل لأنتج تأثيرا خاصا عليه ، ولن أفعل اذا استطعت ٠ ذلك لأن كل مايفعله راوى القصة هو أن يعتبر قصته لوحا من الزجاج يظهر له من خلال ضوء الأشياء العامة ، وأن يحفظ هذا الزجاج واضحا نظيفا ٠

ان القصة لا تمتع ، أو تخبر ، أو تعلم ، رغم أنها قد تفعل هذا كله ٠ ولكنها تعيد احياء استعاب القارىء للواقع وفهمه له ، وهى تجعل خياله يتدفق وتعرفه عن طريق حدس طبائع الاشياء ٠ وهنا تظهر العلاقة بين القصة والبحث العلمى والتطلع الدينى ، وكلها أشياء تهتم باكتشاف طبيعة الاشياء ، وفى الاكتشاف تقود الانسان المكتشف، الى التوازن وكمال الحياة ٠٠٠

ان الفن لايخلق الجمال ، ولكنه يكشفه ٠ وقد قال الشاعر شيلى :« ان الشعر يرفع النقاب عن الجمال المخبوء فى العالم » ،وهو قول يصدق على القصة كمايصدق على الشعر ،وهو كذلك يقول ان « تأثير الشعر يتضاءل بنسبة دقيقة حتى يصل الى هدفة الاخلاقى » ، وهكذا الحال فى القصة ٠ اذ يجب أن تكون أداة من أدوات الخيال الخالص ، يستطيع بها الانسان كما يقول شيللى أن «يتخيل بكثافة وذكاء » ٠٠٠ واذا نحن سعينا الى الدفاع عنها على أساس المنفعة العالمية فسوف نفزع كما فزع تولستوى، لكن اذا نحن آمنا بأن ثمة قيمة فى الحب والشعر والفهم الصوفى ، فعندئذ يكون موقفنا حصينا ، لأن قيمة القصة هى فى رفع الستائر وفتح النوافذ ، وادخال الضوء ٠

تلك خلاصة لآراء واحد من كتاب القصة فى هذا القرن ، وهو تشارلز مورجان الذى عرف بتعدد نشاطه الفنى وتنوعه من القصة الى المسرحية الى الشعر الى النقد ٠ وقد نال عدة جوائز على عدد من رواياته ، أشهرها « صورة فى المرآة » و « الرحلة » ٠ وفى هذه المحاضرة التى دافع فيها عن القصة يبدو مورجان كاتبا مثاليا يؤمن بالقيمة الجمالية كأساس فى الفن لا بديل له ولا منافس ٠ ورغم أن المحاضرة لم يضمها كتاب الا بعد وفاته ففيها تأكيد على ما عرف عنه من آراء متشددة فى ربط الفن بذاتية خالقة

ومحاولة تخليصه من الرواسب الاجتماعية التى أصبحت تشكل اليوم « أرضية » الفن المعاصر بأسره ، نتيجة لزيادة انتاج العالم من الثورات الاجتماعية التى تسببت بدورها فى زيادة انتاجه من القصص والفنون بشكل عام • والحق ان احدا لا ينكر فضل الخيال الخلاق او القيمة الجمالية فى الفن ، لكن مما لاينكره احد ايضا ان المحتوى الاجتماعى لا يتعارض مع الخيال الخلاق او القيمة الجمالية الخالصة • ولئن ضحى البعض بهما مقابل المحتوى الاجتماعى الا ان هذا ليس مبررا لانكارهما على مدرسة الواقعية الاشتراكية او الاجتماعية • اما الخيال الخالص فاحسب أن من الصعب وجوده الا فى حالة العمد والاصرار من صاحبه • ذلك لأن الفنان او القاص الذى يعيش فى مجتمع يكون من الصعب عليه أن يتحرر منه تحررا عفويا • فاذا تحرر يكون تحرره بمثابة الهروب والاغتراب المتعمد وهما حالتان تنتجان فى اساسهما من الموقف الذاتى الخالص ورفض الانتماء ، وتغليب الذات على الموضوع ، وما الى ذلك من عوامل تحرر الفنان من مجتمعه ، وتشعره بضآلة الحياة وتفاهتها ، وتسكنه برجا عاجيا لا يبرحه الا اذا شفى من علته •• علة التفضخم فى ذاته •

***

زوايا وانباء ••

نيويورك :

● كل شىء يرتفع لا بد أن يميل •• عنوان مجموعة قصصية للكاتبة فلانرى أوكنور فى ٢٦٩ صفحة صدرت عن دار فارار وشتراوس وجيرو • المؤلفة توفيت فى العام الماضى عن ٣٨ سنة ولم تنشر هذه المجموعة فى حياتها• من رأى فلانرى أن كاتب القصة يجب أن يصور الواقع قبل أن يستعلى عليه• المجموعة مكونة من ٩ قصص ، تدور موضوعاتها حول الحياة المنزلية الأمريكية وأخطارها ، وكذلك حول بعض المواقف العادية فى هذه الحياة • صدر لفلانرى من قبل « الدم العاقل » وهى أول رواية لها ثم مجموعة من القصص بعنوان : « الرجل الطيب من الصعب ايجاده » وأخيرا رواية بعنوان : « العنف وسع نطاق المشكلة » •

● شجرة خضراء فى جد •• عنوان رواية لالان شارب فى ٣٧١ صفحة صدرت عن دار المكتبة الأمريكية الجديدة• الكاتب من أصل سكوتلندى وعمره ٣١ سنة • أما الرواية فتعالج موضوعا غريبا هو العلاقات المنحرفة بين الشباب وانفصالهم وغربتهم وشذوذهم الجنسى ! •• من الغريب ايضا ان امثال هذه الموضوعات هى السائدة فيما يكتبه الجيل الجديد من القصصيين والروائيين فى أوربا الغربية وأمريكا على السواء •

باريس :

● أعلن جان بول سارتر انه لن يسافر الى أمريكا كما سبق أن أعلن لالقاء بعض المحاضرات فى جامعاتها •• السبب هو استنكاره لسياسة الولايات المتحدة ازاء فيتنام •

لندن :

● جيزيللا السنر •• كاتبة المانية جديدة نالت أخيرا جائزة فورمنتور الفرنسية على روايتها «الأقزام العمالقة» •• ترجمت الرواية الى الانجليزية فى الشهر الماضى وصدرت عن دار ويدينفلد ونيكلسون ، لكنها لم تعجب النقاد !

القصة العربية فى شهر

يقدمه فخرى فايد

رسالة العراق

كتب الأخ : سعد العسلى ـ الموصل ٠٠

فى أفق الفكر الرحيب ٠٠ ارتسم قلم شاب فى نهج الابداع والتجديد هو القاص الأستاذ **زهير غانم** الذى عرفناه منذ لقاءنا الفكرى فى نتاجاته اللامعة فى جريدة فتى العرب الموصلية ـ ومن القصص التى نشرت له ونالت استحسان رفيع : مازلنا غرباء ٠ والظلام ٠ ويمتاز زهير بالاسلوب الاكاديمى القوى والعمق الفلسفى الواقعى فيركن الى الذات الملزم فى تحليله الممعن لشخوص وفكرة وتسلسل الحوادث القصصية ٠

ويعتبر الأستاذ **زهير غانم** الرائد الاول فى الموصل للاتجاه الفلسفى ـ الذات الملزم ـ من خلال قصصه ، وله دعوة لضرورة تعاون الأقلام لاصدار نتاجات قصصية جامعة، وسيصدر له فى القريب مجموعة قصصية بعنوان : وداعا للشمس ٠

ونحن على صفحات القصة نناشد القصاص زهير غانم بان يضرب ضار الضيق ليلتقى مع المثقف العربى على صفحات مجلة القصة ٠ والى اللقاء ٠

عاشت القصة العربية فى الشهر الماضى فترة كلها قلقلة وعدم استقرار ، فلقد اختفت وتقلصت أمام صفحات الاعلان والاستطلاعات الصحفية الخفيفة ٠

وهذا الوضع يبدو غريبا كل الغرابة من صحافة اشتراكية مدعمة بملكيتها للشعب ، أى لامجال للتعلل من قبل القائمين على أمر التحرير فيها بالخوف من الافلاس ، وبضرورة تقديم الخفيف المثير الذى تقبل عليه جمهرة القراء ٠

حتى الأسبوعيات

والأدهى والأمر اختفاء القصة من المجلات الاسبوعية وهى المكان الرحب ـ آسف المكان الذى كان رحيبا ـ ٠

فمجلة آخر ساعة بعد أن انتهت من آخر أجزاء مسرحية وابور الطحين لم تنشر قصصا ، ولم تشر لغير تساؤل من احمد صالح عن كيف لم تفز قصة مصطفى محمود (الأفيون) بجائزة الدولة للقصة ٠

ومجلة المصور أمرها كأمر سابقتها فلقد امتنعت عن نشر القصص طويله وقصيره على حد سواء ، وناقش رجاء النقاش قصة مصطفى محمود (أيضا) العنكبوت وقال انها أول قصة علمية فى الادب العربى ، انها أول عمل فى أدبنا يتصدى لمشكلة العلم والانسان٠

أما مجلة الاذاعة والتلفزيون فانها تقدم قصة واحدة لجاذبية صدقى ، ثم أغلقت أبوابها ، حتى «الباب المفتوح» رغم الضجة التى سبقت ظهوره ووعد فيها الموهوبين بأن الابواب ٠٠ كل الابواب ستفتح أمامهم ، وتدفق سيل من الرسائل ٠٠ كانت القصة تحظى بنصيب الأسد ٠ ٠مئات آلاف من التطلعات صحت فى نفوس الشباب ٠ ولكن فجأة اختفى الباب بدون كلمة عزاء للذين وئدت آمالهم ٠

وفى تعاون الثلاثاء كتب محمد جبريل مرحبا بالمواهب الاقليمية واعدا كمشرف على باب الادب بأنه سيعطى القصة مكانها اللائق وليؤكد قوله أجرى استطلاعا مع مجموعة من القصاصين حول الاسباب التى دفعتهم لان يهجروا قراءهم ٠

ثم يتبع الاستطلاع ببحث عن الفلاح بين هيكل ويحيى حقى ، أما العدد الثالث فيعرض خمس مجموعات قصصية ٠ ويتناولها من زاوية الريف ٠ ونحن فى انتظار ثمار هذا الجهد ، فنرى صفحة للقصة يكتبها أبناء الريف ٠

وروز اليوسف لم تنشر طيلة الشهر غير مقال للدكتور على الراعى عن قصة قناديل أشبيليه لعبد السلام العجيل ، بجانب شىء للقراءة الذى يقدمه السباعى فى قالب روائى ٠

بينما تقدم **صباح الخير** الى جوار حدوتة الاوراق الملونة قصة ثروت أباظه الطويلة «شىء من الخوف» ولخوفى من أن يقال انى أجامل عزيزا ، لقلت انها تجربة جديدة من حيث التكنيك ، وروعة الاسلوب ٠٠ وعمق المعنى ٠

والثقافة هى أكثر المجلات اهتماما بالقصة ، أما الرسالة فهناك عتاب لتناسيها القصة العربية ٠

أما الشهريات :

المجلات الشهرية أكثر محافظة على حيز القصة من غيرها ، وان لم تنشر قصة أوفت قضاياها ٠

مثلا مجلة بناء الوطن نشرت استطلاعا مع نجيب محفوظ عن الفترة التى توسطت صدور أولاد حارتنا والشحاذ ،قام بالاستطلاع عبد المنعم صبحى .

أما على شلش فيكتب أيضا عن نجيب محفوظ من خلال تقديم المخرج فايزحجاب لقصته حنظل والعسكرى ، ويرى على من خلال نجاح التجربة رأيا ، وهو أن القصة القصيرة أثبتت أنها أصلح الاشكال الادبية لأعداء التمثيليات التليفزيونية .

علل السبب فى نجاحها فقال :

ـ ان القصة القصيرة تدور غالبا حول موضوع مركز، فى مساحة زمنية ومكانية محددة بين عدد قليل من الاشخاص بحيث يمكن فى النهاية ابراز فكرتها وصب جسمها فى عمل درامى يقوم على الصوت والصورة .

وهناك غير هذا استطلاع مع توفيق الحكيم رفض فيه أن يقيم قصة يوميات نائب فى الارياف قائلا : **انا لا أقيم أعمالى أنا أكتب ، الناس يتولون رأيهم ، انا لأستطيع أن أتكلم الا من خلال المسرحية أو الرواية .**

ويتناول محمود سالم مجموعة ابراهيم فتحى القصصية «رقصة الموت» بالتعليق فيقول انها تتصف بالاغراق فى التشاؤم ورغم قصر التعليق وتعميم الاحكام ، يمثل أملا فى اهتمامات أكثر بكتابات الطلائع .

ومجلة **المجلة** أصدرت عددا ممتازا عن الثورة الادبية وقام صبرى حافظ بجوار كتابته عن الرواية المصرية بعد الثورة ، فى نفس العدد ، قام بعمل استطلاع عن الفنون الادبية خلال سنى الثورة ووضعها الراهن ومشكلاتها وتحدث عن الرواية نجيب محفوظ ويوسف ادريس عن القصة القصيرة .

وليوسف ادريس قصتان بالذمة والامانة نشرت بمجلة الكاتب ، وقصة مصرية جدا ونشرت مجلة الهلال الى جانب مناقشة عالمية حول القصة القصيرة وتحليل بقلم حمود أمين العالم لكتابات نجيب محفوظ بين أولاد حارتنا والشحاذ هناك تشابه ان لم يكن تطابق فى العناوين مع ما نشر فى بناء الوطن .

وسام القصة :

تناله عن الاسبوعيات مجلة الثقافة للمرة الثانية ، وعن الشهريات مجلة الهلال ، أما اليوميات فحتى الآن لم تحتف بالقصة حتى تحتفى بها القصة .

القصة فى المنيا :

رسالة من القاص نبيل احمد المنياوى يؤيد فيها فكرة الباب ويقول انه بدأ فى تكوين جماعة للقصة تضم الموهوبين من كتاب القصة فى المنيا .. وهى تقوم بمناقشة النتاج الجديد .

والقاص يطلب تأييد اتجاهه ، ونحن معه ، وندعو لجماعة القصة بالتوفيق ..
وشكرا لرقة مشاعرك .

● والقاص **عنتر مخيمر** بالزقازيق كتب مرحبا بالباب ، وأملي ألا تقتصر رسائل الأعزاء على الترحيب ، وان تتعداه الى حيز العمل فيكاتبونا بنشاطهم .

● القاص **محمد الخضرى عبد الحميد** كتب من ملوى يقول أنه يعد لاصدار مجموعة قصصية جديدة بعنوان صاحب جلالة الى جانب الندوة القصصية الاسبوعية التى يقيمها كل أسبوع .

النقاد والمجموعات :

رغم صدور عديد من المجموعات القصصية ، والقصص الطويل لقصاصين طلائع وآخرين قدامى ، الا أن الحياة الادبية تعانى من صمت النقاد واصرارهم على الاستمرار فى تناسى واجبهم .. وتقاعسهم عن القيام بدورهم ، لهذا رأى الباب أن يضيف الى مهامه مهمة جديدة حبيبة ، وهى أن يعرف بالنتاج القصصى الحديث وان يولى اهتمامه لمن تتناساهم الاقلام ونبدأها بمجموعة محمود بقشيش وسيد سعيد .

الموجة :

وبداية القول، تهنئة لصاحبا المجموعة الشابين على التصميم والاصرار اللذان دفعاهما الى اصدار الكتاب على نفقتهما الخاصة رغم مافى هذا من تضحية مادية .

المجموعة تضم أربعة عشر قصة قصيرة كتبها الاديبان مناصفة ، **واذا كانت هناك سمة تجمع بين محتويات الكتاب ، فهى سمة التمرد التى يتصف بها أبطال القصص جميعا .**

والكتاب يبدأ بقصص محمود بقشيش السبع وينتهى بقصص سيد سعيد .

أولى القصص عنوانها «أيام» وتحكى قصة رسام فقير يعيش فى منزل تملكه امرأة قاسية ، لذا فهو ثائر متمرد على فقره وواقعه وقسوة المرأة ، وهو امام طرقاتها على باب حجرته يعانى من صراع مرير بين أن يجابه الحقيقة أو يهرب منها الى عالم ضبابى ستصنعه قطعة أفيون أعطاها له سيد القهوجى ، لكنه ينتهى الى ضرورة المواجهة وعدم الهروب فيواجه المرأة بتمرده ، وصرخ بأعلى صوته :

ـ أيوه موجود .

واندفع بلا ارادة يكيل لها الضرب(!!) حتى يظهر لها صاحب .

● وفى قصة «الخريف» نرى الرسام فى كليته غريبا عن زملائه ، متمردا أيضا .. لكنه عكس نفوره السابق من الجميع يشعر بالتعاطف مع زميلة له ذات وجه منطفىء وشفتان كقطعة لحم ميته .

ويحاول الفتى أن يخرج بهـــا عن أحزانها ، يخرج بنفسه فلا يستطيع ٠٠ ويترد على فشله ليجد نفسه فى النهاية يسير وحده فى الطريق ٠

* وخضره المرأة الريفية التى تركت حبيبها الشاب وراءها فى قريتهم بعد أن زوجها أهلوها من افندى عجوز يعمـل موظفا بالمدينة الصاخبة عبدة المادة ٠٠ والذى مالبث أن خانتـــه الايام فسقط قعيد المرض ٠ خضرة هذه هى بطلة قصة «القاع» رغم انها تبدو كشخصية هامشية انها هى التى تعيش عيشة التمزق والضياع وتعانى من تمرد دخيلتها على وضعها ٠٠ ولكنها لاتستطيع الفرار من زوجها ٠٠ قدرها ٠

لـكن خضرة وان كانت قد صـبرت وضغطت تمردها فرغما عنها تمدد التمرد واجتاح كل مشاعرها وحرك اعضـاءها فمزقت وجه قدرها ٠٠ زوجها بماكينة الحلاقة ، وانبثق الدم غزيرا ، وجعـل الرجل يصيح بلا صوت ولا حروف ٠

والزوج فى قصة «الهزيمة» أشــد تماسكا وان كان مريضا وهو هنا يكتب رسالة الى صديقه متمردا على واقعه ومآل اليه متسائلا هل هناك حقيقة بعد أن وجد نفسه فى واقع يجره الى امتدادات ماضية تجافى ماكان يريد ويتوقع ٠

أما عامل اليومية فى النادى فهو يودأن يستقر أن يضحى موظفا بالراتب ٠٠ ويشعر بالجوع الى تحقيق أمنيته ولهذا يسمى محمود بقشيش قصته بالجوع ، **ولكن هل يشبع العامل من بعد جوع ؟**

لا ٠٠

فهناك عينه الكليلة ، وهناك الطبيب يقف كالجدار حائلا بينه وما يريد ٠ ٠ ويثور العامل ، وتكون ثورته مجنـــونة فتؤدى به الى المـــكان الذى يؤول اليه المجانين ، **ويستمر الجوع ، وتســتمر قصتنا حادث وجود الموجة فى ذات الخط ونلاحظ أن الابطال لاتنفرج أزمتهم أبدا ولا يحصلون على حلول لمشكلاتهم رغم تمردهم وايجابيتهم ٠**

عكس هذا أبطال سيد سعيد فهم أكثر قربا للواقع ويجدون طريقهم للخلاص ، وأن شاركوا أبطال محمود فى التمرد ٠

فبطل لعبة الاقواس متمرد على القوس والقوس لقب يطلقه على فئة عفنـــة من الموظفين المستغلين يرى ضرورة التخلص منهم من أجل أبنائهم ، هو وفتاته التى يسير معها حاكيا لها تجربته مع القوس وخواطره عن طريق الخلاص ٠

وفى قصة «**القبضة**» **يثور بطلها على** موظف والثانى بوهيمى المعيشة ، ويتميز أحزانها ، يخرج بنفسه فى النهاية يسير **التقاليد** ، **على تربية أبيه القاسية ، انه يثور ويهدد بقبضته عفونة الفكرة القديمة عن الزواج وينتصر باصراره ويمضى فى طريقه بعد أن وجده غيرآبه بالتهديدات ٠**

أما البطل فهو بطل القصـــة التى تحمل صفته ، ولقـــد اتت القصة فى

ميعادها بعد أن قفز سؤال يلح على حينما شممت رائحة بورسعيد تجرى فى دم القصص : فكيف تخلو مجموعة كاتباه من بورسعيد من تجربة عام ١٩٥٦ ؟

وجاء الجواب فى صورة قصة كتبها سيد سعيد الذى تبدو قصصه أكثر التصاقا بالواقع ، والبطل فى القصة انسان يخاف ، ويثور ، يجبن ويندفع، وفى النهاية ينتصر ويعود لحبيبته ، وتبدو النهاية مضغوطة وغير مقنعة .

وقصة «الصمت» هى رأى يقوله المؤلف فى الموظفين الذين يجلسون راكدين .. فرحين بمظهرهم من خلال لقاء صديقان أحدهما ضابط والآخر فنان .. الاول موظف ، والثانى بوهيمى المعيشة .. ويتحيز الآخر للفنان فيجعل عبده الضابط فى النهاية يكتفى بتأمل حمار ضخم الجثة يسير ببلادة فى الطريق الواسع .. الخالى من الاحجار .

وبطل قصة «الصخر» رغم أنه من صخر مكافح الا انه لا يستطيع أن يصمد انسان كدح وعرق وحرم نفسه من ثمرة كده ، لأجل أن يصنع من أخيه شيئا .. وحينما يتحول الطفل الصغير لرجل ضخم مسئول ينفر من صانعه ، يثور عليه ويطرده ، يتنكر له ، ولكن كيف يتخلص الصانع من لذة ما صنع ، انه يحب دائما أن يشاهد نتيجة جهاده ويلتصق بها ، لهذا يحتمل صاحبنا ويحتمل ، وحتى حينما ينتحر فهو ينفذ طلبا لصنع يديه ، فلقد ثار عليه أخوه الصغير وصرخ به : انتحر .

لقطة رائعة .. رائعة مثلها آخر قصص المجموعة ، وقصص سيد سعد : حكايات غير عصرية رغم انها امتداد لذات الفكرة السابقة ، فكرة عدم اعتراف انسان اليوم بالمعروف بالجميل .. الا أن عملية المزج بين حكايات الجد وصراع الأم والاب قائمة على تخطيط واع لبناء ناضج .

تحية أخيرة للجهد والاصرار الذى يطل من وراء كل حرف ، وننتقل معا لنقرأ مجموعة من لبنان .

اكليل شوك حول قدميه :

وما يضمه غلاف الكتاب هو مزيج من الخواطر والقصص ، والواضح أن الآنسة لور غريب قد كتبت من أجل أن تقول تعبر عن ذاتها من خلال اثنى عشر مقطوعة اختارت لها أسماء تتصف بالشاعرية .. فالخاطرة الأولى عنوانها « ظلى غبار المسافات » .

* وبما أن الباب خاص بالقصص ، فالخاطرة الاولى عنوانها ظلى غبار المسافات فسنغفل الحديث عن الخواطر ، والقصة الاولى معنونة بوجوه من شمع ، والقصة تحكى حبا فاخلاصا وتفانيا من الزوجة لبيتها ، ان بيتها وزوجها هما كل عالمها ، المنضدة . السرير . المقاعد . هذه الاثاثات هى صويحباتها ، حتى بدا للعالم الخارجى غريبا .. غريبا ، وفى يوم تطرق مسامعها عبارات غاضبة ..

زوجها ٠٠ سيدها غاضب ، وتحـــادث نفسها بأنها لم تقصر ، البيت منظم ٠٠ والأكل شهى، لم اذن يغضب ؟ أريد طفلا أتسمعين ؟ أريد طفلا ٠

لكنها عاقر ، الطبيب قال هذا ، وتدور الايام كلها مذلة ، الزوج يقسو ، ويقسو ولكن أين تذهب ٠٠ كيف تترك بيتها ، عالمها ٠٠ دنياها ، ولا يجد الزوج بدا من طردها ، طردها الى الطريق وأغلق الباب وراءها ، وترى الوجوه ، وجوه غريبة ، تخيفها وتشعر بالضياع ، وتركض عبر الأضواء المتراقصة ، بين الرذاذ عائدة الى بيتها ، والثقة جميلة البناء ، وفيها كل عناصر القصة القصيرة الناجحة ٠

القصة الثانية : «اكليل شوك حول قدميه» ، وهى تحكى قصة حبيبين تفرق بينهما التقاليد العتيقة فعادل يرسل له أهله من الريف يطلبون منه الحضـــور ليزوجوه بالفتاة التى اختاروها له وتشعر فتاتنا بأنها لم تضع اكليل شوك حول قدميه حتى تشله عن الاستجابة لمثل هذه الدعوة الجاهلة ، ولكن ما يعيب القصة هو استطراد المؤلفة فى سرد خواطرهـــا التى لا تسهـــم فى تطوير الحـــدث ولا تحتملها فنية القصة القصيرة ٠

فمثـــلا اذا الغينا صفحة ١١٩ وجزءا كبيرا من ص ١٢٠ ولو وقفنا بالقصة ، وجعلنا نهايتها كلمة اختفى من ص ١٢٦ وألغينا صفحات ١٢٧ و١٢٨ لـــكانت القصة أقرب بكثير لاعطـاء المعنى الذى قصدته ٠

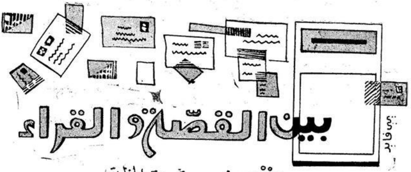
وهذا الذى نراه فى قصـــة « اكليل شوك» نراه فى غيرها من القصص ممـــا يجعل الفكرة تعانى من انقياد القصاصة وراء رغبتها فى تسجيل كل ما يعن لها من أفكار تتوارد على ذهنها أثناء سردها للمواقف ، ولقد شعرت الآنسة لور بهذا فاختارت أن تستعمل أسلوب المتكلم فى رواياتها لقصصها حتى يتيح لها هذا فرصة التعبير عن ذاتها ، ولكن القصة لها قواعد وأصول اتفق عليها ، ولا يحق لنا أن نحطم هذه القواعد والاصول الا من خلال فهمنا لها وتقديمنا لتجربة جديدة ٠

بقى شى هو أسلوب الآنسة لور المتمكن الجزل الذى أعتقد أنه يمكنها من أن تقول الشعر بجانب القصة التى تستطيع أن تملك قيادها لو جعلت أفكارها تختمـــر أكثر، وعرفت أن القصة القصيرة كالشعر لاتحتمل الاستطراد وتحتاج للفظـــة الموحية ، والعبارة المركزة ٠

وهناك ملحوظة وهو استعمال الآنسة لور غريب لحروف الجر استعمالا صحيحا ، وهو ما يؤخذ على غالبية أدباء لبنان اذ يفضلون دائما استعمال حرف الباء بدلا من فى وشتان بين الاستعمالين ، والمثل هنا من حيث قالت المؤلفة دون قصد : لاتفكرى بالنسيان ولا بالاطفال ٠ فالباء حرف جر يختص بالدخول على الاسماء وهو هنا بمعنى من أجل ، فيصبح المعنى لاتفكرى من أجل النسيان ولا ٠٠٠ وهو معنى لم تقصد اليه المؤلفة بحال ٠
ونحن فى انتظار مجموعة لور الثانية ٠

شكرا والى اللقاء ٠

فخرى فايد



بين القصة والقراء

يقدمها ثروت اباظة

غنيم محمد غنيم :

اعتذر اليك اعتذارين فاما الاعتذار الاول فهو عن تأخرى فى الاجابة وأما الاعتذار الثانى فهو على أن أجيب على قصتك فى هذا البـاب مع أن كتابتك واضح فيها انك تمارس الكتابة عن عمق وفهم كبيرين وانك تملك ثروة لغوية هائلة ولكن لا سبيل لى فى مخاطبتك الا أن أكتب اليك هذه الاسطر · وما أظنك فى حاجة الى القول أن قصتك رائعة وأسلوبك فى غاية الجمـال ولغتك نقية طيعة جميلة · وعرضك القصصى فيه فنيـة وبراعة · ويحلو لى أن أنقل فقرة من قصتك أعجبت بها كل الاعجاب تلك التى تقول فيها «فهو يتعامل مع الناس بخارجه ـ ان صح هذا ـ ولايتعامل بداخله أبدا ، من الصعوبة أن يخرج انفعـالاته الطيبة ومجاملاته ، انه حتما يشعرها ولكنه ردىء التوصيل» ·

ارجو أن أنشر القصة جميعها فى أقرب فرصة ·

عادل آدم :

لقد أعجبت بقصة لك قبل هذه الاخيرة ـ الطريق الطويل ـ ولكن قصتك هذه لم أعجب بها ·· لقد أشرت فيهـا الى موضوعات غاية فى الخطورة ثم تركتها أو أنت أسقطتها وكأنها شيء لا قيمة له ·· ان الايمان بالله شيء لا يعالج بمثل هذه السهولة والاستهانة ··· انه عقيدة الملايين من الناس فاذا عرضنا له تحتم علينا أن نعرض له بكل عمق وتمكن والا كان الأخلق بنـا أن نتركه · ومشاعر الابن الذى يودع أباه ··· مالهـا

سطحية هكذا فى قصتك ... لماذا لم تبلغ الاعماق البعيدة فى شخصية بطل قصتك ... ان كل ما قلته أنه كان يحس أن أمه لم تمت أهذه هى كل المشاعر التى تضطرم فى نفس ابن يحب أمه ويودعها الى مقرها الاخير ... وبغير هذه المشاعر ماذا يبقى فى قصتك انها كلها محاولة منك أن تظهرنا على مشاعر ذلك الفتى الذى يشيع أمه فاذا هى مشاعر سطحية لا لوعة فيها ولا ذكريات ولا ألم .. لم انبض معها نبضة واحدة.. وأنت تخطىء أحيانا فى النحو ولكن أخطاءك قليلة . وعلى كل حال أنا فى انتظار قصة أخرى لك خير من هذه .

محمد البدوى النجار :

لا شك أنك بالنسبة الى اخوانك متفوق فى اللغة والاسلوب ولكنك تحتاج الى كثير من القراءة فى القصة الحديثة والاسلوب الحديث أيضا . فالادب الآن لا يحب الاكليشيهات فهى ان كانت تصلح فى مواضيع الانشاء الا أنها لا تصلح للموضوعات الادبية بوجه عام والقصة بوجه خاص . انا من الذين يحبون الاسلوب الجميل ولكن لا بد أن يكون منطلقا يقدم ما يريد القصاص أن يقوله فى يسر وعذوبة فان هذا الاسلوب الذى اخترت أن تكتب به يضع حاجزا كبيرا بين القارىء والقصة . أما القصة فى ذاتها فواضح فيها أنها تحتاج مزيد من التعمق . فأنت مثلا قد كتبتها عن أشخاص كثيرين والقاعدة فى القصة القصيرة الا يتعدد شخوصها تعددا كبيرا لأن القارىء لن يستطيع فى قصة قصيرة أن يتعرف على عدد كبير من الشخصيات والتجربة تثبت دائما أن هذه القاعدة سليمة وشخصية الاب والام شخصيتان لا ملامح لهما ينطبق الوصف فيهما على أى أب أو أى أم ولا بأس عليك من هذا ولكن لابد أن يقوما بعد ذلك بأعمال تميزهما عن الآباء والامهات الآخرين والا فلماذا أنشأت قصتك جميعا . الواقع أن قصتك تبشر بمستقبل ولكن لابد لك من القراءة الكثيرة وأرجو أن نلتقى بعد ذلك على هذه الصفحات .

جمال قابيل :

ياسيدى لقد أعطيت رأيك فى المرأة التى تحدثها منذ السطور الاولى من قصتك فجعلتها أقرب الى خطاب غاضب محموم منها الى قصة تسوق الينا أحداثها لنعرف هذا الرأى الذى قدمت به حديثك وفى أمواج غضبك الثائر ألقيت الينا بالمعلومات تكاد تغرق فى تيار عاطفك ومن خلال هذه الامواج العاتية من الغضب تلوح لنا بوادر قصة عجيبة . فالكاتب صاحب القصة ثائر على زوجته لانها خانت حبه مع طبيب . ثم هو فى قصته يقول انه لا يحب فى الخفاء . اذا كنت لا تحبها ففيم ثورتك . ان هذه القصة التى قدمتها تنبىء على أنك صاحب أسلوب

تستطيع به أن تقول شيئا ولكنك فيها لست قصاصا وأنا ثائر على هذه الزوجة ثورة لا تستند الى أسباب معقولة • لا شك أن العمل الفنى يحتاج الى جانب من العاطفة فى ثناياه ولكن اذا طغت هذه العاطفة عليه جنح من الكاتب وأصبح خطابا وأبى أن يكون عمـلا فنيا ينتسب الى القصـة لا أدرى لماذا تخطىء فى النحو أحيانا مع أنك تكتب بأسلوب عربى مستقيم • أرجو أن تقرأ كثيرا فى القصة • وأرجو أن تترك الاحداث هى التى تتكلم وحاول ألا تزحم أنت طريقها حين تنثال • فالقاعدة الاساسية ألا يتدخل الكاتب فى العمل الفنى فاذا كان يصر على التدخل فعليه أن يخالس القارىء فيدخل خفية ويخرج خفية اما أن يظـل هو ماثلا أمام القارىء يصب عليه آراءه فى شخوص القصة فهذا أمر يخرج بعمله عن ميدان القصة ويقذف بها الى ميادين أخرى لاتتصل بالقصة لسبب• أعتقد أنك تستطيع أن تكتب خيرا من هذا اذا ما هدأت أعصـابك بعض الشىء وأنت تكتب •

فاروق حسان :

أولا وقبل كل شىء أنا أرفض اللهجة التى تكتب بها ، وأعتقد انك أيضا ترفض أن يوجه مثلها اليك • فأنت تقـول ان ثلاثة أشهر كافية لقراءة الفية ابن مالك ترى اتسخر ؟ أهى اذن خفـة ظل ؟ أتعتقد أنك بهذا تقدم نفسك تقديما يشرفك ؟ اننا هنا فى مجـال أعمال فنية جادة وليست السخرية من الأعمال الجادة التى تبشر بوجود انسان وأؤكد لك أن وجود الانسان أهم كثيرا من وجود الفنان لانه لن يستطيع أحد أن يكون فنانا اذا لم يكن من قبل انسانا • ثم انت تقول انك ترددت فى أن تكتب الى وما أحسب يا أخى أننى أرغمتك على أن تكتب الى • وانت تقول انك واثق من نفسك فلماذا اذن هذا الغضب وتقول ان الاستاذ نجيب محفوظ أبدى فى أعمالك رأيا تعتز به وهذه ـ لا شك ـ منزلة يطمح اليها كل كاتب ولكننى واثق ان أستاذنا نجيب محفوظ لا يرضى عن هذه اللهجة التى تكتب بها خطاباتك • لكل انسـان كبرياؤه ولكن هذه الكبرياء ان تجاوزت مداها أصبحت شيئا آخر أعيذ نفسى أن أقوله :

موهبتك القصصية لا شك فيهـا الا أن العبارة تخونك فى بعض الاحيان كما يخونك النحو واليك هذه الفقرة من قصتك شلالات الاحزان «ولا يعلم ان كانت القطة قد فهمت كل ما قيل من عدمه ولكن من المؤكد أنها شعرت بأن هناك شىء قد حدث » أعتقد أن « من عدمه » هذه ليست تعبيرا فنيا على الاطـلاق « وشىء » فيها خطأ نحوى واضح • ولـكن هذا لا يقدح فى موهبتك • قصتك هذه فى رأيى أقل من مستوى النشر لضعف الاسلوب فيها فى كثير من المواضع وان كان العرض القصصى فيها جيد فان رأيت أن ترسل غيرها فأرجو أن يتاح النشر وان رأيت غير ذلك فلا عليك•

فتحى أنور خليل ـ قنا :

قصتك « الفتاة والقطار » لم تصل الى وانى أرجوك يا أستاذ فتحى رجاء أوجهه اليك والى جميع الذين يتفضلون بمراسلة هذا الباب أرجو ألا يستنتجوا من التأخر فى الرد أى معان أخرى · كل ما فى الامر أن القصص كثيرة وجهد الانسان محدود ·· أنت لا تتصور العبء الذى أحس به حين أقرأ فى بعض الخطابات من يقول أنه يأس من الكتابة يأسا كاملا لأنى لم أعلق على قصته ··· هذا تفكير عجيب فلنفرض حتى اننى لم أعجب بقصته أهذا يعنى أن يترك الكتابة أنا رأيى أحد الآراء ولا يكفى رأى واحد للقضاء على موهبة كاتب · ماذا عليه لو حاول مرة أخرى وقرأ وعرض أعماله على غيرى بل ماذا عليه لو أعاد عرضها على · ان الحكم فى الاعمال الفنية يعتمد أول ما يعتمد على الذوق وليست هناك قوانين ثابتة كقوانين المحاكم أو قوانين الطبيعة التى لا تقبل التغيير أو التبديل · أرسل الى قصتك مرة أخرى يا أستاذ فتحى فلعل النسخة الاولى ضلت الطريق أو ارسل غيرها · اذا رأيت أن غيرها أحسن ولا تتعجل الرد ولا تستنتج من التأخير فى الرد أية معان · فأنا دائما على استعداد أن أواجه الكاتب برأيى الصريح لأوفر عليه ـ على الاقل ـ مشاق الاستنتاج ·

أحمد زكى على أحمد زكى :

اننى أقدر تماما الظروف التى دعتك الى الكتابة · ولكن الواقع أن هذا الفن لا يقبل الحل الوسط فاما أن يتقن الفنان فنه أو هو سائر فى طريق مظلمة لا هداية له فيها ولا نجاه · لا تستطيع ياسيدى أن تتقن فن الكتابة أو تتقن أولا اللغة التى ستكتب عرضك القصصى لا بأس به ولكن هذا لا يكفى · لا عليك اذا ما عدت للقراء مرة أخرى ولا تظن أن ست سنوات كافية بل انها تعتبر البداية · أترانى استطعت أن أجيب على ما أردتنى أن أجيب عليه ·

محمد رشاد قدورة ـ سوريا :

قصتك لا بأس بها الا أن النصيحة المباشرة فيها واضحة أكثر مما يطيق العمل الفنى · لو أنك استغنيت عن الخطابة لكانت أقرب الى الجمال الفنى · ثم الا ترى معى يا أستاذ محمد أنها قصيرة أكثر مما يجب ـ أين الانفعالات النفسية أين الخلجات التى تظهر فى الاعمال والاقوال أين شخصياتك لماذا لم ترسمهم لنا رسما كاملا أو حتى قريبا من الكمال · كم كنت أرجو ألا أجد أخطاء نحوية فى قصتك القصيرة ·· الا ترى معى انك لا بد أن تقرأ أكثر مما قرأت حتى تبدأ فى الكتابة ·

صلاح الباجورى :

ارسل على هذا العنوان وتوكل على الله ·

جلال منصور :

وصل الى خطابك قبل أن تصل القصتان اذا كان مقدرا لهما أن يصلا ٠٠ لست أدرى ماذا عاقهما عنى ولكنى واثق اننى لم أقرأهما فاذا شئت أن تعيد المحاولة فأنا فى انتظار قصتك ٠٠ وأرجو أن تكون قصة واحدة ٠

عطية قنديل :

العرض فى قصتك لا بأس به ولكن ما هو المعنى الذى تهدف اليه، أتراك تأخذ على أهل القرية أنهم قاوموا الكلب الشرس ، ماذا كنت تريدهم أن يفعلوا ٠ ولماذا قدرت لهذا الكلب أن يحيا بعد أن ابتعد عن القرية ؟ أتراك تريد أن تقول ان البعد عن الآدميين غنيمة حتى للكلاب ؟٠٠ الواقع اننى لم أفهم قصتك كل الفهم أرجو أن أفهم القصة القادمة ٠

قصة قصيره :

الرجل والعنزة

بقلم : محمود الحسينى المرسى

الحارة طويلة متعرجة ٠٠ على جانبيها ترقد البيوت الأزلية الحقيرة ٠٠ بيوت مكونة من طابقين أو ثلاثة لا أكثر ٠٠ كلها آيلة للسقوط ٠٠ وخمسة أو ستة ختمت أبوابها بالشمع الأحمر استعدادا لازالتها كما أمرت البلدية ٠٠ ونفس الحفنة من النساء قد افترشت الأرض بجوار حائط صغير فى نهاية الحارة أشبه بسد صغير ليعصم الأطفال من السقوط فى الهوة المنحدرة خلفه ٠٠ وبعض الأطفال حفاة الأقدام وجوههم مغبرة يتناقلون كرة متسخة من القماش فى تكاسل وغباء ٠٠ وفى ناحية أخرى مجموعة من البنات النحيفات راحت تكون حلقة صغيرة تشدو وهى تدور فى اتجاه واحد « **التعلب فات فات ٠٠ وف ديله سبع لفات ٠٠ وصاحبها واحد خنزير ٠٠ والجبة وقعت فى البير** » ٠٠ وعلى قمة هذه الحارة تقبع نفس « الدكانة » ٠٠ محل صغير فى مساحته لايربو على متر فى متر ٠٠ فى ركن من أركانه « دولاب » قديم يميل على أحد جانبيه وكان الثلاثين عاما ترتكز على ناحية واحدة من ذلك « الدولاب » القديم ٠٠ يحفظ فيه الخبز

الطرى وعلى سقف « الدولاب » كان يكوم الخبز الجاف المتراكم تعيث فيه الصراصير والفيران ٠٠ وفى الركن الآخر من المحل يضع « **الخواجة نسيم** » صندوقا صغيرا من الخشب يحتفظ فيه بحزمة أو حزمتين من البرسيم وخلف هذا الصندوق يسند عصا طويلة يعتز بها كعنزته تماما كان قد أهداها اليه أحد الأقارب قبل حضوره الى هذا المكان ٠٠ وأصبحت ملازمة له فى رواحه ومجيئه يتوكأ عليها أو يتباهى بها ملوحا اياها فى الهواء ٠٠ وأمام المحل كان يضع منضدة قديمة متآكلة من طراز « الدولاب » يرص فوقها أرغفة الخبز « المفقع » وفى الركن الآخر من واجهة المحل يضع قفصا صغيرا به بعض أعواد البرسيم وأمامها عنزة سوداء مكتنزة اقتناها من صغرها يتركها طليقة طيلة النهار تلتقط أعواد البرسيم ثم تنط وتقفز أمام المحل وقد تدخل الحارة أحيانا ٠٠ وبجوار القفص يستلقى « **الخواجة نسيم** » يسند ظهره على الحائط الرطب لا عمل له سوى لملمة أعواد البرسيم التى تبعثرها العنزة ووضعها فى جوف القفص ٠٠ كانت رغبته الوحيدة ـ كما يعرفها كل سكان الحارة ـ أن يرى أبناءها قبل موته ٠٠

والخواجة « نسيم » هذا رجل مقوس الظهر فى الخامس والستين من عمره أصفر اللون امتلأ وجهه بندبات ونتوءات شوهت منظره ٠٠ قدماه عاريتان مفرطحتان ٠٠ يداه معروقتان ٠٠ لم يتزوج بعد ٠٠ صموت لا يتكلم ٠٠ ثعلبى فى حركاته وفى معاملته مع الزبائن ٠٠ ويحكون عنه انه تركى الجنس أتى مصر منذ أربعين عاما ولم يعرف بها أحدا ولم يجد مكانا يأويه فتبرع له الحاج على القاضى بتلك « الدكانة » يستأجرها على أن يبحث له عن مكان آخر فى خلال شهر أو اثنين ٠٠ ولكنه وجده مرتعا خصبا فأبى براحه ٠٠ ولما احتاج الحاج على المحل ليعمل فيه ابنه الأكبر الذى قضى مدة *التجنيد قريبا ابى* ذلك ٠٠ وتدخل أهالى الحارة وحاولوا اقناع « الخواجة » ولكن الخواجة ركب رأسه وأصر على ما أراد ومن هنا بدأ العداء بينه وبين كل أهالى الحارة ٠٠ ومع ذلك ظل الخواجة يبيع الخبز لأهالى الحارة لا ينافسه أحد وهو لا يهمه فى هذه الدنيا الواسعة غير «الدكانة» و «العنزة» و «العصا» الزان العوجاء ٠٠ وهكذا عاش سعيدا طيلة حياته فى محله الذى انتزع ملكيته لم ينغص عليه عيشه فى الحارة أحد منذ اشترى عنزته الا عنزة الحاج على القاضى وهى عنزة بيضاء تنبع بالحيوية والنشاط ٠٠ سريعة العدو ٠٠ عنيدة النظرات ٠٠ والحاج على يقع بيته فى نهاية الحارة قرب السد ٠٠ فهى تنتهز فرصة انشغال الخواجة وتشارك عنزته فى طعامها أو تغير عليها وتطردها أحيانا ٠٠ وعندما تحس بقدومه تخطف بعض أعواد البرسيم فى فمها وتجرى داخل الحارة وخلفها يجرى الخواجة وكانت العنزة سباقة دائما فيعود الخواجة وهو يسب ويبرطم ويلعن الماعز وأصحاب الماعز ٠٠ ظلت هذه الحالة تتكرر كل يوم ٠٠ وبدأ العداء بين الخواجة والعنزة على أفواه أهالى الحى جميعا ٠٠

***

وفى صباح يوم شغل الخواجة « نسيم » فى رص أرغفة الخبز داخل « دكانته »

على حين جاءت عنزة الحاج على القاضى تشارك عنزة الخواجة أعواد البرسيم وتنبه اليها الخواجة .. جرى خلفها عدة مرات ولكنها كانت تعود كانها تهزأ به وأقسم الخواجة على قصمها نصفين اذا ما لحقها .. وبينما هو منهمك داخل المحل فى رص أرغفة الخبز الطرى داخل « الصيوان » اذ جاءت العنزة ثانية تشارك عنزته فى أعواد البرسيم التى جمعها « الخواجة » من هنا ومن هنـــاك خرج من المحـل وجن جنونه حين رآها تتطـــاول وتسحب رغيفا بين فكيها من فوق المنضدة المتآكلة .. لم يتمالك الخواجة نفسه .. عاد الى جوف المحل وهو يهدر ويبرطم قصد من توه الى أحد اركانه .. لم يجد أمامه الا العصا الزان المعوجة التى يعتز بها كعنزته تماما .. رفعها بكلتا يديه عاليا استعدادا لقصم ظهرها نصفين .. خرج وكأنه وحش كاسر قضى عليه أن يسجن فى قفصه عشرة أعوام وقد كشر عن أنيابه فبرزت أسنانه من خلال وجهه الملئ بالنتوء والتجعدات .. وفى خروجه اشتبك جلبابه بمنضدة الخبز فسقطت وارتطمت بالأرض وتناثرت أرغفة الخبز وأحدثت دويا تجمع عليه الناس .. فقط التفت اليها ولم يعبأ بها .. عرج الى الحارة مسرعا وأمامه عنزة تجرى ظل يهرول خلفها حاملا العصا بكلتا يديه فى الهواء ظلت تجرى وهو يجرى خلفها حتى وصلت نهاية الحارة وتجمع النسوة وتعالى صياح الأطفال ... دهش الرجال وتعجب النسوة وحلقن فيه بعيونهن ظنوه قد جن لا محالة وبالعصا الزان المعوجة هوى الخواجة فوق ظهر العنزة .. انقصمت العصا نصفين وناءت العنزة فى الأرض والدماء تنزف من ظهرها .. نظر الى نصف العصا التى بقيت فى يده بحنق وبلاهة وجعلها تستقر بجانب نصفها الآخر وتلاقت عيناه بعينى الحـاج على القاضى ـ غريمه اللدود ـ وهو يقف أمام بيته لا يتكلم وابتسامة طليقة تفلت من بين شفتيه .. ابتسامة ظلت محبوسة طوال أربعين عاما .. آن لها أن تنطلق .. وعندما وصـــل

« **الخواجة نسيم** » الى محله وصدره يعلو ويهبط كالمرجل عندما يغلى لم يجد عنزته فى مكانها .. وعن بعد لمح عنزة بيضاء تنبع بالحيوية والنشاط .. سريعة العدو .. عنيدة النظرات منهمكة فى التهام رغيف من الخبز .. سقط الرجل مغشيا عليه وحمل الى دكانته .. وهو يهذى كالمحموم .

فى اليوم التالى .. كانت شمس الصباح ترسل أشعتها .. وكانت مجموعة من البنات النحيفات راحت تكون حلقة صغيرة تشدو وهى تدور فى اتجاه واحد : « **التعلب فات فات .. وف ديله سبع لفات** » .. عندما بدأ الخواجة يعد العدة للرحيل عن القـــاهرة .

محمود الحسينى المرسى

فهرس

لوح ثلج	قصة :	محمود تيمور	٣
عبيد الواجب الاحرار	تحليل :	سعد مكاوى	٨
اللص والحارس	قصة :	نجيبه العسال	١٣
الطاهى الأعمى	ترجمة :	عبله فتحى	٢٠
الاتجاهات فى القصة	بحث :	خيرى حماد	٢٤
رصيف فى ظل العمارة	قصة :	مال الله حسين	٣٤
للكتاكيت أجنحة	قصة :	عبد العال الحمامصى	٣٨
كشف القناع	ترجمة :	د . زاخر غبريال	٤٦
الملح	ترجمة :	محمد عبد اللطيف حجازى	٥١
أزمة البطل المقهور	بحث :	عبد المنعم صبحى	٦٢
الحقيقة الاخرى	قصة :	د . محمد احمد الشرقاوى	٦٨
العروسة	قصة :	طه حواش	٧٤
بائعة البنفسج	ترجمة :	صلاح الدين كامل	٨٠
القصة الوجودية	ترجمة :	احمد عصام الدين	٨٤
نشأة القصة التركية	بحث :	أكمل الدين احسان	٩٠
هانت	قصة :	عبد العزيز مصطفى	١٠٢
من أقاصيص الاولين	عرض :	د . محمد احمد خلف الله	١٠٥
رسالة أم	ترجمة :	مصطفى النمر	١١٠
المركيزة والرسام	ترجمة :	سمير وهبى	١١٩
القصة حول العالم	عرض :	على شلش	١٤١
القصة فى شهر	تقديم :	فخرى فايد	١٤٦
بين القصة والقراء	تقديم :	ثروت أباظه	١٥٣